الأعمال الكاملة

انطون تشيكوف

الجزء الثالث

الروايات

أسامة عبد الرحمن

مقدمة

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلومات والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسات الأمة العربية إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسست بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيره .

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحدا لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها .

أطلقت المؤسسات برنامج ترجم، بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم .

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب فياليوم الواحد .

وتأمل المؤسسات في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيداً عملياً لرسالة المؤسسات الثقافية المتمثلة في تمكين الأجيال القادمةمن ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات .

أسامة عبد الرحمن

حكاية مملة من مذكرات رجل عجوز

يوجد في روسيا أستاذ بارز هو نيقولاي ستيبانوفتش (الفلاني)، وهو مستشار سرى وحامل أوسمة ولديه العديد من الأوسمة الروسية والأجنبية، حتى إنه عندما يضطر إلى حملها يلقبه الطلبة بالحاجز الأيقونى ومعارفه من أرقى الأوساط الأرستقراطية وعلى أية حال فخلال الخمسة والعشرين أو الثلاثين عاما الأخيرة لم يوجد في روسيا ولا يوجد عالم شهير إلا يعرفه الأستاذ معرفة قريبة أما الآن فليس هناك من يصادقه، ولكن إذا تحدثنا عن الماضي فإن قائمة أصدقائه العظام تنتهي بأسماء مثل: بيروجوف، وكافيلين، والشاعر نيكراسوف، الذين وهبوه أخلص وأحر صداقة وهو زميل في جميع الجامعات الروسية وفي ثلاث جامعات أجنبية وهلم جرا كل هذا، وكثير غيره مما كان يمكن أن يقال، يشكل ما يعرف باسمى رتبة مدنية في روسيا القيصرية تعادل رتبة الجنرالونيقولاي بيرو جوف١٨١٠ - ١٨٨١جراح شهير وعالم كبير وضع أسس الجراحةالميدانية الحربية وقسطنطين كافيلين (١٨١٨ - ١٨٨٠) مؤرخ وقانونى وكاتب برجوازى، ونيقولاى نيكراسوف١٨٢١ - ١٨٧٨شاعر ثورى كبير صور بؤس الفلاحين ونادي بالثورة على الحكم المطلق.

واسمي هذا مشهور على نطاق واسع ففي روسيا يعرفه كل شخص متعلم، وفي الخارج يذكرونه من فوق منصات الجامعات مقروناً بنعت: شهير

وينتمي هذا الاسم إلى عداد تلك الأسماء المحظوظة القليلة التي يعتبر سبها أو ذكرها بسوء بين الناس أو في الصحف دليلاً على قلة الذوق وهذا هو المفروض فباسمي يرتبط أوثق ارتباط مفهوم الإنسان الشهير، السخي المواهب والمفيد بلا شك وأنا دؤوب وذو جلد كالجمل، وهذا مهم، وموهوب، وهذا أهم وفوق ذلك، وبالمناسبة، فأنا مهذب، متواضع، وإنسان شريف لمأحشر أنفي أبدا في الأدب والسياسة، ولم أبحث عن الشهرة في مجادلة الجهلاء، ولم ألق خطبا في المآدب أو على قبور رفاقي وعموماً فاسمي لا تشوبه أية شائبة وليس له أن يشكو من شيء إنه محظوظ .

وحامل هذا الاسم، أي أنا، أبدو رجلاً في الثانية والستين، أصلع الرأس، بأسنان صناعية وعرة لا برء منها وبقدر ما اسمى باهر وجميل بقدر ما أنا نفسي كاب وقبيح فرأسي ويداى ترتعش من الضعف وعنقي، كعنق إحدى بطلات تورجينيف، يشبه ذراع الكونتراباص، وصدرى غائر وظهري ضيق وعندماأتحدث أو أقرأ ينحرف فمى جانباً، وعندما أبتسم يمتلئ وجهى كله بتجاعيد شيخوخة ميتة وليس هناك أي شيء مهيب في هيئتي التعيسة، اللهم إلا عندما تنتابني العزة فيظهر على وجهي تعبير خاص، لابد أنه يثير في نفس كل من ينظر إلى فكرة مهيبة قاسية: يبدو أن هذا الرجل سيموت قريبا .

وما زلت،كما في السابق، ألقى المحاضرات بصورةلا بأس بها وكما في السابق أستطيع أن أشد انتباه السامعين على مدى ساعتين فحراستى، ولغة عرضي الأدبية، وروح الفكاهة تجعل عيوب صوتى غير ملحوظة تقريبا، فصوتى جاف، حاد، أخن منفر كصوت المنافق وأنا أكتب بصورة سيئة

فذلك الجزء من محياى الذي يشرف على الملكة الكتابية قد توقف عن العمل وضعفت ذاكرتى،نتيجة صدمة نفسية أو مرض في الجهاز العصبي.

وتفتقر أفكاري إلى المنهجية اللازمة، وعندما أصوغها على الورق يبدو لي دائماًأنني فقدت الإحساس بترابطها العضوي،وتأتي التراكيب رتيبة، والعبارة شحيحة مترددة وكثيرا ما أكتب غير ما أريد، وعندما أكتب النهاية لا أعود أذكر البداية وكثيراً ما أنسى الكلمات العادية، ودائما أضطر إلى بذل جهد كبير كى أتجنب في الكتابة العبارات الزائدة والجمل التمهيدية التي لا ضرورة لها، فهذه وتلك تدلان بوضوح على انحطاط النشاط العقلى ومن الملفت للانتباه أنه كلما كانت الكتابة أبسط ازداد توترى إرهاقاً وعندما أكتب مقالة علمية أشعر أنني أكثر حرية وذكاء بكثير مما عندما أسطر رسالة تهنئة أو مذكرة تقريرية وهناك أمر آخر: فمن الأسهل بالنسبة لي أن أكتب بالألمانية أو الإنجليزية من أن أكتب بالروسية .

أما بخصوص نمط حياتي الحالى فينبغي أن أشير قبل كل شيء إلى الأرق، الذي أعاني منه في الآونة الأخيرة ولو سئلت: ما الذي يشكل الآن القسمةالرئيسية والأساسية لوجودك؟ لأجبت: الأرق فكها في السابق، وحسب العادة أخلع ملابسي في منتصف الليل تماما وآوي إلى الفراش وأنعس بسرعة ولكني أستيقظ والساعة تدور في الثانية بإحساس كأني لم أنم أبداً

وأضطر إلى النهوض من الفراش وإشعال المصباح وأمضى أذرع الغرفة من ركن لركن ساعة أو ساعتين وأتفحص اللوحات والصور المعروفة لى منذ زمن بعيد وعندما أمل من المشي أجلس إلى مكتبي أجلس بلا حراك، دون أن أفكر في شيء أو أشعر بأية رغبات وإذا كان هناك كتاب أمامي،أقربه منى آليا وأقرأ دون أدنى اهتمام وهكذا قرأت اليا منذ فترة قريبة، في ليلة واحدة، رواية كاملة بعنوان غريب :عمغنت السنونوة أو أذهب، لكي أشغل نفسي، أعد حتى ألف،أو أتصور وجه زميل من زملائي وأمضى أتذكر: في أية سنة، وفي أية ظروف التحق بالوظيفة؟ وأحب الإصغاء إلى الأصوات فتارة تهذى ابنتى ليزا بشىء ما في الحلم بسرعة على بعد غرفتين منى وتارة تعبر زوجتي الصالة حاملة شمعة، ولابد أن تسقط منها علبة الكبريت، وتارة يصر صوان جف خشبه، أو تطن فجأة ترمسة المصباح ولست أدري لماذا تهيجني هذه الأصوات .

ألا تنام ليلاً يعني أن تدرك كل لحظة أنك لست طبيعياً، ولذلك أنتظر بفارغ الصبر مجيء الصباح والنهار حيث يكون من حقى ألا أنام ويمر وقت مرهق طويل قبل أن يصبح الديك في الفناء وهذا أول بشير لي فما إن يصيح حتى أعرف أنه بعد ساعة سيستيقظ البواب في الطابق الأسفل، ولغرض ما سيصعد الدرج وهو يسعل بغضب وبعد ذلك يبدأ الهواء خلف النوافذ في الشحوب شيئاً فشيئاً، وتتردد الأصوات في الشارع.

ويبدأ نهاري بمجيء زوجتى تدخل غرفتي مرتدية تنورة، غير مصففة، ولكنها مغتسلة، وتفوح منها رائحة كولونيا الزهور، ويبدو على هيئتها كأنها دخلت عرضاً، وفي كل مرة تقول نفس الشيء :عفوا، سأبقي دقيقة واحدة مرةأخرى لم تنم؟ وتطفئ المصباح، وتجلس بجوار المكتب، وتشرع في الكلام وأنا لست نبياً ولكني أعرف مسبقاً عم سيدور الحديث كل صباح نفس الشيء فعادة، وبعد الأسئلة القلقة عن صحتى، تتذكر فجأة ابننا الضابط الذي يخدم في وارسو فبعد اليوم العشرين من كل شهر نرسل له خمسين روبلاً، وهذا في الأساس ما يشكل موضوع حديثنا .

تقول زوجنى متنهدة:طبعاً هذا مرهق لنا، ولكن واجبنا أن نساعده طالما لم يقف بعد على قدميه تماماً فالولد في بلد غريب، والراتب قليل وعموما فإذا شئت، يمكننا أن نرسل له في الشهر القادم أربعين روبلاً بدلاً من خمسين.

ما رأيك؟كان من الممكن أن تستخلص زوجتي من الخبرة اليومية أن النفقات لا تصبح أقل بسبب كثرة الكلام عنها، ولكن زوجتى لا تعترف بالخبرة، وتتحدث كل صباح بانتظام عن ابننا الضابط، وعن أن الخبز، والحمد لله، أصبح أرخص،أما السكر فارتفع سعره كوبيكين تقول كل ذلك بنبرة كأنها تفضي إلى بخبر جديد .

وأصغى إليها وأومئ آليا، وربما لأنني لم أنم الليل تنتابني أفكار غريبة لاداعي لها أنظر إلى زوجتي وأدهش كالطفل وأسأل نفسي في حيرة: أصحيح أن هذه المرأة العجوز، البدينة جدا، الخرقاء الهيئة، التي يلوح على وجهها تعبير الهموم الصغيرة والخوف على لقمة الخبز

والنظرة الغائمة من التفكير الدائم في الديون والحاجة هذه المرأة التي لا تجيد الكلام إلا عن النفقات والابتسام فقط لرخص الأسعار، أصحيح أنها كانت في وقت ما هي فاريا الدقيقة القوام، تلك التي أحببتها بهيام لعقلها الصافي الطيب، وروحها الطاهرة وجمالها، وكما أحب عطيل ديدمونة، لشفقتها على علمى؟ أصحيح أن هذه المرأة هي نفسها زوجتى فاريا، التي أنجبت لي في وقت ما ابنا؟.

وأتفحص بتوتر وجه العجوز الخرقاء المترهلة، وأبحث فيها عن فاريا ولكن لم يبق من الماضي فيها سوى الخوف على صحتى وعادة أن تسمى راتبى راتبنا، وقبعتي قبعتنا وأتألم وأنا أنظر إليها، ولكي أعزيها ولو قليلاً، أسمح لها بأن تقول أي شيء، بل حتى أصمت عندما تظلم أحداً في أحكامها أو تبكتنى لأنني لا أمارس العلاج ولا أؤلف كتبا مدرسية .

وينتهي حديثنا دائماً بنفس الصورة فجأة تذكر زوجتى أنني لم أتناول الشاي بعد، فتفزع وتقول ناهضة : مالي أجلس هكذا؟ الساور على الطاولة من زمان وأن أثرثر هنا يا إلهي،كم أصبحت بلا ذاكرة !وتمضي بسرعة، ثم تتوقف عند الباب لتقول :إننا مدينون ليجور براتب خمسة أشهر هل تعرف؟ كم مرة قلت لك، لا يصح أن نتأخر في سداد رواتب الخدم! الأسهل كثيراً أن نعطي كل شهر عشرة روبلات من أن نعطى خمسين روبلا لخمسة أشهر !.

وبعد أن تخرج من الغرفة تتوقف عند الباب مرة أخرى وتقول :

ـ لا أرثي لأحد مثلما أرثي لابنتنا ليزا المسكينة البنت تدرس في الكونسرفتوار، وتتحرك دائما في وسط راق،ولكن أية ملابس ترتديها، الله أعلم شيء مخجل الظهور في الشارع بمعطف كمعطفها لو كانت ابنة أحد آخر، ولكن الجميع يعرفون أن أباها أستاذ مشهور، مستشار سرى !.

وبعد أن تعيرني باسمي ورتبتى تنصرف أخيراً هكذا يبدأ نهاري. ويستمر بصورة ليست أفضل .

عندما أجلس لتناول الشاي تأتي إلى ابنتى ليزا في المعطف والقبعة، حاملة نوت الموسيقى، ومستعدة تماماً للذهاب إلى الكونسرفتوار إنها في الثانية والعشرين وتبدو أصغر من ذلك،جميلة، تشبه قليلاً زوجتي في شبابها . تقبلني في صدغي وتلثم بدى قائلة :

-مرحبا يا بابى، هل أنت بخير؟. كانت في طفولتها تعشق الآيس كريم، فكنت آخذها كثيرا إلى محلات الحلوى .

وكان الآيس كريم بالنسبة لها معيارا لكل ما هو رائع فإذا أرادت أن تمتدحنى قالت: أنت يا بابا مثل الكريمة وكان أحد أصابعها يسمى كريمة والثاني فستق، والثالث فراولة حسب أنواع الآيس كريم وفي العادة، عندما كانت تأتي في الصباح لتسلم على، كنت أجلسها على ركبتي وأقبل أصابعها مردداً :الفستق الكريمة الليمون

والآن أيضاً، كما في أيام زمان، ألثم أصابع ليزا وأدمدم: الفستق... الكريمة ..

الليمون.. ولكن ذلك يصدر عنى بصورة أخرى تماماً إنى بارد كالآيس كريم، وأشعر بالخجل وعندما تأتي ابنتي وتمس صدغى بشفتيها أنتفض كما لو أن نحلة لسعتني في صدغى، وأبتسم بتوتر، وأدير وجهى فمنذ أن أصبت بالأرق وهناك مسألة تنتصب في ذهنى كالمسمار: إن ابنتي كثيراً ما تراني، أنا الرجل العجوز، الشهير، أتعذب خجلاً من أنني مدين للخادم؛ وهي كثيراً ماترى أن هموم الديون الصغيرة تضطرني إلى أن أترك عملي وأذرع الغرفة ساعات طويلة وأفكر، فلماذا لم تأت مرة واحدة، خفية عن أمها لتهمس: يا أبي،خذ هذه ساعتي، وأساورى، وأقراطي، وفساتينى أرهن هذا كله فأنت بحاجةإلى نقود؟ ولماذا، وهي ترى أني وأمها، وقد استسلمنا لإحساس كاذب، نحاول أن نخفي فقرنا عن الناس،لماذا لا تتخلى عن هذه المتعة المكلفة: دراسة الموسيقى؟ وما كنت لأقبل منها لا الساعة، ولا الأساور، ولا التضحيات، حاشا لله، فليس هذا ما أحتاجه .

وبهذه المناسبة أتذكر ابنى، الضابط العامل في وارسو إنه إنسان ذكى و شريف وراجح التفكير ولكن ذلك قليل عندى إنني أفكر: لو كان لدى أب عجوز أو لو كنت أعرف أنه يواجه لحظات خجل من فقره، لأعطيت مكانى كضابط لأي شخص آخر والتحقت بعمل ما أجيراً ومثل هذه الأفكار عن أبنائى تسمم حياتى فما جدواها؟

فالإنسان الضيق الأفق أو الحاقد هو وحده الذي يكنمشاعر الكراهية للأناس العاديين لأنهم ليسوا أبطالاً ولكن دعونا من هذا .

في العاشرة إلا ربعاً ينبغي أن أذهب إلى أبنائي الأعزاء لأقرأ المحاضرة. أرتدي ملابسي وأسير في الطريق الذي أعرفه منذ ثلاثين عاماً والذي له عندى تاريخه الخاص هاهو ذا البيت الرمادي الكبير وبه الصيدلية في وقت ما كان هنا بيت صغير به حانة بيرة وفي هذه الحانة كنت أفكر في رسالة الدكتوراه، وكتبت أول رسالة حب إلى فاريا كتبتها بالقلم الرصاص، على ورقة مطبوع أعلاها :ها هو ذا دكان البقال في وقت ما كان صاحبه يهودياً صغيرا يبيعنى السجائر بالدين، ثم حلت محله امرأة بدينة كانت تحب الطلبة.

لأن كلا منهم لديه أم والآن يجلس تاجر أحمر الشعر، رجل غير مبال تماماً، يشرب الشاى من إبريق نحاسي، وها هي ذي بوابة الجامعة القائمة، التي لم ترمم منذ زمن بعيد، والبواب السأمان في معطف فروى ضخم، والمكنسة، وأكوام الثلج إن مثل هذه البوابة لا يمكن أن تترك انطباعاً طيباً في نفس الصبي الطازج، القادم من الأقاليم، والمتصور أن محراب العلم هو حقاً محراب وعموماً فقدم المباني الجامعية، وظلام طرقاتها، والسناج على جدرانها، وضعف الإضاءة، ومنظر الدرجات والمشاجب والأرائك الكئيب تحتل في تاريخ التشاؤم الروسي مكانة كبيرة.

تاريخ المرض

إحدى المراتب الأولى بين الأسباب المساعدة عليه وها هي ذي حديقتنا ومنذ أن كنت طالبا لم تصبح، على ما يبدو، أفضل أو أسوأ أنا لا أحبها فقد كان من الأصوب كثيرا لو نمت هنا، بدلا من أشجار الزيزفون المسلولة والأكاسيا الصفراء والبنفسج المقصوص المتناثر، أشجار الصنوبر الفارعة والبلوط القوى إن الطالب، الذي يتأثر مزاجه في معظم الأحوال بالوضع المحيط به، ينبغي ألا يرى أمامه حيث يدرس، وفي كل خطوة، إلا الأشياء السامية، القوية، الرشيقة وليحفظه الله من شر الأشجار الهزيلة، والنوافذ المكسورة، والجدران الرمادية، والأبواب المبطنة بمشمع ممزق .

وعندما اقترب من مدخلنا يفتح الباب على مصراعيه، ويستقبلني زميلى القديم في العمل وتربى وسمير الحاجب نيقولاي وبعد أن يدخلني يزحر ويقول - :صقيع يا صاحب المعالي ! فإذا كان معطفى مبتلا يقول - :مطر يا صاحب المعالي ثم يركض أمامي ويفتح جميع الأبواب في طريقي .

وفي غرفة المكتب ينزع عني بحرص معطف الفراء، وأثناء ذلك يتمكن من الإفضاء إلى بخبر من أخبار الجامعة فبفضل المعرفة الوثيقة القائمة بين جميع حجاب الجامعة وحراسها، يعرف نيقولاى كل ما يحدث في الكليات الأربع وفي الإدارة وفي مكتب مدير الجامعة وفي المكتبة وما أكثر ما يعرف فمثلا عندما تصبح مسألة إحالة مدير الجامعة أو العميد إلى المعاش قضية الساعة

أسمع نيقولاي، وهو يتحدث مع الحراس الشبان، يذكر أسماء المرشحين، ويوضح على الفور أن فلان الفلانى لن يعتمد الوزير ترشيحه، أما فلان الفلاني فسيعتذر هو نفسه، ثم يتطرق إلى تفاصيل خرافية عن أوراق غامضة وردت إلى الإدارة، وعن حديث سرى، جرى، كما يدعى، بين الوزير وأحد الوكلاء... إلخ وإذا استبعدناهذه التفاصيل فإن تقديراته بشكل عام تكون دائما سليمة والتشخيصات التي يضعها لهذا المرشح أو ذاك ذات طابع خاص، ولكنها أيضا صادقة ولو أردت أن تعرف من ناقش رسالة الدكتوراه وفي أي عام، ومن التحق بالوظيفة، ومن أحيل إلى المعاش أو توفي، فلتستعن بذاكرة هذا الجندي الهائلة، وعندئذ لن يذكر لك السنة والشهر واليوم فحسب، بل والتفاصيل المحيطة بهذا الظرف أو ذاك إن من يحب هو وحده الذي يستطيع أن يذكر بمثل هذه القوة .

وهو حافظ الأساطير الجامعية فقد ورث عن أسلافه الحجاب كثيراً من أساطير الحياة الجامعية، وأضاف إلى هذه الثروة من عنده الكثير مما حصل عليه أثناء الخدمة، وإذا شئت فسوف يروي لك العديد من الحكايات الطويلة والقصيرة وبوسعه أن يحكي عن الحكماء الأفذاذ الذين كانوا يعرفون كل شيء، وعن الكادحين الرائعين، الذين لم يناموا أسابيع، وعن شهداء العلم وضحاياه العديدين والخير عنده ينتصر على الشر، والضعيف يتغلب دائماً على القوى، والحكيم على الأحمق، والمتواضع على المتكبر،والشاب على العجوز ولا حاجة للتسليم بصحة كل هذه الأساطير والخرافات

ولكن لو رشحتها فسيترسب لديك في المرشح الشيء المطلوب: تقاليدنا الطيبة وأسماء الأبطال الحقيقيين المعترف بهم من الجميع .

وفي مجتمعنا تنحصر كل المعلومات عن دنيا العلماء في بعض النكات عن شرود ذهن الأساتذة العجائز غير العادي، وفي مزحتين حادتين أو ثلاث، تنسب إما إلى جروبر وإما إلى، وإما إلى بابو خين وهذا قليل بالنسبة للمجتمع المثقف ولو كان هذا المجتمع يحب العلم والعلماء والطلبة كما يحبهم نيقولاي، لكان لدي أدبه منذ زمن بعيد ملاحم وروايات وسير كاملة ليست لديه الآن للأسف .

بعد أن يفضي إلى نيقولاي بالخبر، يرتسم على وجهه تعبير صارم ومن ثم يبدأ بيننا حديث العمل ولو سمع شخص غريب في تلك اللحظة كيف يتعامل نيقولاي بطلاقة مع المصطلحات فلربما ظنه عالماً متنكراً في هيئة جندي وبالمناسبة فالشائعات عن معارف الحراس الجامعيين مبالغ فيها إلى حد كبير صحيح أن نيقولاي يحفظ أكثر من مائة تسمية لاتينية، ويعرف كيف يركب الهيكل العظمى، وأحياناً يعد أحد المستحضرات، ويضحك الطلبة بالاستشهاد بمقطع علمى ، ولكن نظرية الدورة الدموية البسيطة مثلاً ما زالت بالنسبة له حتى الآن مجهولاً كما كانت منذ عشرين عاماً.

وفي غرفة المكتب يجلس إلى الطاولة مساعدي في التشريح بيوتر أجناتيفتش منحنياً بشدة فوق كتاب أو مستحضر وهو رجل دؤوب، متواضع، ولكنه غير موهوب، في حوالي الخامسة والثلاثين

وقد أصبح أصلع وبكرش كبيرة وهو يعمل من الصباح إلى المساء، ويقرأ كمية هائلة من الكتب، ويذكر جيداً كل ما قرأه، ومن هذه الناحية فهو كنز وليس رجلاً أما فيما عدا ذلك فهو حصان جر، أو كما يقال بتعبير آخر، بليد عالم إن الملامح الأساسية التي تميز حصان الجر عن الموهبة الحقيقية هي أن أفقه ضيق ومحدود جداً بحدود التخصص؛وهو خارج تخصصه ساذج كطفل وأذكر أنني دخلت مرة ذات صباح غرفة المكتب وقلت تصوروا، يا للمصيبة ! يقال إن سكوبليف توفي .

فرسم نيقولاي علامة الصليب، أما بيوتر أجناتيفتش فقد التفت نحوى وسأل :

-من هو سكوبليف هذا؟وفي مرة أخرى وكان ذلك قبلها بقليل - أعلنت أن الأستاذ بيروف توفي،فسألني بيوتر أجناتيفتش العزيز: ميخائيل سكوبليف (١٨٩٣ - ١٨٨٢) جنرال روسى أصبح ذائع الصيت بعد الحرب الروسية - التركية١٨٧٧ - ١٨٧٨فاسيلى بيروف (١٨٣٣ - ١٨٨٢) رسام روسي شهير، كان أستاذا بمدرسة التصوير والنحت والعمارة بموسكو.

-وفيم كان يحاضر؟

ويبدو لو أن باتى غنت فوق أذنه تماماً، ولو هجمت جحافل الصينيين على روسيا ولو وقع زلزال، فلن يتحرك فيه عضو، وسوف يواصل النظر في مجهره بهدوء وبعين مزرورة وباختصار فلا يهمه من أمر الكون شيء إنني مستعد أن أدفع غالياً كى أرى كيف يضاجع هذا البارد زوجته .

ولديه سمة أخرى: الإيمان الأعمى بعصمة العلم وبالدرجة الأولى كل ما يكتبه الألمان هو واثق من نفسه، ومن مستحضراته، ويعرف غاية الحياة، لكنه لا يعرف أبداً الشكوك وخيبة الأمل التي تشيب منها المواهب ثم التبجيل الذليل للأسماء الشهيرة وانعدام الحاجة إلى التفكير المستقل ومن الصعب أن تقنعه بالعدول عن رأي ما، ومن المستحيل أن تجادله فلتحاول أن تجادل شخصاً يؤمن إيماناً عميقاً بأن أفضل العلوم: الطب، وأفضل الناس :الأطباء وأفضل التقاليد: التقاليد الطبية فمن الماضي الطبي السيئ لم يبق إلا تقليد واحد: رباط العنق الأبيض الذي يحمله الأطباء الآن وبالنسبة للعالم، وللشخص المتعلم عموماً لا يمكن أن تكون هناك تقاليد سوى التقاليد الجامعية العامة، دون تقسيم لها إلى طبية وحقوقية.. إلخ، ولكن من الصعب على بيوتر أجناتيفتش أن يسلم بذلك، وهو مستعد أن يجادلك إلى يوم القيامة .

وأتصور مستقبله بوضوح فخلال حياته كلها سيعد بضع مئات من المستحضرات الفائقة النقاء، وسيكتب الكثير من الدراسات الجافة، المعقولة جدا، وسينجز حوالي عشر ترجمات متقنة، ولكنه لن يخترع البارود فالبارود يحتاج إلى الخيال والابتكار والقدرة على التخمين، أما بيوتر أجناتيفتش فليس لديه شيء من هذا وباختصار فهو في العلم ليس بسيد، بل عامل أجير.

نتحدث أنا وبيوتر أجناتيفتش ونيقولاي بصوت خافت ونشعر بقليل من الانزعاج ويراود النفس إحساس خاص عندما تهدر القاعة خلف الباب باتى أديلينا (١٨٨٣ - ١٩١٩) مطربة إيطالية زارت روسيا عدة مرات حيث أحيت حفلات غنائية.

كالبحر خلال ثلاثين عاماً لم أتعود على هذا الإحساس، وأشعر به كل صباح أزرر سترتي بعصبية، وأوجه إلى نيقولاي أسئلة لا داعي لها، وأغضب وأبدو وكأنني أجبن، ولكن هذا ليس جبناً، بل شيئاً آخر أعجز عن أن أصفه .

وأتطلع إلى الساعة دون أي داع وأقول . :حسنا ينبغي أن نذهب .

ويتحرك ركبنا بهذا الترتيب: في المقدمة يسير نيقولاى حاملاً المستحضرات أو الأطالس، ومن ورائه أنا، ومن ورائي يسير حصان الجر مطأطئاً رأسه بتواضع؛ أو، إذا لزم الأمر، يسير حاملو الجثة في المقدمة، وخلف الجثة نيقولاى، وهكذا ولدي ظهورى يقف الطلبة ثم يجلسون، ويهدأ هدير البحر فجأة ويحل السكون .

وأنا أعرف عم سأحاضر، ولكني لا أعرف كيف سأحاضر وبم سأبدأ وكيف سأنتهى وليس في رأسي جملة واحدة جاهزة لكن ما إن أطوف بنظراتي على القاعة وهي مشيدة على شكل مدرج، ما إن أتفوه بالعبارة التقليدية

فالمحاضرة الماضية تناولنا حتى تطير العبارات من صدرى صفاً طويلاً وتنطلق العجلة! أتحدث بسرعة جارفة، بحماسة، ويبدو أنه لا توجد قوة تستطيع أن توقف مجرى حديثى ولكي تحاضر جيداً، أي دون ملل، وبفائدة للسامعين، ينبغي أن يكون في حوزتك، بخلاف الموهبة، البراعة والخبرة، وأن يكون لديك أوضح تصور عن قواك، وعن أولئك الذين تحاضرهم، وعن مادة حديثك وبالإضافة إلى ذلك ينبغي أن تكون حويطاً وتراقب بيقظة وألا يغيب عنك مجال الرؤية ثانية واحدة .

إن قائد الأوركسترا الجيد، إذ ينقل فكرة الموسيقار، يقوم في وقت واحد بعشرين أمراً: فهو يقرأ أدوار النوتة، ويلوح بعصاه، ويتابع المغني، ويأتي بحركة تارة في اتجاه الطبل، وتارة في اتجاه البوق وغير ذلك ونفس الشيء أفعله أنا عندما أحاضر فأمامى مائة وخمسون وجهاً لا يشبه أحدها الآخر، وثلاثمائة عين تحدق مباشرة في وجهي وهدفي أن أهزم هذا الوحش الخرافي المتعدد الرؤوس وطالما كان لدي في كل دقيقة من محاضرتى تصور واضح عن درجة انتباهه ومدى فهمه، فهو إذن تحت سيطرتى أما غريمى الآخر فيقبع داخلى أنا إنه التنوع اللامحدود للأشكال والظواهر والقوانين والكثير من أفكاري وأفكار الآخرين المرتبطة بها وفي كل لحظة ينبغي أن تكون لدى المهارة لكي أنتشل من هذه المادة الضخمة أهم شيء وألزمه وبنفس السرعة التي يتدفق بها حديثى أصوغ فكرتي في شكل يكون في متناول فهم الوحش ويثير اهتمامه، وأن أراعي بانتباه ألا تنتقل الأفكار حسب تراكمها

بل وفق نظام محدد لا غنى عنه لتركيب صحيح للصورة التي أرغب في رسمها ثم إني أحاول أن تكون لغتى أدبية، والتعريفات موجزة ودقيقة،والعبارة بسيطة وجميلة ما أمكن وكل لحظة ينبغي أن أكبح نفسي وأن أذكر أنه ليس في حوزتى سوى ساعة وأربعين دقيقة وباختصار فهناك عمل كثير وفي وقت واحد يكون عليك أن تجعل من نفسك عالماً ومربياً وخطيباً،والمصيبة لو انتصر الخطيب فيك على المربي والعالم، أو العكس .

أقرأ ربع ساعة، نصف ساعة، وها أنا ذا ألاحظ أن الطلبة بدأوا يتطلعون إلى السقف، وإلى بيوتر أجناتيفتش، ويستخرج أحدهم منديله، ويعتدل الآخر في جلسته، ويبتسم الثالث لأفكاره الخاصة وهذا يعني أن الانتباه قد ضعف ينبغي اتخاذ الإجراءات اللازمة واستغل أول فرصة مناسبة وأطلق مزحة ما وتبتسم الوجوه المائة والخمسون كلها ابتسامات عريضة، وتلمع العيون بمرح، ويتردد هدير البحر لفترة قصيرة وأضحك أنا أيضا لقد تجدد الانتباه، وبوسعى الآن أن أستمر .

إن أي نقاش، وأية تسلية أو ألعاب لم تمنحني أبداً مثل هذه المتعة التي يمنحنى إياها إلقاء المحاضرات ففي المحاضرة فقط أستطيع أن أستسلم كلياً للشغف، وأدرك أن الإلهام ليس بدعة الشعراء بل يوجد فعلاً في الواقع وأعتقد أن هرقل، لم يشعر بعد أكثر مآثره إثارة بمثل هذا الوهن اللذيذ الذي كان ينتابني بعد كل محاضرة .

كان ذلك فيما مضى أما الآن فلا أشعر في المحاضرات إلا بالعذاب فما إن يمر نصف ساعة حتى أبدأ أحس بضعف لا يقهر في ساقى وكتفى؛ فأجلس على الكرسي، بيد أني لم آلف الإلقاء جالساً؛ فأنهض بعد دقيقة، وأواصل الإلقاء واقفاً، ثم أجلس ثانية ويجف حلقي، ويبح صوتى، ويدور رأسي ولكى أخفى عن السامعين حالتى أكثر من شرب الماء، وأسعل، وأتمخط كثيرا كأنما يزعجني الزكام، وألقى مزاح في غير مناسبة، وفي النهاية أعلن الاستراحة مبكراً عما ينبغي ولكني في الأساس أشعر بالخجل . ويقول لى ضميرى وعقلى إن أفضل ما يمكن أن أفعله الآن هو أن أقرأ للأولاد محاضرة الوداع، وأقول لهم كلمتي الأخيرة، وأباركهم، وأترك مكانى لشخص أصغر وأقوى مني ولكنى، وليحاسبني الله، لا أجد في نفسي الشجاعة لكي أتصرف كما يملى ضميرى .

ولسوء الحظ فأنا لست فيلسوفاً ولا عالم لاهوت وأنا أعلم تمام العلم أنني لن أعيش أكثر من نصف عام؛ إذن فقد كان من المفروض الآن أن تشغلني أكثر من أي شيء آخر مسائل مثل ظلال العالم الآخر والرؤى التي ستراودني في نومة القبر ولكن روحي لا تبغي، لست أدري لماذا، أن تعرف هذه المسائل، رغم أن عقلي يدرك مدى أهميتها ومثلها منذ عشرين أو ثلاثين عاماً، لا يشغلني الآن، قبيل الموت، إلا العلم وحده وحتى عندما ألفظ آخر أنفاسى فسوف أظل مؤمناً بأن العلم هو أهم وأروع وألزم شيء في حياة الإنسان، وأنه كان وسيظل دائماً أسمى مظاهر الحب، وبه وحده سينتصر الإنسان على الطبيعة وعلى نفسه

وربما كان هذا الإيمان ساذجاً وغير محق في أساسه، ولكنني لست مذنبا في أنني أؤمن بهذه الصورة وليس بصورة أخرى؛ ولا أستطيع أن أقهر في نفسي هذا الإيمان .

ولكن ليست هذه هي القضية كل ما أرجوه أن تتسامحوا مع ضعفى وتفهموا أن انتزاع شخص تهمه مصائر النخاع الشوكي أكثر مما تهمه الغاية النهائية للكون، أن انتزاع هذا الشخص من كرسيه وتلاميذه يعادل تماماً لو أنكم وضعتموه في تابوت وأغلقتم عليه دون أن تنتظروا حتى يموت .

وبسبب الأرق، ونتيجة الصراع المجهد ضد الضعف المتزايد يحدث لي شيء غريب ففي وقت المحاضرة تمسك الغصة فجأة بحلقي، وتقترب الدموع من مآقي، وأشعر برغبة لاهبة هستيرية في أن أمد ذراعي إلى الأمام وأشكو حالى أود أن أصرخ بصوت عال بأن القدر قد حكم على، أنا الرجل الشهير، بالإعدام، وأنه بعد فترة لا تتجاوز نصف عام سيتصرف في هذه القاعة شخص غيري أريد أن أصرخ بأنني مسموم؛ وأن أفكاراً جديدة،لم أعرفها من قبل قد سممت آخر أيام عمري، وما زالت تلدغ دماغى كالبعوض وفي تلك اللحظة تبدو لي حالتى فظيعة إلى درجة أود معها أن يفزع كل سامعي، ويقفزوا من أماكنهم في هلع مجنون، ويندفعوا إلى الأبواب بصيحات يائسة ما أصعب معايشة هذه اللحظات .

بعد المحاضرة أجلس إلى مكتبي في البيت وأعمل أقرأ المجلات العلمية ورسائل الدكتوراه، أو أعد المحاضرة التالية، وأحياناً أكتب شيئاً ما أعمل على فترات متقطعة لأني أضطر لاستقبال الزوار .

يدق الجرس إنه زميل جاء يتحدث في أمر ما يدخل بقبعته وعصاه، فيمد إلى هذه وتلك قائلاً - :جئتك لدقيقة، لدقيقة واحدة! لا تنهض وقبل كل شيء نحاول أن نظهر أحدنا للآخر أننا مهذبون للغاية وسعداء جداً برؤية بعضنا بعضاً أجلسه في الفوتيل وهو أيضاً يجلسنى؛ وأثناء ذلك يمسح كل منا بحرص على خصر الآخر، ونلمس أزرارنا، ويبدو كأننا نتحسس بعضنا البعض ونخشى أن تكوى أصابعنا ونضحك كلانا، رغم أننا لا نقول مايضحك وبعد أن نجلس نقرب رأسينا نحو بعضنا البعض ونشرع في الحديث بصوت خافت ومهما بلغت درجة المودة التي نكنها بعضنا لبعض فإننا لا نستطيع ألا ننمق حديثنا بشتى عبارات التهذيب الصيني مثل: لقد تفضلتم فأشرتم عن حق أو: كما سبق وتشرفت فأبلغتكم، لا نستطيع ألا نقهقه عندما يمزح أحدنا، وبعد أن يفرغ زميلي من حديثه في الأمر الذي جاء من أجله ينهض دفعة واحدة ويلوح بقبعته نحو كتبى ومجلاتى ويودعني ومرة أخرى نتحسس بعضنا بعضاً ونضحك وأصحبه إلى ردهة المدخل وهنا أساعده على ارتداء معطفه، ولكنه يحاول أن يتنصل من هذا الشرف بكل وسيلة وبعد ذلك، وعندما يفتح يجور الباب، يؤكد لي زميلي أنني سأصاب بالبرد، أما أنا فأتظاهر بأنني مستعد أن أرافقه حتى إلى الخارج وعندما أعود، ، إلى غرفة مكتبي يظل وجهى مستمراً في الابتسام، بقوة القصور الذاتي فيما يبدو

وبعد قليل يدق الجرس ثانية ويدلف أحد ما إلى ردهة المدخل وينزع معطفه فترة طويلة ويسعل ويبلغني يجور أن طالباً جاء فأقول له: أدخله وبعد دقيقة يدخل غرفتي شاب لطيف الهيئة منذ عام وعلاقتنا مشدودة :فهو يجيب على أسئلة الامتحانات بصورة فظيعة، وأنا أضع له درجة واحد وكل عام يتجمع عندي حوالي سبعة من أمثال هؤلاء الشطار الذين ألهبهم وأسقطهم، كما يقول الطلبة والذين يرسبون منهم في الامتحان بسبب ضعف قدراتهم أو بسبب المرض عادة ما يحملون صليبهم في صبر ولا يفاصلونني الذين يفاصلون ويترددون على في البيت هم فقط الدمويو المزاج ذوو الطباع الحية الذين يفسد عليهم تأجيل الامتحان شهيتهم ويعوقهم عن التردد على الأوبرا بانتظام أما الفريق الأول فأتساهل معهم، وأما الفريق الثاني فألهبهم طوال العام .

وأقول للضيف: اجلس ماذا تريد أن تقول؟.

فيبدأ الحديث متلجلجاً ودون أن ينظر في عيني :- معذرة يا أستاذ على الإزعاج ما كنت لأجرؤ على إزعاجكم لولا أنني.

لقد تقدمت لامتحانكم خمس مرات ورسبت أرجوكم،لو سمحتم أعطونى مقبول

والحجة التي يوردها جميع الكسالى للدفاع عن موقفهم هى دائماًنفس الحجة : فقد أدوا امتحانات جميع المواد بصورة رائعة ولم يرسبوا إلا في مادتى، وهذا أدعى إلى الدهشة لأنهم كانوا يدرسون مادتي دائماً باجتهاد، ويعرفونها معرفة رائعة، ولم يرسبوا إلا بسبب التباس غير مفهوم .

وأقول للضيف - :معذرة يا صديقي أنا لا أستطيع أن أعطيك مقبول اذهب وذاكر المحاضرات قليلاً ثم تعال وعندئذ سنرى .

فترة صمت وتراودنى رغبة في تعذيب الطالب قليلاً لأنه يحب البيرة والأوبرا أكثر من العلم، فأقول له :في رأيي أن أفضل ما تستطيع أن تفعله الآن هو أن تترك تماماً كلية الطب فإذا كنت لا تستطيع أن تؤدي الامتحان ولديك هذه القدرات، فمن الواضح إذن أنه ليست لديك لا الرغبة ولا الاستعداد لأن تصبح طبيبا .

فيستطيل وجه ذي المزاج الدموي ويقول مبتسما بمرارة معذرة يا أستاذ، ولكن ذلك يكون من جانبى أمراً غريبا على أقل تقدير .

أدرس خمس سنوات ثم فجأة أترك !.

-ولم لا؟ الأفضل أن تهدر خمس سنوات على أن تظل طوال حياتك تزاول عملاً لا تحبه .

ولكني على الفور أرق لحال الطالب فأسارع إلى القول :

-وعموما كما تشاء حسنا، فلتذاكر قليلاً ثم تعال فيسأل الكسول بصوت أصم: - متى؟ -متى تشاء ولو غدا وأقرأ في عينيه الطيبتين: طبعا من الممكن أن آتى، ولكنك أيها الوغد ستطردني فأقول له :

-بالطبع لن تزداد علما لمجرد أنك ستقدم إلى الامتحان خمس عشرة مرة أخرى،ولكن ذلك سيربى فيك الصلابة حسنا، لا بأس حتى بهذا .

ويحل الصمت أنهض وأنتظر انصراف الضيف، أما هو فيقف ويتطلع إلى النافذة، ويحك لحيته الصغيرة ويفكر وأشعر بالضجر .

صوت ذي المزاج الدموى لطيف،ريان، وعيناه ذكيتان ساخرتان، ووجهه بشوش، ذابل قليلاً من كثرة شرب البيرة والاستلقاء الطويل على الكنبة يبدو أنه يستطيع أن يروى على الكثير من القصص الطريفة عن الأوبرا، وعن مغامراته العاطفية، وعن رفاقه الذين يحبهم، ولكن العرف لم يجر بذلك للأسف أما أنا فعلى استعداد لأن أسمعه عن طيب خاطر .

-يا أستاذ، أعدكم بشرفي أنني لو أعطيتمونى مقبول فسوف.

ما إن تصل الأمور إلى أعدكم بشرفى حتى أشيح بيدى وأجلس إلى المكتب .

ويفكر الطالب دقيقة أخرى ثم يقول باكتئاب :

-إذن وداعاً ومعذرة– وداعاً يا صديقى تصحبك السلامة ويمضي نحو المدخل بتردد، وهناك يرتدي معطفه ببطء، وعندما يخرج إلىالشارع لابد أنه يفكر ثانية فترة طويلة، ودون أن يتفتق ذهنه عن شيء، اللهم إلا: يا للشيطان العجوز، موجهة إلى، يمضى إلى مطعم سيئ ليشرب البيرة ويتغدى، ثم إلى منزله لينام عليك الرحمة أيها الكادح الشريف

ويدق الجرس لثالث مرة ويدخل طبيب شاب في حلة سوداء جديدة، ونظارة مذهبة،وبالطبع في رباط عنق أبيض ويقدم نفسه وأدعوه إلى الجلوس وأسأله عما يريد ويبدأ كاهن العلم الشاب يحدثني بشيء من الانفعال عن أنه في هذا العام نجح في امتحان الدكتوراه ولم يبق إلا أن يكتب الرسالة وهو يود أن يعمل تحت إشرافي، وسيكون مديناً لى بالكثير لو أعطيته موضوعا للرسالة .

فأقول له :

-يسعدني جدا يا زميل أن أكون ذا فائدة لك، ولكن دعنا نتفق أولا على مامعنى الرسالة من المتعارف عليه أن المفهوم من هذه الكلمة أنها مؤلف يمثل نتاجاً للإبداع المستقل أليس كذلك؟ أما المؤلف المكتوب حول موضوع يقدمه آخرون، وتحت إشراف آخرين، فله اسم آخر .

ويلوذ الطبيب بالصمت، فأنفجر، وأقفز من مكاني وأصرخ بغضب :

-ما لكم تأتون إلى جميعاً، لا أفهم ! هل أنا صاحب دكان أم ماذا؟ أنا لا أتاجر بالمواضيع للمرة الواحدة بعد الألف أرجوكم جميعاً أن تدعونى وشأنى! أرجو المعذرة على هذه الخشونة، ولكنني سئمت كل هذا !.

يلوذ الطبيب بالصمت، فقد تحمر وجنتاه ويعبر وجهه عن الاحترام العميق الاسمي الشهير ومكانتي العلمية، ولكني أرى في عينيه أنه يحتقر صوتى وهيئتى البائسة، وحركاتي العصبية

وأبدو له في غضبي هذا غريب الأطوار .

وأقول بغضب :

-لست صاحب دكان، شيء عجيب، لماذا لا تريد أن تكون مستقلاً؟ لماذا تنفر من الحرية إلى هذا الحد؟ .

وأقول غير ذلك الكثير، ولكنه يلوذ بالصمت وفي النهاية تهدأ ثائرتى شيئاًفشيئاً، وبالطبع أستسلم سيحصل الطبيب مني على الموضوع الذي لا يساوى خردة،وسيكتب تحت إشرافي رسالة لا حاجة إليها، وسينجح بجدارة في المناقشة المملة، وسيحصل على الدرجة العلمية التي ليس بحاجة إليها .

ويمكن أن تتوالى الأجراس تباعاً بلا نهاية ولكني سأكتفي هنا بأربعة منها ها هو ذا الجرس الرابع يدق، وأسمع وقع الخطوات المألوفة، وحفيف الفستان، والصوت الرقيق..

منذ اثنتي عشر عاماً مات رفيقي أخصائي العيون وترك ابنة في السابعة تدعى كاتيا، وحوالى ستين ألف روبل وفي وصيته اختارني وصياً على ابنته، وعاشت كاتيا معنا في البيت حتى العاشرة من عمرها، ثم أرسلناها إلى المعهد، وأصبحت لا تقيم عندي إلا في شهور الصيف أثناء العطلات ولم يكن لدى الوقت لأهتم بتربيتها، ولم أتابعها إلا لماماً، ولذلك لا أستطيع أن أذكر عنطفولتها إلا القليل جدا

وأول ما أذكره وأحبه من الذكريات عنها الثقة والبراءة غير العادية التي دخلت بها بيتى، وتعالجت بها عند الأطباء، والتي كانت تتهلل دائماً على وجهها الصغير كان يحدث أحياناً أن تكون جالسة في ركن، معصوبة الخد، ولابد أن تنظر إلى شيء ما باهتمام وسواء كانت تراني في هذا الوقت وأنا أكتب وأقلب صفحات الكتب، أم ترى زوجتي وهي تسعى في شئون البيت، أم الطاهية وهي تقشر البطاطس في المطبخ، أم الكلب وهو يلعب، فإن عينيها كانتا تنطقان دائما بشيء واحد، ألا وهو:إن كل ما يجري في هذه الدنيا لرائع وحكيم كانت محبة للاستطلاع وتهوى الحديث معي وكان يحدث أن تجلس قبالتي إلى المكتب تتابع حركاتى وتوجه إلى الأسئلة وكان يهمها أن تعرف ما الذي أقرأه، وماذا أفعل في الجامعة، وهل أخاف الجثث، وماذا أصنع براتبى<

وتسألني :

-هل يتشاجر الطلبة في الجامعة؟ .

- نعم يا عزيزتي، يتشاجرون.

وهل تجعلهم يركعون على ركبهم؟ .

- نعم أجعلهم .

كان من المضحك بالنسبة لها أن الطلبة يتشاجرون، وأنني أجعلهم يركعون على ركبهم، فتضحك كانت طفلة وديعة صبورة، وطيبة

وأحياناً كان يحدث أن أراها وقد انتزع منها شيء ما، أو عوقبت ظلماً، أو لم يشبع حب استطلاعها؛ وعندئذ يمتزج تعبير الثقة والبراءة الدائم على وجهها بالحزن، ولا شيء أكثر ولم أعرف كيف أناصرها، وفقط عندما كنت أرى حزنها كانت تراودني الرغبة في أن أضمها إلى وأواسيها بنبرة مربية عجوز: يا يتيمتي الحبيبة . !

وأذكر أيضاً أنها كانت تحب الثياب الجميلة والتطيب بالعطور ومن هذهالناحية كانت تشبهني فأنا أيضاًأحب الثياب الجميلة والعطور الجيدة .

ويؤسفني أنه لم يكن لدى لا الوقت ولا الرغبة في متابعة بداية وتطور ذلك الشغف الذي استولى على كاتيا تماماً عندما بلغت الرابعة عشرة أو الخامسة عشر وأقصدحبها الجارف للمسرحفعندما كانت تأتي إلينا من المعهد في العطلة وتعيش عندنا، لم تكن تتحدث عن شيء بمثل هذه المتعة وهذه الحرارة كما كانت تتحدث عن المسرحيات والممثلين وقد أرهقتنا بحديثها الدائم عن المسرحولم تكن زوجتي والأولاد يصغون إليها أنا الوحيد الذي لم تواتني الشجاعة لكي أرفض إيلاءها انتباهى وعندما كانت تشعر بالرغبة في الإفصاح عن إعجابها كانت تدخل غرفة مكتبي وتقول بصوت ضارع :

-نيقولاي ستيبانو فتش، اسمح لي أن أتحدث معك عن المسرح! فأشير لها إلى الساعة قائلا - :

سأمنحك نصف ساعة. هيا تكلمي

فيما بعد كانت تأتي معها بعشرات من صور الممثلين والممثلات الذين كانت تعبدهم ثم حاولت عدة مرات أن تشارك في الحفلات التمثيلية للهواة، وفي نهاية المطاف، عندما أنهت دورة المعهد، أعلنت إلى أنها ولدت لكي تصبح ممثلة .

لمأشاطر كاتيا أبداً ولعها بالمسرح ففي اعتقادي أنه إذا كانت المسرحية جيدة فلا حاجة لإرهاق الممثلين لكي تترك الانطباع اللازم، ويمكن الاكتفاء بقراءتها فقط أما إذا كانت المسرحية سيئة فلن يستطيع أي أداء أن يجعلها جيدة .

كنت أتردد كثيراً على المسرح في شبابي، والآن كذلك تحجز أسرتي مقصورةمرتين في السنة وتأخذنى كيأتهوى بالطبع هذا لا يكفي لإعطائى الحق في الحكم على المسرح، ولكني سأتحدث عنه قليلا في رأيي أن المسرح لم يصبح أفضل مما كان عليه منذ ثلاثين أو أربعين عاما. فكما في السابق، لا أستطيع أبدا أن أحصل لا في طرقات المسرح ولا في ردهاته على كوب ماء. وكما في السابق يغرمني الحجاب عشرين كوبيكا «ضريبة» نزع المعطف، بالرغم من أنه ليس هناك ما يعيب في ارتداء الملابس الثقيلة شتاء. وكما في السابق تعزف الموسيقى في فترات الاستراحة بلا أي داع، فتضيف إلى الانطباع الذي تتركه المسرحية انطباعا جديدا غير مطلوب. وكما في السابق يذهب الرجال أثناء فترات الاستراحة إلى البوفيه لتناول المشروبات الروحية.

فإذا لم يكن التقدم ظاهرا في الجزئيات الصغيرة فمن العبث أن أبحث عنه في الأشياء الكبيرة. فعندما يحاول الممثل، المكبل من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بالتقاليد المسرحية والأحكام المسبقة، أن يلقى المنولوج البسيط العادي «أنكون أم لا نكون» لا ببساطة، بل ولست أدري لماذا، بفحيح وتشنجات في جسده كله، أو عندما يحاول أن يقنعني مهما كلف الأمر أن تشانسكى، الذي يتحدث كثيرا مع الحمقى ويحب فتاة حمقاء، هو شخص ذكى جدا، وأن «ذو العقل يشقى)«١ (ليست مسرحية مملة، فإنه تهب (١) تشانسكى هو بطل مسرحية «وذو العقل يشقى» الشعرية للأديب الروسي ألكسندر

جريويدوف (١٧٩٠ - ١٨٢٩)، وهي كوميديا هجائية حادة تهاجم الحياة الإقطاعية

ومجتمع النبلاء، وكان الشاعرمقربا من أوساط النبلاء الأحرار (الديسمبريين) ونفي سفيرا في إيران حيث قتل هناك. (المعرب .(

على من خشبة المسرح نفس رائحة الروتين التي كانت تثير في المل منذ أربعين عاما مضت، عندما كانوا يضيفوننى عواء كلاسيكيا ودقا على الصدر. وبعد كل زيارة للمسرح أخرج أكثر محافظة عما كنت عليه عند دخولى .

والجموع العاطفية،الميالة إلى التصديق، يمكن إقناعها بأن المسرح، في صورته الحالية، هو مدرسة. ولكن الذي يعرف ما في المدرسة بمعناها الحقيقي،لا يمكن اصطياده بهذا الطعم ولست أدري ما الذي سيكون بعد خمسين أو مائة سنة.

ولكن المسرح، في ظل الظروف الراهنة، لا يمكن أن يكون إلا تسلية. بيد أن هذه التسلية جد مكلفة لكي يواصل المرء تمتعه بها. إنها تحرم الدولة من آلاف الرجال والنساء الأصحاء الموهوبين، الذين لو لم يكرسوا أنفسهم للمسرح لكان من الممكن أن يصبحوا أطباء أو زراعة أو مدرسات أو ضباطاً جيدين وهي تنتزع من الجمهور ساعات المساء، أفضل وقت للعمل الذهني والتبادل الأحاديث الودية هذا فضلاًعن النفقات المالية والخسائر الأخلاقية التي يتكبدها المشاهد، عندمايرى على المسرح جريمة قتل، أو زنى أو افتراء،معللة تعليلاً خاطئاً.

أما كاتيا فكان لها رأي آخر تماما، كانت تؤكد لى أن المسرح، حتى في صورته الراهنة، أسمى من قاعات الدراسة، والكتب، أسمى من أي شيء في الوجود المسرح هو القوة التي تجتمع فيها وحدها جميع الفنون، أما الممثلون فمبشرون وليس بوسع أي فن أو أي علم أن يؤثر بمفرده في روح الإنسان بتلك القوة والإيجابية التي تؤثر بها خشبة المسرح، ولهذا فليس من الصدفة أن يحظى الممثل المتوسط القدرات في البلاد بشعبية أكثر من أعظم عالم أو مصور. وليس بمقدور أي نشاط اجتماعي أن يوفر مثل تلك المتعة والارتياح اللذين يوفرهما النشاط المسرحي .

وذات يوم انضمت كاتيا إلى إحدى الفرق المسرحية، ورحلت إلى مدينة أوفا على ما أعتقد، حاملة معها الكثير من النقود، وما لا يحصى من الأحلام الوردية، والأراء حول القضية المسرحية

وكانت رسائلها الأولى المرسلة من الطريق مدهشة. قرأتها مذهولا، إذ كيفيمكن أن تتضمن هذه الوريقات الصغيرة كل هذا الصبا والطهارة والسذاجة البريئة،وفي الوقت نفسه هذه الأحكام الحصيفة المرهفة التي يمكن أن يتشرف بها أي عقل رجالى جيدلم تصف بل مجدت الفولجا،والطبيعة،والمدن التي زارتها،وزملاءها ونجاحاتها وإخفاقاتها،وكان كل سطر ينبض بتلك البراءة الطفولية التي اعتدت أن أراها على وجهها وبالرغم من هذا، كمية من الأخطاء النحوية، أما علامات التنقيط فلم يكن لها وجود تقريبا .

ولم يمر نصف سنة حتى تلقيت منها رسالة تطفح إعجابا وشاعرية إلى أقصى حد، تبدأ بكلمتين: لقد أحببت وكانت مع الرسالة صورة لرجل شاب، بوجه حليق، وقبعة عريضة الحواف، وحرام يمر عبر كتفه أما الرسائل التالية فكانت رائعة كما في السابق، ولكن ظهرت فيها علامات التنقيط، واختفت الأخطاء النحوية، وفاحت منها بقوة رائحة رجل. وأصبحت كاتيا تكتب لي عن أنه حبذا لو أقيم في مكان ما في منطقة الفولجا مسرح كبير، وعلى أسس المساهمة ليس إلا، مع جذب التجار الأغنياء وأصحاب السفن إلى هذا المشروع إذن لأمكن جمع مبلغ كبير، ولكانت الحصيلة ضخمة، ولعمل الممثلون بنظام المحاصةوربها كان هذا كله بالفعل شيئا جيدا، إلا أنه يخيل إلى أن مثل هذه الأفكار لا تنبع إلا من رأس رجل .

ومهما كان هناك فقد مر عام ونصف أو عامان والأمور فيما يبدو تسير على ما يرام، فقد كانت كاتيا تحب، وتؤمن بقضيتها، وكانت سعيدة. ولكني أخذت ألاحظ في الرسائل التالية دلائل واضحة على الانهيار. بدأ ذلك بشكوى كاتيا الى من رفاقها.. وهذا أول وأشأم الأعراض. فإذا ما بدأ العالم الشاب أو الأديب نشاطه بالشكوى المرة من العلماء أو الأدباء، فهذا يعني أن التعب أصابه وأنه غير صالح للعمل. كتبت كاتيا تقول إن زملاءها يتغيبون عن التدريبات ولا يحفظون الأدوار أبدا. وفي إخراج المسرحيات السخيفة وفي طريقة السلوك على خشبة المسرح يتجلى تماما لدى كل منهم عدم الاحترام التام للجمهور. ومن أجل الحصيلة التي لا يتحدثون إلا عنها، تمتهن الممثلات الدراميات كرامتهن إلى حد

أداء الأغاني المرحة، أما الممثلون التراجيديون فيغنون المنولوجات التي يسخرون فيها من الأزواج المغفلين ومن جيل الزوجات الخائنات... إلخ. وعموما فليس أمام المرء إلا أن يدهش: كيف لم يصب المسرح الريفي بالانهيار حتى الآن، وكيف يمكن أن يتعلق بهذا الخيط الواهى .

ورددت على كاتيا برسالة طويلة، والحق أنها كانت مملة جدا. وكتبت لها فيها كتبت: «كثيرا ما تحدثت مع ممثلين عجائز، من أنبل الناس، وهبونى ودهم. واستطعت أن أستخلص من كلامهم أن ما يوجه نشاطهم ليس عقلهم وحريتهم الذاتية بقدر ما هي الموضة ومزاج المجتمع. واضطر أحسنهم إلى التمثيل في التراجيديات وفي الأوبريتات، وفي المهازل الفرنسية والعروض

وكان يخيل إليهم دائها وبنفس الدرجة أنهم يسيرون في الطريق القويم ويعودون على الناس بالفائدة وهكذا ترين أن سبب الداء لا ينبغي البحث عنه في الممثلين. بل فيها هو أعمق،أي في الفن نفسه وفي نظرة المجتمع إليه».
ولكن رسالتي هذه لم تفعل إلا أن أثارت كاتيا. فردت على: «كل منا يغني في واد. أنا لم أكتب لك عن الناس النبلاء الذين وهبوك و دهم، بل عن عصابة من الأفاقين الذين ليس لهم أية علاقة بالنبل. إنهم قطيع من المتوحشين الذين لم يرقوا خشبة المسرح إلا لأنهم ما كانوا ليقبلوا في أي مكان آخر، والذين يعتبرون أنفسهم ممثلين فقط لأنهم وقحون ليس من بينهم موهبة واحدة، بل هناك الكثير من عاطلي المواهب والسكارى والدساسين والنامين لا أستطيع أن أعبر لك عن مدى ما أحس بهمن مرارة لأن الفن، الذي أحبه كل هذا الحب، قد وقع في قبضة أناس أمقتهم أشعر بالمرارة لأن أفضل الناس لا يرون الشر إلا من بعيد ولا يريدون الاقتراب أكثر، وبدلا من أن يتدخلوا يكتبون بعبارة ركيكة كلاما عاما و مواعظ لا حاجةلأحد بها وهلم جرا وعلى هذا المنوال .ثم مر بعض الوقت وتسلمت الرسالة التالية: خدعت بلا رحمة لا أستطيع أن أعيش بعد الآن تصرففيمالي كما ترى إنني أحبك كأبي وكصديقى الوحيد سامحني . .

واتضح أن صاحبها ينتمى أيضاً إلى قطيع المتوحشين وفيما بعد استطعت أن أخمن من بعض التلميحات أنها حاولت أن تنتحر يبدو أن كاتيا تناولت السم ومن المرجح أن حالتها بعد ذلك كانت خطيرة، لأني تلقيت الرسالة التالية من يالطاإلى حيث أرسلها الأطباء في أغلب الظن

وفي آخر رسالة بعثت بها إلىطلبت أن أرسل إليها في يالطا ألف روبل بأسرع ما يمكن وقالت في ختام الرسالة: أعذرني على هذه الرسالة الكئيبة فبالأمس دفنت طفل وبعد أن أمضت في القرم قرابة عام،عادت إلى البيت .

لقد استمر تجوالها حوالى أربعة أعوام، وطوال هذه الأعوام الأربعة، وينبغي أن أعترف، كان موقفي من كاتيا موقفا غريبا لا أحسد عليهفعندما صرحت الى سابقاً بأنها ستعمل ممثلة، ثم كتبت لي فيها بعد عن حبها، وعندما كانت روح التبذير تتملكها بين الحين والحين فأضطر من وقت لآخر ،حسب طلبها، أن أرسل إليها تارة ألف روبل وتارة ألفين،وعندما كتبت لي عن عزمها على الموت، ثم عن موت طفلها، كنت في كل مرة أحتار، وكانت كل مشاركتي في مصيرها تتجلى فقط في أنني كنت أفكر كثيراً وأكتب لها رسائل طويلة، مملة، كان من الممكن ألا أكتبها على الإطلاق هذا بينما كنت بالنسبة لها بمثابة والدها وكنت أحبها كابنتى.

والآن تعيش كاتيا على بعد نصف كيلو متر منى استأجرت شقة من خمس غرف وأثثتها بصورة مريحة إلى حد كبير وبذوقها المعهود ولو حاول أحد أن يرسم صورة لجو شقتها لكان الكسل هو المزاج السائد في الصورة فللجسد الكسول هناك الأرائك اللينة، والمقاعد اللينة، وللأرجل الكسولة هناك السجاجيد، وللعيون الكسولة هناك الألوان الباهتة الكابية أو المطفأة، وللروح الكسولة على الجدران وفرة من المراوح الرخيصة والصور الصغيرة التي تطغى فيها الصنعة المبتكرة على المحتوى

وحشد من الطاولات الصغيرة والأرفف المحملة بأشياء لاضرورة لها البتة ولا قيمة لها، وخرق لا شكل لها بدلاً من الستائر وكل ذلك، بالإضافة إلى الخوف من الألوان الزاهية ومن التناظر والرحابة، يدل بخلاف الكسل الروحى على تشوه الذوق الطبيعي وتستلقى كاتيا أياماً بكاملها على الأريكة وتقرأ الكتب ومعظمها من القصص والروايات ولا تخرج من البيت إلا مرة واحدة في اليوم، بعد منتصف النهار، لكى تزورنى .

أنا أعمل، وكاتيا جالسة على الكنبة غير بعيد عني صامتة تتدثر بالشال كأنها مقرورة ولا يعوقنى حضورها عن التركيز، ربما لأنها محببة إلى نفسي أوروبا.

لأنني تعودت على زياراتها الكثيرة وهي بعد صغيرة وأحياناً أوجه إليها سؤالا بطريقة آلية، فتجيب إجابة موجزة جداً أو، لكي أرتاح قليلاً، ألتفت نحوها وأنظر إليها وهي مستغرقة في التفكير،تقلب صفحات مجلة طبية ما أو جريدة وعندئذ ألاحظ أن وجهها لم يعد يحمل تعبير البراءة السابق أصبح الآن باردًا، لا مباليًا، شارداً مثل وجوه الركاب الذين يضطرون إلى انتظار القطار طويلاً وكما في السابق ترتدي ثياباً جميلة وبسيطة، لكن بإهمال، ويبدو واضحا أن فستانها وتسريحة شعرها يعانيان الكثير من الوسائد والمقاعد الهزازة التي تستلقي عليها أياما بكاملها ولم يعد فيها حب الاستطلاع السابق، ولا توجه إلى أسئلة، كأنهاجربت كل شيء في الحياة ولا تنتظر سماع أي جديد

وفي نهاية الساعة الرابعة تدب الحركة في الصالون وغرفة الجلوس إنها ليزاقد عادت من الكونسرفاتوار وجاءت معها بصديقاتها وأسمعهن يعزفن على البيانو ويجربن أصواتهن، ويقهقهن ويعد يجور المائدة في غرفة الطعام فيترددرنين الآنية .

وتقول كاتيا :

-وداعاً لن أزور اليوم أسرتك فليسامحوني ليس لدي وقت تعالعندي .

وعندما أودع كاتيا حتى المدخل تتفحصني من رأسي إلى قدمى بصرامةوتقول بأسى :

-كم هزلت! لماذا لا تتعالج؟ سأذهب إلى سرجى فيودوروفتش وأدعوه .

فليكشف عليك .

-لا داعى يا كاتيا -لا أفهم ماذا تنتظر أسرتك !حقاً ما أحلاهموترتدي معطفها دفعة واحدة وفي تلك اللحظة لا بد أن يسقط على الأرض من شعرها المصفف بإهمال مشبكان أو ثلاثة ويمنعها الكسل وضيق الوقت من تسوية تسريحتها، فتدس خصلاتها تحت قبعتها كيفما كان وتنصرف .

وعندما أدخل غرفة المائدة تسألني زوجتى - :كاتيا التي كانت عندك الآن؟ لماذا لم تأت إلينا؟ ما أغرب هذا.

فتقول لها ليزا مؤنبة :

-ماما! إذا لم تكن تريد فلا داعيهل نتوسل إليها راكعين !.

-كما تشائين، ولكن هذا احتقار تجلس ثلاث ساعات في غرفة مكتبه ولاتتذكرنا عموماً، كما يحلو لها .

فاريا وليزا تكرهان كاتيا وهذه الكراهية غير مفهومة وربما ينبغي أن تكون امرأة لكي تفهمها إنني مستعد أن أراهن برأسي على أنه من بين المائة والخمسين شاباً الذين أراهم كل يوم تقريباً في قاعتي، ومن المائة كهل الذين أقابلهم كل أسبوع، لا يكاد يوجد شخص واحد يستطيع أن يفهم الكراهية والاشمئزاز من ماضى كاتيا، أي من حملها دون زواج وطفلها غير الشرعي وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أتذكر امرأة واحدة أو فتاة من معارفي لا تكن هذه المشاعر في نفسها سواء عن وعي أم بالغريزة وليس هذا راجعاً إلى أن المرأة أكثر فضيلة وطهراً من الرجل: فالفضيلة والطهر لا يختلفان كثيراً عن الرذيلة إذا لم يكونا منزهين عن المشاعر الشريرة إنما أرجع ذلك فقط إلى تخلف المرأة فالشعور الكئيب بالشفقة ووخز الضمير اللذان يكابدهما الرجل المعاصر عندما يربالمأساة، يشهدان لي بتهذيبه وسموه الأخلاقي، أكثر بكثير مما تشهد به الكراهية والاشمئزاز والمرأة المعاصرة ما زالت فياضة الدموع وفظة القلب كما كانت في العصور الوسطى وفي اعتقادي أن عين الحكمة هو ما يفعله أولئك الذين ينصحون المرأة بأن تتربى كالرجل

وزوجتي لا تحب كاتيا أيضاً لأنها كانت ممثلة،ولجحودها، وتكبرهاوشذوذها، وللعيوب العديدة التي تجيد كل امرأة دائماً اكتشافها في الأخرى .وبالإضافة إلى وإلى أفراد أسرتي يتغدى عندنا صديقتان أو ثلاث من صديقات ابنتي، وألكسندر أدولفوفتش جنيكر، المغرم بليزا والمرشح لطلب يدها وهو شاب أشقر، لا يتجاوز الثلاثين، متوسط القامة، بدين جداً، عريض المنكبين، بسالفين أحمرين قرب أذنيه، وشوارب مخضبة تضفي على وجهه البدين الناعم تعبيراً يجعله أقرب إلى الدمية وهو يرتدي سترة قصيرة جداً، وصديرياً ملوناً، وسروالاً بكاروهات عريضة، واسعاً جداً من أعلى وضيقاً جداً من أسفل، وحذاء أصفر بلا كعب وعيناه جاحظتان كميني سرطان البحر، وربطة عنقه تشبه رقبة السرطان، بل يخيل إلى أنه تفوح من هيئة هذا الشاب كلها رائحة حساء سرطان البحر وهو يتردد علينا يومياً، ولكن لا يعرف أحد من أفراد أسرتي ما هو أصله، ولا أين درس وبأية موارد يعيش وهو لا يعزف ولا يغني، إلا أنه على صلة مابالموسيقى والغناء، ويبيع في مكان ما معازف أشخاص ما، ويتردد كثيراً على الكونسرفتوار، ومتعرف على جميع المشاهير، ويشرف على الحفلات ويتحدث عن الموسيقى بثقة كبيرة.

والأغنياء دائما تجد بقربهم المتعيشين والعلم والفن كذلك ويبدو أنه لا يوجد في الدنيا علم أو فن يخلو من وجود أجسام غريبة مثل جنيكر هذا وأنا لست موسيقيا، وربما أكون مخطئا بخصوص جنيكر الذي فضلا عن ذلك لا أعرفه إلا قليلاً غير أنه تبدو لي مريبة جدا ثقته وذلك الاعتزاز الذي يقف بجوار المعزف ويستمع إلى من يغني أو يعزف

وحتى لو كنت مائة مرة شخصاً مهذباً ومستشاراً سرياً، فإذا كانت لك ابنة،فلن يحميك شيء من ذلك الابتذال الذي كثيراًما تجلبه المغازلة والخطبة والزفاف إلى بيتك وتقحمه على مزاجك فأنا مثلاً لا أستطيع أبداً أن أتقبل ذلك التعبير المهيب الذي يظهر على وجه زوجتي في كل مرة يجلس فيها جنيكر عندنا، ولا أستطيعأيضاً أن أسكت على زجاجات نبيذ الشاتو لافيت والبورت والشيرى التي تقدم فقط من أجله، لكي يرى بعينيه كيف نعيش في بحبوحة ورفاهية وكذلك لا أطيق ضحك ليزا المبتور الذي تعلمته في الكونسرفتوار، وطريقتها فيزر عينيها عندما يكون في بيتنا رجال والشيء المهم أنني لا أستطيع أبداً أن أفهم لماذا يأتي إلى كل يوم ويتغدى معى مخلوق غريب تماما عن عاداتى وعلمى، عن كل طراز حياتى، ومختلف تماماً عن أولئك الناس الذين أحبهم وتهمس زوجتي والخدم بغموض بأنه العريس، ومع ذلك لا أفهم سبب وجوده وهو يثير في الاستغراب مثلها لو أجلسوا واحداً من قبيلة الزولو ليتغدى على مائدتي ويبدو لي غريباً أيضاً أن ابنتي، التي تعودت أن أعتبرها طفلة، تحب رباط العنق هذا، وهاتين العينين، وهذين الخدين الناعمين.

فيما مضى كنت أحب الغداء أو كنت لا أبالي به، أما الآن فهو لا يثير في إلا الملل والنرفزة فمنذ أن أصبحت صاحب المعالي وتوليت عمادة الكلية، اعتبرت أسرتى لسبب ما أنه لابد من تغيير قائمة طعامنا ونظام غدائنا تغييراً تاماً وبدلاً من تلك الأطباق البسيطة التي ألفتها عندما كنت طالباً ثم طبيباً، أصبحوا يطعمونني الآنحساء بوريه تعوم فيه أشياء

كالفتل البيضاء، و كلاوى بنبيذ الماديرا وحرمتنى رتبة الجنرال والشهرة نهائيا من حساء الكرنب، والشطائر اللذيذة، والأوز بالتفاح، وسمك الأبرميس بالعصيدة كما حرمتاني من الخادمة أجاشا، تلك العجوز الثرثارة المضحاكة، التي حل محلها الآن يجور، هذا البليد المتعجرف، بفردةقفازه البيضاء على يده اليمنى وفترات الاستراحة قصيرة، ولكنها تبدو طويلة للغاية لأنه ليس لدينا ما نشغلها به لم يعد هناك المرح السابق والأحاديث التلقائية غير المتكلفة والنكات والضحكات، والملاطفات المتبادلة، ولا تلك الفرحة التيكان بطل الرواية يحمل لقب المستشار السرية الذي كان يعادل في روسيا القيصرية رتبةالجنرال.

كانت تضطرم في نفوس الأطفال وزوجتي ونفسي عندما كنا نجتمع في غرفة الطعام كان الغداء بالنسبة لي، كرجل مشغول، وقتاً للراحة، ولرؤية الأسرة، وكان بالنسبة لزوجتي وللأولاد عيداً، صحيح أنه عيد قصير، ولكنه مشرق وبهيج، إذ يعرفون أننى، ولمدة نصف ساعة، لم أعد ملكاً للعلم أو للطلبة، بل ملكاً لهم وحدهم لا يشاركهم فيه أحد لم تعد هناك تلك القدرة على السكر من كأس واحدة، لم تعد هناك أجاشا، ولا الأبرميس بالعصيدة، ولا ذلك الصخب الذي تقابل به حوادث الغداء الصغيرة مثل الشجار بين القطة والكلب تحت الطاولة أو سقوط الرباط من على خد كاتيا في طبق الحساء .

إن وصف الغداء الآن كتناوله ليس لذيذاً فعلى وجه زوجتي ترتسم ملامح مهابة وعظمة متكلفة وتعبيرهم مألوف وتتفحص أطباقنا بقلق وتقول: أرى أن اللحم المشوى لم يعجبكم لا يعجبكم، أليس كذلك؟ وينبغي أن أقول :لا داعي للقلق يا عزيزتي، اللحم المشوي لذيذ جداً فتقول هي:أنت دائماً تناصرنى يا نيقولاي ستيبانيتش، ولن تقول الحق أبداً فلماذا لم يأكل ألكسندر أدولفوفتش إلا قليلاً جداً؟، وهلم جرا طوال فترة الغداء كلها وليزا تضحك ضحكات مبتورة وتزر عينها وأنظر إليها ويتضح لى تماماً الآن فقط، أثناء الغداء، أن العالم الداخلى لكلتيها قد أفلت من انتباهي منذ زمن بعيد ويراودنى شعور بأنني كنت أحيا في وقت ما في منزلي مع أسرة حقيقية، أما الآن فأتغدى في ضيافة زوجة غير حقيقية، وأرى ليزا غير حقيقية لقد حدث لهما تحول حاد، وغابت عني تلك العملية الطويلة التي جرى خلالها هذا التحول، فليس من الغريب أنني لا أفهم شيئاً ما سبب هذا التحول؟ أنا لا أعرفربما تكمن المصيبة كلها في أن الله لم يهب زوجتى وابنتي تلك القوة التي وهبني إياها فمنذ الطفولة اعتدت أن أجابه المؤثرات الخارجية وتمرست بما فيه الكفاية فكوارث المعيشة، مثل الشهرة ورتبة الجنرال والتحول من حياة اليسر إلى حياة الإنفاق الأكثر من الدخل والتعرف على المشاهير.. إلخ، لم تكد تؤثر في وبقيت سليماً معافي، أما زوجتى وليزا الضعيفتان، غير المتمرستين، فقد انهال ذلك كله عليهما مثل كتلة ثلج هائلة فسحقتهما .

وتتحدث الآنسات وجنيكر عن الفوجات والطباق الموسيقى وعن المطربين وعازفي البيانو، وعن باخ وبرامز، أما زوجتي، فخشية أن يرتاب أحد في جهلها بالموسيقى، تبتسم بتعاطف معهم وتدمدم: هذا رائع حقا؟ يا سلام أما جنيكر فيأكل برصانة، ويمزح برصانة ويصغي بتعال متسامح إلى ملاحظات الآنسات وأحيانا تراوده الرغبة في التحدث بلغة فرنسية ركيكة .

أما أنا فأعبس فيبدو أني أسبب لهم جميعاً الحرج وهم أيضاً يحرجونني لم تكن تراودني من قبل أبداً مشاعر العداء الطبقي، ولكن شيئاً من هذا القبيل هو ما يعذبني الآن وأحاول أن أفتش في جنيكر عن الملامح السيئة فقط، وسرعان ما أجدها فيمزقني الإحساس بأن شخصاً ليس من مقامي يجلس في محل خطيب ابنتي كما يؤثر وجوده في تأثيراً سيئاً من ناحية أخرى ففي العادة عندما أخلو إلى نفسي أو أتواجد في صحبة أناس أحبهم، لا أفكر أبداً في مآثري، وحتى إذا ما بدأت أفكر فيها، فإنها تبدو لي ضئيلة، كأنما لم أصبح عالماً إلا أمس أما في صحبة أناس مثل جنيكر فتبدو لي مائرى جبلاً تختفى قمته ، وعند سفحه يدب أمثال جنيكر ولا تكاد العين تلحظهم .

بعد الغداء أذهب إلى غرفة مكتبي وأشعل هناك غليوني للمرة الوحيدة طوال اليوم، المرة التي بقيت لي من عادتي السابقة القديمة السيئة في التدخين من الصباح إلى الليل وبينما أدخن تدخل زوجتي وتجلس لكى نتحدث إلى وكما في الصباح فإنى أعرف سلفاً عم سيدور الحديث .

وتبدأ تقول :ينبغي أن نتحدث بجدية يا نيقولاى ستبانيتش أقصد بخصوص ليزالماذا لاتوليها اهتمامك ؟ .

-يعنى؟ .

-أنت تتظاهر بأنك لا تلاحظ شيئاً، وهذا عيب لا يصح أن تكون غيرمبال جنيكر عنده نية بخصوص ليزا فاذا تقول؟.

-لا أستطيع أن أقول إنه شخص سيئ لأنني لا أعرفه أما أنه لا يعجبنيفقد قلت لك هذا ألف مرة .

ولكن هذا لا يصح لا يصح و تنهض وتذرع الغرفة بانفعال ثم تقول:لا يصح أن تنظر هكذا إلى خطوة جادة .

عندما يجري الحديث عن سعادة ابنتنا ينبغي أن نطرح جانباً الأشياء الشخصية أنا أعرف أنه لا يعجبك حسنا إذا رفضناه الآن، وأفسدنا الأمر فهل تضمن أن ليزالن تشكو منا طوال العمر؟ ليس العرسان الآن كثيرين، وقد يحدث ألا تسنح لها فرصة أخرى إنه يحب ليزا جداً ويبدو أنه يعجبها بالطبعليس لديه مركز واضح، ولكن ما العمل؟ ربما استطاع بمشيئة الله أن يجد وظيفة ما إنه من عائلة طيبة وغني .

-ومن أين عرفت هذا؟

هو الذي قال لدى والده في خاركوف دار كبيرة وعزبة قرب خاركوف

باختصار يا نيقولاي ستيبانيتش ينبغي عليك حتماًأن تسافر إلى خاركوف .

-لماذا؟.

لتحري الأمر هناك لديك هناك أساتذة معارف، سيساعدونك كان بوديلوسافرت أنا، ولكني امرأة لا أستطيع .

فأقول عيباً :لن أذهب إلى خاركوف .

تفزع زوجتي، ويظهر على وجهها تعبير ألم مضن وتتوسل إلى باكية - : أرجوك يا نيقولاي ستيبانيتش! أرجوك خفف عني هذا الحمل! إنيأتعذبوأشعر بالألم وأنا أتطلع إليها فأقول بلطف حسنا، يا فاريا، إذا شئت فسأسافر إلى خاركوف وسأفعل كل ماالانتريدين .

وتجفف دموعها بالمنديل وتنصرف إلى غرفتها لتبكى وأبقى وحديوبعد فترة يشعلون الضوء ومن الفوتيلات وغطاء المصباح ترتمي على الجدران والأرض الظلال التي مللتها منذ زمن بعيد، وعندما أنظر إليها يخيل إلى أن الليل قد حل وأن أرقى الملعون قد بدأ أتمدد على السرير، ثم أنهض، وأذرع الغرفة، ثم أتمدد مرة أخرى وعادة يبلغ توترى العصبي قمته بعد الغداء وقبيل المساء وبلا سبب آخذ في البكاء، وأخفي رأسي تحت الوسادة وأخشى في هذا الوقت أن يدخل على أحد فجأة، أخشى أن أموت بغتة، وأخجل من دموعي، وعموماً تجيش روحى بصورة لا تطاق

وأشعر أنني لم أعد أطيقرؤية المصباح أو الكتب أو الظلال على الأرض، أو سماع الأصوات المتناهية من غرفة الجلوس وتدفعني قوة مجهولة غريبة بعنف إلى خارج شقتي فأقفز ناهضاً، وأرتدي معطفي على عجل، وأخرج بحذر حتى لا يلاحظ أحد من أهل البيت إلى أين أذهب؟.

الإجابة عن هذا السؤال تقبع في رأسي منذ وقت طويل: إلى كاتياتستلقي كالعادة على كنبة تركية أو على أريكة وتقرأ كتابا ما وعندما ترانيترفع رأسها بكسل و تجلس وتمد لى يدها .

وأنت دائماًمستلقية أقول بعد صمت قصير واستراحةهذامضربصحتك هلا وجدت لك عملا!ً

هه؟ أقول هلا وجدت لك عملاًأي عمل؟ المرأة لا يمكن أن تكون سوى عاملة بسيطة أو ممثلةفليكن! إذا لم يكن من الممكن أن تصبحي عاملة فلتعملى ممثلة تصمت فأقول بشيء من المزاح :تزوجى إذنليس هناك من أتزوجه ولا دا عىلا يمكن أن تعيشي هكذابلا زوج؟ يا للتفاهات! الرجال ما أكثرهم، المهم أن تتوفر الرغبة هذا عيب يا كاتياما هو العيب؟هو ما قلته الآنوعندما تلاحظ كاتيا استيائى، ورغبة منها في محو الانطباع السيئ، تقول :هيا بنا تعال هنا انظر وتقودني إلى غرفة صغيرة، مريحة للغاية، وتقول مشيرة إلى مكتب :

-انظر أعددته لك تعمل هنا تعال كل يوم وأحضر معك كتبك وأوراقكفي المنزل يعوقونك عن العمل هل ستعمل هنا؟ هل تريد؟ولكي لا أحزنها برفضى أقول لها إنني سوف أعمل عندها، وأن الغرفةأعجبتني جدا ثم نجلس معاً في الغرفة المريحة ونشرع في الحديث .

الجو الدافي المريح، ووجود شخص لطيف لا يثيران في الآن الإحساس بالرضى كما كان في الماضي، بل رغبة قوية في الشكوى والتذمر ولسبب ما يبدو إلى أني إذا ما تأففت واشتكيت فسوف أشعر بالراحة .

فأبدأ القول متنهداً -الحال سيئة يا عزيزتي! في غاية السوء ماذا حدث؟.

-أتدرين ما هي المسألة يا صديقتي؟ إن أعظم وأسمى حقوق الملوك هو حقالعفو وكنت أنا دائما أتمتع بهذا الحق دون حدود لم أصدر حكماً على أحد أبداً، وكنت متسامحاً، أغفر ذات اليمين وذات الشمال للجميع عن طيب خاطر وعندما كان الآخرون يحتجون ويسخطون كنت أنا فقط أنصح وأقنعوكان كل سعى طوال حياتي أن تكون صحبتى محتملة لأسرتي ولطلبتي ولرفاقى ولخدمي وأنا أعلم أن موقفي هذا من الناس قد ربى كل من جمعتهم الصدف بي ولكن الآن لست ملكاً إن ما يحدث لي ليس جديراً إلا بالعبيد ففي رأسي تدور ليل نهار أفكار شريرة أما في روحي فقد عششت مشاعر لم أكن أعرفها من قبل فأنا أكره، وأحتقر، وأسخط وأغضب وأخاف أصبحت مسرفاًفي الصرامة والتشدد و العصبية والجفاء والريبة

وحتى ما كان قبلا يدفعني إلى أن أقول قفشة أو أضحك ببشاشة، أصبح يثير في الآن شعورًا حضاً وتغير في أيضاً منطق تفكيرى: من قبل كنت أحتقر النقود فقط، أما الآن فأكن مشاعر البغض لا للنقود، بل للأغنياء، كأنما الذنب ذنبهم ومن قبل كنت أمقت القهر والاستبداد أما الآن فأمقت الأشخاص الذين يزاولون القهر، وكأنها هم المذنبون وحدهم ولسنا نحن جميعاً الذين لا نعرف كيف نربي بعضنا بعضاً فما معنى هذا؟ إذا كانت الأفكار والمشاعر الجديدة ناتجة عن تغير المعتقدات، فمن أين جاء هذاالتغير؟ هل أصبح العالم أسوأ وأنا أفضل، أم أنني كنت سابقاً أعمى وغير مبال؟ وإذا كان هذا التحول قد حدث نتيجة تدهور عام للقوى البدنية والذهنية فأنا مريض، وكل يوم ينقص وزنى فحالتي إذن تعيسة فمعنى ذلك أن أفكارى الجديدة غير طبيعية، مريضة، وينبغي على أن أخجل منها وأعتبرها تافهةفتقاطعني كاتبا قائلة :

-ليس للمرض دخل هنا؛ كل ما هنالك أنك ببساطة فتحت عينيك لقد رأيت ما لم تكن تريد أن تلاحظه سابقاً لسبب ما في رأيي أنه ينبغي عليك قبل كل شيء، أن تقطع صلتك بأسرتك وتهجرها.

دعيك من هذا الهراء .

-ولكنك لا تحبهم، فلم المراءاة؟ وهل هذه أسرة؟ مخلوقات تافهة! لو ماتوااليوم فلن يلحظ غيابهم أحد غداً .

كاتيا تحتقر زوجتي وابنتي بنفس الدرجة التي تكرهانها بها ومن الصعب أن نتحدث في زماننا هذا عن حق الناس في احتقار بعضهم البعضولكن إذا ما تبنينا وجهة نظر كاتيا واعتبرنا هذا الحق قائماً،فسنرى أن لها فعلاً الحق في احتقار زوجتي وليزا، كما لهاتين نفس الحق في كراهيتها .

وتردد كاتيا :

-مخلوقات تافهة! هل تغديت اليوم؟ كيف لم ينسوا دعوتك إلى الطعام؟وكيف لا يزالون يذكرون حتى الآن أنك موجود؟فأقول بصرامةكاتيا، أرجوك أن تسكتى .

-وهل تظن أنه يسرنى الكلام عنها؟ ما كان أسعدني لو كنت لا أعرفها على الإطلاق فلتسمع كلامى يا عزيزى: اترك كل شيء وارحل سافر إلى الخارج وكلما أسرعت بذلك كان أفضل .

-ما هذا الكلام الفارغ والجامعة؟.

والجامعة أيضاً اتركها ما جدواها؟ أنت تحاضر منذ ثلاثين سنة فأين هم تلامذتك؟ وهل لديك منهم علماء مشهورون كثيرون؟ هيا عدهم! أما تفريخ هؤلاء الدكاترة الذين يستغلون الجهل ويربحون مئات الآلاف، فلا يحتاج إلى أن تكون شخصاً موهوبًا وطيباً أنت زائد عن الحاجة .

فأقول مرتاعاً.

-يا إلهي كم أنت حادة! كم أنت حادة! اسكتي وإلا ذهبت! أنا لا أستطيعأن أرد على حدتك !.

وتدخل الخادم لتدعونا لتناول الشاي وبجوار الساور يتبدل مجرى الحديث والحمد لله وبعد أن نفست عن شكواى تراودني الرغبة في إطلاق العنان لهوى آخر من أهواء الشيخوخة: للذكريات فأحكي لكاتيا عن ماضي، ولدهشتيالشديدة، أروى لها تفاصيل لم أكن حتى أظن أنها باقية في ذاكرتي وتصغي هي إلى بتأثر، وباعتزاز وبأنفاس مبهورة وأحب بصفة خاصة أن أحكي لها عن فترة دراستي في المدرسة الدينية وكيف كنت أحلم بالالتحاق بالجامعةوأحكي لها :

كنت أحيانا أتجول في حديقة مدرستنا الدينية وتحمل الريح من حانة بعيدة صرير أكورديون وأغنية،أو تمرق بجوار سور المدرسة عربة ترويكا بأجراس، فيكفي هذا تماماً لكي يغمر القلب فجأة إحساس بالسعادة، وليس القلب فقط، بل والبطن والساقين واليدين وأسمع الأكورديون أو رنين الأجراس المتلاشي فأتصور نفسي طبيباً وأرسم الصور كل صورة أبهي من سابقتها وها هي ذي أحلامى كما ترين،تحققت وحصلت على أكثر مما كنت أحلم به كنت طوال ثلاثين عاماً أستاذاً محبوباً، وكان لى رفاق ممتازون، وحظيت بشهرةمحترمة أحببت، وتزوجت عن حب جارف، وأنجبت أولاداً

وباختصار، إذا ما نظرت إلى الماضي، تبدو لي حياتي كلها تشكيلاً جميلاًصيغ بموهبة لم يبق لياالآن سوى ألا أفسد النهاية ومن أجل ذلك ينبغي أن أموت ميتة إنسانية فإذا كان الموت خطراً بالفعل، فينبغي إذن أن أواجهه كا يليق بمعلم وعالم ومواطن دولة مسيحية :بروح عالية ونفس مطمئنة لكني أفسد النهاية إنني أغرق وأهرع إليك، طالباً العون، فتقولين لي: اغرق، فهذا ما ينبغي أن يكون .

وهنا يدق جرس الباب ونعرف أنا وكاتيا من القادم فنقول :لابد أنه ميخائيل فيودوروفتش .

وبالفعل يدخل بعد دقيقة زميلي أستاذ الآداب ميخائيل فيودوروفتش، وهو رجل طويل، متناسق البنية، في حوالي الخمسين، بشعر أبيض كثيف وحاجبين أسودين، ووجه حليق إنه رجل طيب وزميل رائع ويرجع نسبه إلى عائلة نبلاء عريقة، كانت محظوظة جداً وموهوبة، ولعبت دوراً ملحوظاً في تاريخ أدبنا وثقافتنا أما هو فذكى، موهوب، ومثقف جداً، ولكنه لا يخلو من بعض الشذوذنحن جميعاً إلى حد ما شاذون وغريبو الأطوار، ولكن شذوذه شيء خارق ويشكل خطورة على معارفهومن بين هؤلاء أعرف الكثيرين الذين لا يرون، بسبب شذوذه، مزاياه العديدة .

وعندما يدخل إلينا يمضى فترة طويلة في نزع قفازه، ويقول بصوت محملى: مرحباً تشربون الشاي؟ هذا مناسب تماماً، فالبرد جهنمى

ثم يجلس إلى المائدة، ويتناول كوباً ويشرع في الكلام على الفور وأهم ما يميز طريقته في الكلام نبرته المازحة دوماً، والتي هي خليط ما من الفلسفة والحذر مثل حديث حفارى القبور عند شكسبير هو دائماً يتحدث عن أشياء جدية، ولكنه لا يتحدث أبدا بجدية وأحكامه دائما حادة، انسبابية، ولكن بفضل نبرته الناعمة الهادئة فإن حدته وسبابه بشكل ما لا يجرحان السمع، وسرعان ما يألفها المرء . وكل مساء يأتي معه بخمس أو ست نكات من حياة الجامعة،وعادة مايبدأ بها عندما يجلس إلى المائدةحفارو القبور في مسرحية شكسبير هملتآه يا إلهى يقول مثلها وهو يلعب حاجبيه الأسودين بسخرية لم أكنأظن أن في الدنيا مثل هؤلاء المهرجين .

فتسأله كاتيا - :ماذا هناك؟

كنت خارجاً اليوم من المحاضرة، فقابلت على الدرج هذا الأبله العجوز، زميلنا فلان الفلاني كان يسير كالعادة ماداً ذقنه الحصاني إلى الأمام ويبحث عمن يمكن أن يشكو له من صداعه وزوجته وطلبته الذين لا يحضرون محاضراته وقلت لنفسي: يا للمصيبة، لقد رآني، إذن هلكت وضاع كل شيء.

وهلم جرا وعلى هذا المنوال وأحياناً يبدأ هكذا :

حضرت بالأمس المحاضرة العامة التي ألقاها زميلنافلان الفلانى .

إنني مندهش كيف أن الأم المرضعة وهي تسمية قديمة بطلقها الخريجون على المدرسة والطف يا رب من كلام الليل، تجرؤ على تقديم هؤلاء الحمقى والبلداء المسجلي الماركة أمثال فلان الفلاني هذا للجمهور إنه غبي أوروبى! عفواً

ولكنك لن تجد له مثيلاً لو بحثت في أوروبا كلها بمصباح في وضح النهار! تصوروا إنه يحاضر وكأنها يمصمص لدائن: صو صوصو يتملكه الارتباك، ولا يميز خطه، وأفكاره كسيحة تتحرك بسرعة الأرشمندريت الراكب دراجة، وأهم شيء أنك لا تستطيع أن تعرف ماذا يريد أن يقول ملل فظيع يتساقط منه الذباب هذا الملل يمكن أن يقارن فقط بذلك الملل الذي يتولانا في صالة الاحتفالات أثناء الحفل السنوي، عند إلقاء الكلمة التقليدية، عليها اللعنةوعلى الفور يتحول حديثه بغتةمنذ حوالي ثلاث سنوات، ونيقولاي ستيبانوفتش يذكر، اضطررت إلىإلقاء هذه الكلمة الجو حار، خانق والسترة الرسمية تضغط تحت الإبطين، عذاب رهيب قرأت نصف ساعة، وساعة، وساعة ونصف، وساعتين ثم قلت لنفسيحسناً، الحمد لله، لم تبق إلا عشر صفحات وكان في نهاية الكلمة أربع صفحات يمكن تخطيها تماماً،فقررت ألا أقرأها وقلت في نفسي: إذن لم يبق إلا ست صفحات فقط ولكن تصوروا، نظرت بطرف عيني فرأيت أمامي في الصف الأول جنرالاً بشريط و كاهناًما، جالسين متجاورين تصلب المسكينان من الملل، وهما يحملقان بشدة حتى لا يناما، ومع ذلك يحاولان أن يرسما على وجهيها الانتباه، ويتظاهران بأن كلمتي مفهومة لهما وتعجبهما فقلت في نفسي :

حسنا، إذا كانت تعجبكما فهاكا كيدا فيكما !وقرأت الصفحات الأربععندما يتكلم لا تبتسم إلا عيناه وحاجباه، مثلما لدى الأشخاص الساخرين عموماً ولا يبدو في عينيه آنذاك كراهية أو غل، بل الكثير من الفكاهة اللاذعة

وذلك المكر الثعلبي الخاص الذي قد تلمسه فقط لدى الأشخاص الدقيقى الملاحظة وإذا ما استطردت في الحديث عن عينيه فسأذكر ميزة أخرى لاحظتها فيها فعندما يتناول من كاتيا الكوب أو يصغي إلى ملاحظة تقولها، أو يشبعها بنظره عندما تخرج لغرض ما من الغرفة لفترة قصيرة، فإنني ألحظ في نظرته شيئاً وديعاً، متوسط،طاهراً .

وتحمل الخادم الساور، وتضع على الطاولة قطعة جبن كبيرة وفواكه وزجاجة من شمبانيا القرم، وهو نوع سيئ من النبيذ أحبته كاتيا عندما أقامت في القرم ويأخذ ميخائيل فيودوروفتش من الرف شدتين من ورق اللعب ويشرع في لعب السوليتير وحسبما يؤكد فإن بعض أنواع السوليتير يتطلب فطنة وانتباهاً كبيرين، ومع ذلك فلا يكف وهو يرص الورق عن تسلية نفسه بالحديث وتتابع كاتيا أوراقه بانتباه وتساعده بحركات وجهها أكثر مما بالكلمات وهي لا تشرب طوال المساء أكثر من كأسي نبيذ، وأشرب أنا ربع كوب،أما بقية الزجاجة فتكون من نصيب ميخائيل فيودوروفتش، الذي يستطيع أن يشرب كثيراً ولا يسكر أبداً .

وأثناء لعب السوليتير نقرر مختلف الأمور، وفي الأساس ما يتعلق منهاالقضايا السامية وأكثر شيء يصيبه كلامنا هو أكثر شيء نحبه، أي العلم .

يقول ميخائيل فيودرورفتش بأناة :

-العلم، ولله الحمد،فات زمانه انتهى أجله نعم وقد بدأت البشرية تشعر بالحاجة إلى أن تستبدل به شيئاً آخر لقد نبت في تربة التحيز أو شب على التحيز، وأصبح يشكل الآن خلاصة التحيز، مثل جداته الباليات: الخيمياء القديمة والميتافيزيقا والفلسفة وبالفعل، ما الذي قدمه للبشر؟ ليس هناك إلا فرق ضئيل، ظاهرى فقط، بين العلماء الأوروبيين والعلماء الصينيين الذين ليس لديهم أية علوم لم يعرف الصينيون العلم، فما الذي خسروه بذلك؟.

فأقول أنا - :والذباب أيضاً لا يعرف العلم، فماذا إذن؟.

-لا داعي للغضب يا نيقولاي ستيبانيتش إنني أتكلم هنا فقط، فيما بيننا أنا أكثر حذراً مما تظن، ولن أقول ذلك علانية، أعوذ بالله ! هناك لدى العامة حكم متحيز، ففي اعتقادهم أن العلم والفن أسمى من الزراعة والتجارة، أسمي من الحرف وطائفتنا تعيش من هذا التحيز ولن أكون أنا، ولا أنت، من يهدمه أعوذ بالله !.

وخلال السوليتير ينال الشباب أيضاً حظه .

-صغرت نفوس جمهورنا حالياً يقول ميخائيل فيودوروفيتش متنهداً أنا لا أعني فقط المثل العليا وخلافه، ولكن لو أنهم على الأقل كانوا قادرين على العمل والتفكير كما يجب بالضبط كما قال الشاعر: أتطلع محزوناً إلى هذا الجيلف توافقه كاتيا

نعم، صغرت نفوسهم جداً أخبرني، هل كان لديك في السنوات الخمسأو العشر الأخيرة طالب واحد بارز؟.

لا أدري كيف الحال عند الأساتذة الآخرين ولكنني لا أذكر أحداً لدىأنا رأيت في حياتي الكثير من الطلبة ومن علمائكم الشبان، وكثيراً من الممثلين فاذا؟ لم يتسن لي أن ألتقي ليس ببطل أو صاحب موهبة فحسب، بل حتى بمجرد شخص طريف كلهم رماديون، بلا مواهب، ومحشوون ادعاء..

في كل مرة تترك في هذه الأحاديث عن صغر النفوس انطباعاً، وكأنها سمعت عفواً حديثاً سيئاً عن ابنتي ويخنقني أن الاتهامات لا أساس لها، وتقوم على أحكام عامة مستهلكة منذ زمن بعيد وعلى عفاريت مرعبة مثل صغر النفوس وغياب المثل العليا، أو الاستشهاد بالماضي الجميل إن أي اتهام، حتى لو قيل في صحبةنسائية، ينبغي أن يكون مصاغاً بشكل محدد ما أمكن، وإلا فلن يكون اتهاماًبل اغتياباً ولغواً لا يليق بأناس فاضلين .

أنا رجل عجوز، أعمل منذ ثلاثين سنة، ولكني لا ألاحظ صغراً في النفوس أو ضياعاً للمثل العليا، ولا أعتبر أن الحال اليوم أسوأ من قبل وحاجبى نيقولاى، الذي تعتبر خبرته في هذا المجال ذات قيمة، يقول إن طلاب اليوم ليسوا أحسن أو أسوأ من السابقين .

ولو سئلت عما لا يعجبني في تلاميذى الحاليين لما أجبت إلابعد روية، وبكلمات قليلة، ولكنها محددة بدرجة كافية إنني أعرف عيوبهم

ولذلك فلا حاجة بي إلى الاستعانة بضباب الأحكام العامة لا يعجبني أنهم يدخنون، ويتناولون المشروبات الكحولية،ويتزوجون متأخراً، لايعجبني أنهم مهملون، وفي حالات كثيرة لا مبالون إلى درجة أنهم يسكتون على وجود زملاء جوعى بينهم ولا يسددون ديونهم لجمعية مساعدة الطلبة، وهم لا يعرفون لغات جديدةويخطئون في التعبير باللغة الروسية وأقرب مثال كان بالأمس، عندما اشتكىإلى أحد زملائي، أستاذ الوقاية، من أنه يضطر إلى مضاعفة وقت المحاضراتلأن معرفتهم بالفيزياء ضعيفة ولا يعرفون إطلاقاً علم الأرصاد الجوية وهميتأثرون عن طيب خاطر بالأدباء الجدد، ليس حتى بأفضلهم ولكنهم لا يبالون أبداً بالكلاسيكيين أمثال شكسبير ومرقص أوريليوس، وأبكتيتس أو باسكال وفي عدم القدرة هذا على التمييز بين الكبير والصغير يتجلى بأوضح صورة نقص خبرة الحياة لديهم وكل القضايا الصعبة ذات الطابع الاجتماعي إلى هذا الحد أو ذاك مثل قضية الهجرة يحلونها بجمع التبرعات وليس عن طريق البحث العلمي والتجربة، رغم أن هذا الطريق في متناول أيديهم كلية ويتفق تماماً ومهامهم وأهدافهم وهم يقبلون عن طيب خاطر على تولي مناصب الأطباء المقيمين والمعاونين وأمناء المعامل والأطباء غير المقيمين، ومستعدون لشغل هذه الوظائف حتى سن الأربعين، على الرغم من أن الاستقلال، والإحساس بالحرية والمبادرة الذاتية لا تقل غني في العلم عنها، مثلاً، في الفن أو التجارة أنا لدى طلاب ودارسون، ولكن ليس لدي معاونون وورثة، لذلك فأنا أحبهموأفرح بهم ولكني لا أفخر بهم إلخ ...إلخ .

إن مثل هذه النواقص، أيا كان مقدارها، لا يمكن أن تولد مزاج التشاؤم أو السخط إلا في نفس إنسان جبان هاب فكلها ذات طابع عارض، مرحل،وترتبط ارتباطاً تاماً بظروف الحياة وتكفي مجرد عشر سنوات لكي تختفي، أو لتخلى مكانها لنواقص جديدة أخرى، لا محيد عنها، ستخيف بدورها الجبناء إن نقائص الطلبة كثيراً ما تثير استيائي، ولكن هذا الاستياء لا يقارن بتلك الفرحة التي أشعر بها طوال ثلاثين عاماً عندما أتحدث مع تلاميذي وأحاضرهم، وأراقب علاقاتهم وأقارنهم بأشخاص من خارج بيئتهم .

يمضي ميخائيل فيودروروفتش في اغتيابه، وكاتيا تصغي إليه، ولا يلاحظانإلى أية هوة سحيقة تشدهما شيئاً فشيئاً مثل هذه التسلية التي تبدو بريئة، هذا الطعن في الأقربين لا يلاحظان أن حديثهما العادي يتحول تدريجياً إلى امتهان وازدراء، وأنهما ينجران إلى استخدام حتى أساليب الافتراء يقول ميخائيل فيودر ووفتش :

-يا لها من نماذج مضحكة قد يصادفها المرء بالأمس ذهبت إلى زميلنا يجور بروفتش فوجدت عنده تلموذا من تلاميذك، أظن من الصف الثالث وجهه يبدو يعنيمن طراز دوبرولوبوف، وعلى جبينه أثر الفكر العميق وتحدثنا قلت له: هكذا إذن أيها الشاب لقد قرأت أن أحد الألمان نسيت اسمهاستخرج من المخ البشرى عقاراً جديداً هو الكالويد إيديوتين فماذا تظنان؟.

لقد صدق، بل رسم على وجهه دلائل الاحترام، كأنما يريد أن يقول: أرأيت من نحن الأطباء! ومنذ فترة قريبة ذهبت إلى المسرح جلست وإذا أمامي، في الصف التالى يجلس اثنان: أحدهما من عندنا، يبدو من طلبة الحقوق، والآخر أشعث الشعر من طلبة الطب وكان طالب الطب ثم كإسكافي لا يولى خشبة المسرح أدنى اهتمام بل يغط في النوم ورأسه يسقط ولكن ما إن يشرع أحد الممثلين في إلقاء منولوج بصوت عال، أو بمجرد أن يرفع صوته، حتى ينتفض صاحبنا الدكتور ويلكز جاره في جنبه ويسأله: ماذا قال؟ شىءنبييل؟ فيرد عليه الذي من عندنا: نبيلفيصرخ الدكتور: برافو! نبيل برافوا لقد جاء هذا المأفون الثمل إلى المسرح لا من أجل الفن بل من أجل النبل حضرته يريد نبلاء.

بينا كاتيا تصغي وتضحك وضحكها غريب: إذ تتعاقب الشهقات والزفرات بسرعة وبإيقاع منتظم، ويبدو كأنها تعزف على الأكورديون، ولكن لا يضحك في وجهها أثناء ذلك سوى خياشيمها أما أنا فأشعر بالخور والقنوط ولا أدري ماذا أقوال وتفلت أعصابى فأنفجر وأقفز من مكانى صائحًا :

-كفي! اسكتا! ما لكما تجلسان هنا كضفدعين وتسممان الجو بأنفاسكما؟كفى !.

ولا أنتظر حتى ينتهيا من اغتيابهما فأستعد للانصراف إلى البيت وبالفعلحان الوقت، فالساعة الحادية عشرة

-أما أنا فسأبقى قليلاً يقول ميخائيل فيودور وفتش - هل تسمحين ياكاترينا فلاديميروفنا؟ فترد كاتيا: أسمحفي هذه الحالة أرجو أن تأمري بتقديم زجاجة أخرى .

ويرافقاننى بالشموع إلى المدخل، وبينما أرتدي معطفي يقول ميخائيلفيودوروفتش :في الأيام الأخيرة هزلت جداً وهرمت يا نيقولاي ستيبانوفتش ماذا بك؟هل أنت مريض؟.

-نعم، مريض قليلاً فتضيف كاتيا عابسة: - ولا يتعالج .

-لماذا لا تتعالج؟ كيف ذلك؟ من يصن نفسه، يا عزيزى، يصنه الله بلغ تحياتي لك وأسفي لعدم زيارتى لهم قريباً، قبيل سفري إلى الخارج، سآتى للتوديع من كل بد! سأسافر في الأسبوع القادم .

أخرج من عند كاتيا منزعجاً، مفزوعاً من الحديث عن مرضى، وغير راض عن نفسي وأسأل نفسي: ألا يجب حقا أن أتعالج لدى أحد زملائى؟ وعلى الفور أتصور زميلى هذا وهو يتجه إلى النافذة في صمت بعد أن يكشف على ويفكر، ثم يلتفت نحوي، ويقول بنبرة لا مبالية، وهو يحرص ألا اقرأ الحقيقة على وجهه: حتى الآن لا أرى شيئا ذا بال ومع ذلك يا زميلى، أنصحك أن تتوقف عن التدريس وستسلبني هذه الكلمات آخر أمل لدوهل هناك من يعيش بلا أمل؟ والآن، وعندما أقوم أنا بتشخيص مرضى وعلاج نفسي بنفسي يراودني الأمل أحياناً بأن يكون جهلى قد خدعني

وبأنى مخطئ بخصوص السكر والزلال اللذين أجدهما في جسمى، وبخصوص القلب، وتلك الانتفاخات التي لاحظتها عندى مرتين في الصباح وعندما أعيد قراءة كتب الطب الباطني باجتهاد الموسوسين وأغير أنواع الأدوية كل يوم يخيل إلى دائماًأنني سأتوصل إلى شيء ما مطمئن ما أتفه هذا كله .

وسواء كانت السماء ملبدة بالغيوم أم يتلألأ القمر والنجوم على صفحتها فإنني، إذ أتطلع إليها في كل مرة وأنا عائد إلى البيت، أفكر في أن الموت قريباً سيدركنى ومن المفروض إذن أن تكون أفكاري في هذه اللحظة عميقة كالسماء وساطعة ومذهلة ولكن لا! إنني أفكر في نفسي، وفي زوجتي، وفي ليزا، وفي جنيكر، وفي الطلبة، وعموماً في الناس أفكر بنية سيئة، بضحالة، بمكر بينى وبين نفسي، وفي هذه الحالة يمكن التعبيرعن وجهة نظري بكلمات ذكرها أراكتشييف الشهير في إحدى رسائله الشخصية: الطيب في الدنيا لا يمكنأن يوجد بدون السيئ، والسيئ دائماً أكثر من الطيبأي إن كل شيء مقيت، ولا معنى للحياة، أما السنوات الاثنتان والستون التي عشتها فينبغي اعتبارها ضائعة وأنتبه إلى نفسي فأحاول أن أقنعها بأن هذه الأفكار عارضة، ومؤقتة، وليست عميقة الجذور، فإذا بي أفكر على الفور :إذا كان الأمر كذلك فلماذا أجد لدى ميلا للذهاب كل مساء إلى هذينالضفدعين؟وأقطع على نفسى عهداً بألا أذهب بعد الآن إلى كاتيا أبداً، رغم علمي بأننيحتماً سأذهب إليها غداً من جديد

وبينما أقرع جرس بيتى، ثم أثناء صعودى الدرج أشعر بأنه ليس لدى أسرة بالفعل، وليس هناك رغبة في استعادتهامن الواضح أن الأفكار الأراكتشييفية الجديدة ليست عارضة ولا مؤقتة بل تتملك كيانى كله وأستلقي في السرير معذب الضمير، مكتئب الفؤاد، كسولاً، لا أكاد أحرك أطرافي، وكأنما ازداد وزني وسرعان ما أنامثم يأتي الأرق .

يحل الصيف، فتتغير الحياة تدخل على ليزا ذات صباح وتقول بلهجة مازحة: هيا يا صاحب المعالي كل شيء جاهز .

ويسحبون معالى إلى الخارج، ويجلسونه في عربة، ويرحلون به ليس لدى ما أفعله أثناء الطريق فأقرأ اللافتات بالعكس، من اليمين إلى الشمال تتحولكلمة تراكتير إلى ريتكارت هذه الكلمة يمكن أن تصلح اسمعائلة لإحدى البارونات: البارونة ريتكارت ثم أمر عبر حقل، بجوار مقبرة لا تترك في نفسي أي أثر بالرغم من أنني سوف أستقر فيها قريباً ثم أعبر غابة ثم حقل مرة أخرى ليس هناك شيء شيق وبعد سفر ساعتين يسحبون معالى إلى الطابق الأرضي في دار ريفية،ويسكنونه في غرفة غير كبيرة، بهيجة جداً، بورق جدران أزرق فاتحفي الليل أكابد الأرق كما في السابق، ولكني في الصباح لا أنهض ولا أسمع حديث زوجتي،بل أرقد في السرير لا أنام ولكني أشعر بحالة نعاس وشبه غيبوبة،عندما تعرف أنك لست نائماً ولكنك ترى أحلاماً وفي منتصف النهار أنهض، وأجلس بحكم العادة إلى المكتب

ولكني لا أعمل بل أسلي نفسي بكتب فرنسية في أغلفة صفراء ترسلها إلى كاتيا من الناحية الوطنية كان من المفروض بالطبع أن أقرأ لمؤلفين روس، إلا أنني، في الحقيقة، لا أجد ميلاً إلى قراءة أعمالهم فالأدب الراهن كله، باستثناء أديبين عجوزين أو ثلاثة، لا يبدو لي أدباً، بل ضرباً من الحرف اليدوية، يوجد فقط لكي يلقى التشجيع دونما إقبال على استخدام منتجاته فأفضل منتجات الحرف اليدوية لا يمكن اعتبارها رائعة ولا يمكن إبداء الإعجاب الصادق بها دون لكن وهذا ما ينطبق على كل الأعمال الأدبية الجديدة التي قرأتها في السنوات العشر أو الخمس عشرة الأخيرة: فليس فيها عمل واحد رائع ولا تستطيع أن تذكرها دون لكنفهي إما ذكية وسامية ولكن غير موهوبة، وإما موهوبة وسامية ولكن غير ذكية، وإما موهوبة وذكية ولكن غير سامية .

ولا أستطيع أن أقول إن الكتب الفرنسية موهوبة وذكية وسامية فهي أيضاًلا تنال رضاى لكنها ليست مملة كالكتب الروسيةولا يندر أن تجد فيها عنصر الإبداع الرئيسي،الذي يفتقده الكتاب الروس، ألا وهو الإحساس بالحرية الذاتيةولا أذكر كتابا روسيا حديثاً واحداً لم يسع مؤلفه، من الصفحاتالأولى، إلى تكبيل نفسه بشتى الاصطلاحات والقيود والصفقات التي يعقدها مع ضميره فأحدهم يخشى أن يتحدث عن الجسد العاري، والآخر قد أوثق يديه وقدميه بالتحليل النفسي، والثالث بحاجة إلى نظرة حانية إلى الإنسان، والرابع يسود صفحات كاملة عن عمد بوصف الطبيعة حتى لا يتهم بالتحيز أحدهم يريد أن يكون حتماً في مؤلفاته برجوازياً صغيراً

والآخر حتماً من النبلاء إلخ، التعمد، والحذر، والدهاء، ولكن ليس هناك حرية وشجاعة أن تكتب عما تريد إذن فليس هناك إبداع .

كل ذلك ينطبق على ما يسمى بالآداب الجميلة .

أما فيما يخص المقالات الروسية الجادة، مثلاً في مجال السوسيولوجيا أو الفنون أو غيرهما، فإنني لا أقرأها فقط لشعورى بالهيبة ففي طفولتي وصباى كنت أشعر لسبب ما بالخوف من السعادة وحجاب المسارح، وظل هذا الخوف يلازمنى حتى الآن ما زلت أخاف منهم إلى هذه اللحظة يقال إن ما يبدو مخيفا هو فقط ما ليس مفهوما وبالفعل فمن الصعب جداً أن تفهم لماذا يبدو السعاة والحجاب بهذه الأهمية والعجرفة وقلة الأدب المهيبة وعندما أقرأ هذه المقالات الجادة أشعر بالضبط بمثل هذا الخوف الغامض فالأهمية الفائقة ولهجة الجنرالات المداعبة، والتعامل بلا كلفة مع المؤلفين الأجانب، والقدرة على اللت والعجن بوقار كل ذلك بالنسبة لى غير مفهوم ومخيف، ولا يشبه ذلك التواضع واللهجة الهادئة المهذبة التي تعودت عليها في قراءاتي لأطبائنا الكتاب والباحثين في العلوم الطبيعية وليس صعباً على أن أقرأ المقالات فحسب، بل والتراجم التي يقوم بها أو يحررها أشخاص روس جادونفاللهجة المتغطرسة المتفضلة للمقدمات، وفيض ملاحظات المترجم التي تعوقني عن التركيز، وعلامات الاستفهام .

ذات مرة استدعيت كخبير إلى إحدى المحاكم الإقليمية وفي فترة الاستراحة لفت أحد زملائي الخبراء انتباهي إلى خشونة معاملة وكيل النيابة للمتهمين الذين كانت بينهم امرأتان مثقفتان وأعتقد أنني لم أبالغ أبداً عندما أجبت زميلي بأن هذه المعاملة ليست أكثر خشونة من معاملة كتاب المقالات الجديدة بعضهم بعضاً وبالفعل فإن هذه المعاملة من الخشونة بحيث لا أستطيع التحدث عنها دون أن أشعر بالانقباض فهم يعاملون بعضهم بعضاً أو أولئك الكتاب الذين ينتقدونهم إما باحترام مبالغ فيه، دون مراعاة لكرامتهم الشخصية، أو بالعكس، يحتقرونهم بأجرأ مما أحتقر أنا في هذه المذكرات والأفكار صهري المقبل جنيكر فالاتهامات بالمسئولية وبسوء النية، بل حتى بمختلف الجرائم الجنائية تشكل الزينة الرئيسية للمقالات الجادة كما يهوى الأطباء الشبان أنيكتبوا في مقالاتهم إن مثل هذه المعاملة لابد حتماً أن تنعكس على أخلاق الجيل الجديد من الكتاب، لذلك فأنا لا أدهش أبداً من أن أبطال الكتب الجديدة لآدابنا الجميلة التي ظهرت في السنوات العشر أو الخمس عشر الأخيرة يشربون الفودكا بكميات كبيرة، أما البطلات فلسن عفيفات بدرجة كافية .

أقرأ الكتب الفرنسية وأتطلع من حين لآخر إلى النافذة المفتوحة وأرى عوارض سور الحديقة المسننة، وشجرتين هزيلتين أو ثلاث، ومن وراء الحديقة أرى الطريق والحقل، ثم شريطاًص عريضاً من غابة صنوبر وكثيراً ما أتأمل بإعجاب كيف يتسلق سور الحديقة صبي وصبية

وكلاهما أشقر الشعر، ممزق الثياب، ويضحكان من صلعتي وأقرأ في عيونهما البراقة اصعد يا أجلح وربما كان هذان الطفلان الشخصين الوحيدين في العالم اللذين لا تهمهما فيشيءشهرتى أو رتبتى .

الآن لا يتردد على الزوار كل يوم ولن أشير هنا إلا إلى زيارات نيقولايالحجة الأخيرة وبيوتر أجناتيفتش يحضر نيقولاي إلى في الأعياد عادة، كأنما لأمر ما، ولكن أساساً لكى پرانييأتى بادى السكر، الأمر الذي لا يحدث له أبداًفيالشتاء .

وأخرج لملاقاته في المدخل وأسأله: ماذا وراءك؟ فيقول واضعاً يده على قلبه وهو ينظر إلى بإعجاب العشاق :

-يا صاحب المعالي! يا صاحب المعالي! فليعاقبني الله ! فلتنزل على صاعقة

حالاً جاودياموس أيجيتور يوفينتوس ! .

ويقبل بنهم كتفى وكمى وأزرارى فأسأله :هل كل شيء على ما يرام عندنا هناك؟يا صاحب المعالى ! الله شاهد على ما أقول .

ولا يكف عن ترديد الأقسام دون داع، وسرعان ما يضجرني فأرسله إلى المطبخ، حيث يقدمون له الغداء أما بيوتر أجناتيفتش فيحضر إلى في الأعياد أيضا، خصيصا لكى پرانى ويتبادل معي الآراء وعادة ما يجلس بجوار مكتبى، متواضعاً، نظيفاً، عاقلاً، لا يجرؤ على وضع ساق على ساق

أو الاعتماد على المكتب ويحكي لي طوال الوقت بصوت خافت هادئ، وبأسلوب ناعم، كتبى، أخباراً متنوعة، طريفة جداً ومثيرة في رأيه، استقاها من الكتب والمجلات وكل هذه الأخبار متشابهة وعلى الطراز التالي: توصل عالم فرنسي إلى اكتشاف، ولكن عالما آخر ألمانيا كشفغشه وأثبت أن هذا الاكتشاف قد توصل إليه أحد الأمريكيين منذ عام ١٨٧٠، أما العالم الثالثوهو أيضاً ألماني فقد فاقسوف نمرح ما دمنا شباباً .

الاثنين متشابهان في المكر فأثبت لها أنها معا قد وقعا ضحية غفلتها، إذ ظنا كريات الهواء تحت المجهر صبغة داكنة وحتى عندما يريد بيوتر أجناتيفتش أن يضحكني فإنه يتحدث طويلاً وبرصانة كأنه يناقش رسالة دكتوراه، مع ذكر مفصل للمصادر التي استعان بها،ويحاول ألا يخطئ في تواريخ أو أرقام أعداد المجلات أو في الأسماء،ولا يقول مثلا: بتى ببساطة بل لابد أن يقول: جان جاك بتيوبيقى أحياناً للغداء، وعندئذ يروي طوال الغداء نفس الحكايات المثيرة التي تجلب الكآبة لكل الجالسين إلى المائدة فإذا تطرقت ليزا و جنيكر إلى الحديث في حضرته عن الفوجات والطباق الموسيقى أو عن برامز وباخ فإنه يرخى طرفه بتواضع ويشعر بالحرج، فهو يخجل من أنهم يتحدثون في حضرة أناس جادين مثلي ومثله، عن مثل هذه السخافات .

وفي حالتي المزاجية الراهنة تكفي خمس دقائق لكي يضجرني إلى درجة يخيل إلى فيها أنني أراه وأسمعه منذ دهر طويل إنني أمقت هذا المسكين أشعر بالمرض من نبرة صوته الخافتة الهادئة ولغته المكتبية

وتصيبنى حكاياته بالتبلد إنه يكن لي أطيب المشاعر، ويتحدث معي فقط لكي يدخل على نفسي المتعة، بينا أجازيه أنا بأن أحدق فيه مباشرة، وكأنما أريد أن أنومه مغناطيسياً، وأقول في نفسي: اذهب، اذهب، اذهب، لكنه لا يستجيب للإيحاء ويظل جالساً، جالساً، جالساً .

وطوال بقائه عندي لا أستطيع أن أتخلص من هذه الفكرة: من الجائز جداً، بعد أن أموت، أن يعينوه في مكانى فتتبدى لي قاعة محاضراتى المسكينة مثل واحة جف نبعها، فأصبح في معاملتي له جافاً، صموتاً، عابساً، كأنما هو، ولست أنا، المذنب في هذه الأفكار وعندما يبدأ في تمجيد العلماء الألمان لا أعود أسخر منه ببشاشة كما في الماضي، بل أدمدم بعبوسألمانك هؤلاء حمير .

ويبدو هذا شبيها بما حدث مع المرحوم الأستاذ نيكيتا كريلوف عندما كان يستحم ذات مرة في ريفيل مع بيروجوف، وأغضبه أن المياه كانت شديدة البرودة فسب قائلاً: يا للألمان الأوغاد ومسلكي مع بيوتر أجناتيفتش سيئ، وعندما ينصرف وأرى من خلال النافذة قبعته الرمادية تلوح وراء الحديقة، عندها فقط أود أن أناديه لأقول له: سامحني يا عزيزى .

والغداء الآن أكثر مللاًمنه في الشتاء، نفس جنيكر، الذي أمقته الآن وأحتقره، يتغدى عندي كل يوم تقريباً في السابق كنت أصبر على وجوده في صمت،أما الآن فأوجه إليه تعليقات لاذعة تجعل زوجتى وليزا تحمران خجلاً وأنساق مع المشاعر الشريرة فأتفوه كثيراً بمجرد حماقات

ولا أدري لماذا أقولها وهكذا فقد حدث ذات مرة أن ظللت مدة طويلة أنظر باحتقار إلى جنيكر، وبلا أي مبرر اندفعت قائلاً :

قد تهبط الصقور مهبطاً أدني من الدجاج ومستحيل أن يحلق الدجاج فوق عالى السحا .لكن المحنق في كل هذا أن جنيكر الدجاجة يظهر أذكى كثيراً من الأستاذ الصقر. ولما كان يعلم أن زوجتي وابنتي تقفان في صفه فإنه يتبع الأسلوب التالى: يرد على تعليقاتي اللاذعة بصمت متسامح كأنما يريد أن يقول: لقد خرف العجوز فما جدوى الحديث معه؟ أو يسخر منى ببشاشة ومن المثير للدهشة أن ترى إلى أي درك يمكن للإنسان أن ينحط !ففي استطاعتي طوال فترة الغداء كلها أن أحلم بأن يفتضح جنيكر كشخص أفاق، وبأن تدرك ليزا وزوجتي خطأهما وعندئذ أغيظهما تراودني هذه الأحلام الحمقاء في الوقت الذي أقف فيه بإحدى قدمي في القبر .

وتقعالآن حوادث سوء تفاهم، لم تكن لدى عنها فكرة من قبل سوى بالسماع ومهما كان خجلى فسأصف هنا واحدة منها وقعت منذ أيام بعدالغداء .

كنت جالسا في غرفتي أدخن الغليون وإذا بزوجتى تدخل كالعادة وتجلس،وتشرع في الحديث قائلة إنه حبذا لو سافرت إلى خاركوف الآن، طالما الجو دافئ ولدي وقت فراغ، لكي أعرف هناك حقيقة جنيكر .

فأوافقهاحسنا، سأسافر وتنهض زوجتى، راضية عنى، وتمضي إلى الباب، ولكنها تعود على الفور.

وتقول : وبالمناسبة لي رجاء آخر أنا أعرف أنك ستغضب، ولكن من واجبي أن أحذرك لا تؤاخذنى يا نيقولاي ستيبانيتش، ولكن جميع معارفنا وجيراننا بدأوا يثرثرون بأنك تتردد كثيراً جداً على كاتيا إنها ذكية، مثقفة، لا شك في هذا، ومن الممتع قضاء الوقت معها، ولكن من الغريب، يعنى، بالنسبة لرجل في سنك وفي مثل مركزك أن يجد متعة في صحبتها وعلاوة على ذلك فسمعتها يعنى فجأة يغيض الدم كله في دماغي، ويتطاير الشرر من عينى، فأقفز واقفاً، وأمسك رأسي بيدى، وأدق بقدمى، وأصيح بصوت غير طبيعيدعونى دعونى دعوني !.

ويبدو أن وجهي فظيع وصوتى غريب إذ إن زوجتى تشحب فجأة، وتصرخ عالياًبصوت يائس، غير طبيعي أيضاً ويندفع إلى الغرفة، على صراخنا، ليزا وجنيكر، ثم يجور.

وأصيح أنادعونى! اخرجوا من هنا! دعونى . !

تتخدر ساقاى فكأنما لا وجود لها، وأشعر بنفسي وأنا أسقط على ذراعى شخصما، ثمأسمع لفترة قصيرة بكاء، وأغيب في إغماءة تستمر ساعتين أو ثلاث .

والآن فلأتحدث عن كاتيا إنها تزورني يومياً قبيل المساء، ولا يمكن ألا يلاحظ ذلك بالطبع جيراننا ومعارفنا تأتي للحظة، وتأخذني معها للتريض فلديها فرسها الخاصة وعجلة جديدة اشترتها هذا الصيف

وعموماً فهى تعيش عن سعة: فقد استأجرت داراً ريفية كالقصر، بحديقة كبيرة، ونقلت إليها كلأثاث شقتها في المدينة، ولديها خادمان وحوذى وكثيرا ما أسألها - :كاتيا، من أين ستنفقين بعد أن تبددى كل نقود أبيك؟.

فتجيب :

-عندهاسنرى .

-هذه النقود يا صاحبتي تستحق منك معاملة أكثر جدية لقد كسبها إنسانطيب من عمل شريف .

سبق أن قلت لي ذلك إنني أعرف .

في البداية تمضي بنا العجلة عبر الحقل، ثم عبر غابة الصنوبر التي تلوح من نافذتي وكما في السابق تبدو لي الطبيعة رائعة، رغم أن الشيطان يهمس في أذنى أن كل هذه الصنوبرات والشوح والطيور والسحب البيضاء في السماء بعد ثلاثة أو أربعة شهور،عندما أموت، لن تلاحظ غيابي ويروق لكاتيا أن تسوق الفرس، ويسرها أن الجو جميل وأنني أجلس بجوارها معنوياتها مرتفعة فلا تتفوه بأشياء حادة .

وتقول لىأنت إنسان طيب جداً يا نيقولاي ستيبانيتش أنت نموذج نادر، ولا يوجد ممثل يستطيع أن يقدمك على المسرح. أنا، أوميخائيل فيودور فتتش مثلاً، يستطيع أن يقدمنا حتى الممثل السيئ، أما أنت فلا أحد أنا أحسدك، أحسدك إلى درجة رهيبة! فماذا أكون أنا؟ ماذا؟.

وتفكر دقيقة ثم تسألني - :نيقولاي ستيبانيتش، هل أنا ظاهرة سلبية؟ نعم؟ فأجيبهانعمهم وما العمل إذن؟.

بم أجيبها؟ من السهل أن تقول :اعملى أو وزعى ممتلكاتك على الفقراءأو اعرفي نفسكولأنه من السهل قول ذلك فلا أعرف بم أجيبها .

إن زملائى، الأطباء الباطنيين، عندما يعلمون الطلبة العلاج، ينصحونهم بأن يتناولوا كل حالة على حدة وينبغي أن تتبع هذه النصيحة لكي تقتنع بأن الوسائل التي تقترحها الكتب الدراسية باعتبارها أفضل الوسائل وأنسبها للحالات العامة، تصبح غير مناسبة تماماً في الحالات المنفردة وينطبق هذا أيضاً على الأمراض المعنوية .

بيد أنه لا بد أن أجيب بشيء ما فأقول :

-إن لديك يا صاحبتى وقت فراغ كثيراً ومن الضروري أن تشغل نفسكبشيء وبالفعل لماذا لا تعودين ثانية إلى التمثيل طالما لديك الدافع؟.

-لا أستطيع .

-إن لهجتك وطريقتك توحيان وكأنما أنت ضحيةهذا لا يعجبني ياصاحبتي أنت المذنبة فلتتذكري لقد بدأت بأن غضبت من الناس والأوضاع، ولكنك لم تفعل شيئاً لكي يصبح هؤلاء وأولئك أفضل أنت لم تقاومى الشر بينما أدركك التعب، فأنت لست ضحية الكفاح بل ضحية عجزك بالطبع كنت آنذاك صبية،قليلة التجربة.

أما الآن فكل شيء يمكن أن يجرى بصورة أخرى حقاً، عودى إلى التمثيل؟ وإذن ستكدين، وسوف تخدمين الفن المقدس .

فتقاطعني كاتيا :

دعك من المكر يا نيقولاي ستيبانيتش هيا نتفق اتفاقاً لا رجعة فيه: فلنتحدث عن الممثلين، والممثلات،والكتاب، ولكن فلندع الفن وشأنه أنت إنسان رائع، نادر، ولكنك لا تفهم الفن بالدرجة التي تجعلك تعتبره بإخلاص شيئاً مفيداً فليس لديك حس فني أو تذوق لقد كنت طوال حياتك مشغولاً ولم يكن لديك وقت لاكتساب هذا الحس وعموماً أنا لا أحب هذه الأحاديث عن الفن! - وتستطرد بعصبية لا أحبها! كلا، أشكركم، فقد ابتذلتموه بما يكفي !.

-من الذي ابتذله؟

أولئك ابتذلوه بالسكر، والجرائد بالمعاملة دون كلفة، والأشخاصالأذكياء بالفلسفة .

لا دخل للفلسفة هنابل لها دخل فإذا ما تفلسف أحد ما فمعنى ذلك أنه لا يفهم .

وحتى لا تصل الأمور إلى العبارات الحادة أسارع بتغيير مجرى الحديث، ثم أصمت بعد ذلك طويلاً وفقط عندما نغادر الغابة ونتجه إلى دار كاتيا أخرج عن صمتى وأعود إلى الحديث السابق فأسألها :

ومع ذلك لم تردي على سؤال: لماذا لا تعودين إلى التمثيل؟ فتهتف، ويتضرج وجهها كله فجأة :

هذه، في النهاية، قسوة منك يا نيقولاي ستيبانيتش! أتريد أن أقول لك الحقيقة علانية؟ تفضل، إذا كان هذا إذا كان هذا يعجبك أنا لست موهوبة لست موهوبة وعندي الكثير من الغرور نعم .

وإذ تدلى بهذا الاعتراف تحول وجهها عني، وتجذب اللجام بقوة لكي تخفي

رعشة يديها .

عندما نقترب من دارها نرى من بعيد ميخائيل فيودوروفتش وهو يتمشىقربالبوابة وينتظرنا بنفاد صبر .

فتقول كاتيا بضيق : مرة أخرى هذا الميخائيل فيودروفيتشأبعده عني أرجوك مللته لقداستهلك ليغرب عني !.

منذ مدة طويلة وميخائيل فيودوروفتش ينوى السفر إلى الخارج، ولكنه كل أسبوع يؤجل سفره وفي الآونة الأخيرة طرأت عليه بعض التحولات: فقد هزل نوعاً ما، وأصبح يثمل من الخمر، الأمر الذي لم يكن يحدث له أبداً من قبل، وبدأ حاجباه الأسودان يشيبان وعندما تتوقف عجلتنا أمام البوابة لا يخفى فرحته ونفاد صبره ويساعد كاتيا ويساعدني على النزول من العجلة في اضطراب، ويتعجل في توجيه الأسئلة، ويضحك، ويفرك راحتيه

أما ذلك التعبير الوديع، الضارع، الطاهر، الذي كنت ألاحظه من قبل في نظرته فقط، فقد أصبح الآن يغمر وجهه كله وهو يفرح وفي الوقت نفسه يخجل من فرحه، يخجل من عادته هذه في التردد على كاتيا كل مساء، ويجد من الضروري أن يبرر مجيئه بحجة ما بادية التهافت مثل:كنت مارا من هنا في أمر ما فقلت لنفسي الأعرج عليك لدقيقة.

نتوجه ثلاثتنا إلى الداخلوفي البداية نشرب الشاي، ثم تظهر على الطاولة شدتا ورق اللعب المعروفتان لى منذ زمن بعيد، وقطعة الجبن الكبيرة، والفواكه وزجاجة شمبانيا القرم ومواضيع أحاديثنا ليست جديدة، بل هي نفسها التي كانت في الشتاء وتنهال الضربات على الجامعة والطلبة والأدب والمسرحويصبح الهواء من الاغتياب أشد كثافة واختناقاً، ولم تعد تسممه أنفاس ضفدعين فقط كما كان في الشتاء، بل ثلاثة ضفادع وبخلاف الضحك المخملى الجهيروالقهقهات التي تشبه الأكورديون، تسمع الخادم التي تقوم على رعايتنا ضحكاًآخر، كريهاً، مرتعشا كضحك الجنرالات في مسرحيات الفودفيل: هي هئ هئ .

ثمة ليال رهيبة، برعد وبرق و مطر ورياح، يطلق عليها الناس: ليالى العصافير .

وقد مرت بي أنا أيضاً ليلة عصافير مثل هذه تماماً.

أستيقظ بعد منتصف الليل، وعلى الفور أقفز من فراشي، ويخيل إلى لسبب ما أنني سأموت الآن بغتة لماذا يخيل إلى؟ ليس في جسمى أية بادرة تشير إلى النهاية القريبة، إلا أن رعباً فظيعاً يعصر قلبي، وكأنما رأيت فجأة حريقاً هائلاً شريراً .

أشعل الضوء بسرعة، وأجرع ماء من الدورق مباشرة،ثم أسرع إلى النافذة المفتوحة الجو في الخارج رائع تفوح رائحة الدريس وشيء ما آخر لطيف جداً وتلوح عوارض سور الحديقة المسننة، والشجيرات الهزيلة الناعسة قرب النافذة، والطريق، وشريط الغابة المظلم وفي السماء قمر هادئ ساطع للغاية، وليس هناك سحابة واحدة والسكون شامل، فلا تهتز ورقة شجرة واحدة ويخيل إلى أن كل شيء ينظر إلى ويصيح مترقباً كيف سأموت .

أشعر برعب رهيب أغلق النافذة وأهرع إلى الفراش أتحسس نبضى ولا أعثر عليه في يدي، فأبحث عنه في صدغي، ثم في ذقني، ومرة أخرى في يدي، وكل هذه الأماكن باردة، لزجة من العرق تتلاحق أنفاسيأسرع فأسرع، ويرتعش جسدي، وكل ما في جوفي يتحرك، وأشعر وكأن خيوط عنكبوت تسقط على وجهي وصلعتى .

ماالعمل؟ هل أنادى أسرتى؟ كلا، لا داعي. لا أفهم ماذا ستفعل زوجتيوليزا عندما تدخلان على .

أخفي رأسي تحت الوسادة، وأغمض عينى، وأنتظر، أنتظر ظهرى تسرى فيه البرودة، وكأنما يغوص إلى الداخل، ويداهمني إحساس وكأن الموت لابد سيأتي من الخلف، خلسة.

كيوى كيوى يتردد زعيق في سكون الليل فجأة، ولا أعرف أين مصدره : أهو في صدري، أم في الخارج؟

-كيويكيويبيا إلهي، كم أنا خائفبودي لو أشرب مزيداً من الماء، ولكني أخشى أن أفتح عيني وأخاف أن أرفع رأسي خوفي لا تفسير له، خوف حيوانى، ولا أستطيعأبداً أن أفهم لماذا أشعر بالخوف: هل لأني أريد أن أعيش، أم لأن في انتظارى ألا جديداً مجهولاً؟ .

في الأعلى، خلف السقف هناك شخص ما لست أدري يتأوه أم يضحكأصيخ السمع بعد قليل يتردد على الدرج وقع خطوات أحد ما يهبط على عجل، ثم يصعد ثانية بعد دقيقة يتردد وقع الخطوات الهابطة مرة أخرى أحد ما يتوقف بجوار بابي وينصت .

فأصيح -من هناك؟ يفتح الباب، فأفتح عينى بشجاعة وأرى زوجتى. وجهها شاحب وعيناهاباكيتان .

تسألني: أنت لست نائماً يا نيقولاي ستيبانيتش؟ماذا تريدين؟أرجوك اصعدإلى ليزا وانظر ماذا بها حدث لها شيء ما .

حسنا بكل سرور أدمدم وأنا في غاية الفرح لأني لم أعد وحدى.

حسناً حالاً حالاً .

أسير خلف زوجتي وأسمع ما تقوله لي ولكني لا أفهم شيئاً بسبب انفعالى على درجات السلم تقفز بقع ضوء من شموعها، ويرتعش ظلانا الطويلان، وتتعثر ساقاى في أطراف الرداء وأختنق ، ويخيل إلى أن شيئا ما يطاردنى ويريد أنيمسك بظهري وأقول لنفسي: سأموت الآن هنا، على هذا الدرج، الآنولكن هانحن أولاء نعبر الدرج والطرق المظلمة ذات النافذة الإيطالية وندخل غرفة ليزا إنها جالسة في الفراش، في قيمص النوم فقط، وقد دلت قدميها الحافيتين، وتتأوه .

آه، يا إلهي آه يا إلهي تدمدم وهي تزر عينيها من ضوء شموعنالاأستطيع، لا أستطيع .

فأقول لها ـ :ليزا، يا بنيتى، ماذا بك؟ وعندما ترانى تصرخ وترتمي على عنقى وتقول من خلال النحيب :بابا، يا حبيبي الطيب بابا يا عزيزى أيها الغالى الحبيب أنا لا أعرف ماذا بى إنني أتعذب !.

تعانقني وتقبلني وتمتم بكلمات رقيقة كتلك التي كنت أسمعها منها وهيطفلة .

وأقول لها . :اطمئنى يا بنيتى، لا بأس لا داعي للبكاء أنا أيضاً أتعذب أحاول أن أدثرها وزوجتي تناولها ماء، وكلانا نتخبط في اضطراب بجوارسريرها، وأدفعها بكفي في كتفها، وفي تلك اللحظة أتذكر كيف كنا نحمم أطفالنا معاً.

وتتوسل إلى زوجتي -هيا ساعدها، ساعدها افعل أي شيء !.

وماذا أستطيع أن أفعل؟ لا شيء ثمة ما يعذب روح الفتاة، ولكني لا أفهمشيئاً ولا أعرف، وليس في وسعي إلا أن أدمدم :لا بأس، لا بأس هذا سيزول نامى، نامى.

وكأنما عن عمد يدوي في فنائنا فجأة عواء كلب، خافتاً مترددا في البداية، ثم عاليا، بنبرتين لم أكن أبداً أعبأ بعلامات التطير مثل عواء الكلاب أو نعيق البوم، أما الآن فينقبض قلبي بألم، فأسرع بتفسير سبب هذا العواء لنفسي :

هراء إنه تأثير جسم على جسم آخر لقد انتقل توترى العصبي الشديد إلى زوجتي وإلى ليزا، وإلى الكلب، وهذا كل ما هنالك وهذا الانتقال هو مايفسر الحدس والتنبؤ .

عندما أعود إلى غرفتى بعد فترة قصيرة لكي أكتب وصفة العلاج لليزا، لا أعود أفكر في أنني سأموت قريباً، ولكني فقط أحس بعذاب وضيق في صدرى إلى درجة أشعر معها بالأسف على أني لم أمت بغتة أقف طويلاً في وسط الغرفة بلا حراك وأنا أفكر فيما يمكن أن أحدده من دواء لليزا، ولكن الأنين وراء السقف يتوقف فأقرر ألا أحدد لها أي دواء ومع ذلك أظل واقفاً .

السكون مطبق كالموت، سكون إلى درجة الطنين في الآذان، كما قال أحد الكتاب والوقت يمضي ببطء، وخطوط ضوء القمر على قاعدة النافذة لا تغير أوضاعها وكأنها تجمدتوالفجر ما زال بعيداً

ولكن ها هو ذا باب سور الحديقة يصر، ويتسلل شخص ما، ويكسر غصناًمن إحدى الشجيرات الهزيلة، ويدق به بحذر على النافذة .

وأسمع همسا: - نيقولاي ستيبانيتش! نيقولاي ستيبانيتش !افتح النافذة ويخيل إلى أنني أرى حلاً فتحت النافذة تقف امرأة ملتصقة بالحائط، في ثوب أسود، تحت ضوء القمر الساطع، وتتطلع إلى بعينين واسعتين وجهها شاحب صارم وخرافي بسبب ضوء القمر وكأنها قد من مرمر وذقنها يرتعشوتقول - :هذه أنا أنا كاتيا !في ضوء القمر تبدو عيون النساء جميعاً واسعة وسوداء، ويبدو الناس أطولوأكثر شحوباً، وربما لهذا لم أتعرف عليها للوهلة الأولى .

ماذا تريدين؟ فتقول :

عفواً لست أدري لماذا أحسست فجأة بعذاب لا يحتمل لم أتمالك نفسي وجئت إلى هنا رأيت نافذتك مضاءة فقررت أن أطرقها عفواً آه لو تدري بأي عذاب شعرت! ماذا تفعل الآن؟.

-لا شيء عندي أرقكان لدى هاجس ما وعموماً فهذه أشياء تافهة . ويرتفع حاجباها، وتلمع عيناها بالدموع، وكأنها بالنور يشرق وجهها كلهبتعبير البراءة الطفولية المعروفة، الغائب منذ زمن بعيدوتقول بصوت ضارع وهي تمد إلى كلتا يديها :

-يا نيقولاي ستيبانيتش! يا عزيزى، أرجوك أتوسل إليك إذا كنت لاتأنف من صداقتي واحترامي لك فلتجبني إلى طلبى !.

-ماذا هناك؟ . خذ مني نقوديما هذا الذي تقولين! وما حاجتي إلى نقودك؟

-اذهب إلى أي مكان وتعالج أنت بحاجة إلى العلاج هل ستأخذها؟نعم؟ يا عزيزى،نعم؟

تحدق في وجهى بنهم وتكرر :نعم؟ ستأخذها؟ فأقول لها: كلا يا صاحبتي، لن آخذها شكراً .

تولينى ظهرها وتطأطئ رأسها يبدو أن رفضى كان بلهجة لا تدع فرصةلأي حديث تال عن النقود .

فأقول لها: عودي إلى البيت ونامى غداً سنرى فتسألنى باكتئاب :إذن فأنت لا تعتبرني صديقاً؟ أنا لم أقل هذا لكن نقودك لا نفع منها لى الآنعفواً تقول خافضة صوتها درجة كاملة إنني أفهمك فأن تكون مديناًالشخص مثلى الممثلة سابقة وعموماً وداعاً .

وتمضي بسرعة لا تمكنني حتى من أن أقول لها وداعاً.

أنا في خاركوف .

إذ لما كانت مقاومة مزاجى الحالي غير مجدية، كما أني غير قادر عليها، فقد قررت أن تكون أيامي الأخيرة لا غبار عليها ولو من الناحية الشكلية وإذا كنت مخطئاً في حق أسرتي، الأمر الذي أدركه جيداً، فلأحاول أن أفعل مثلما تريد وطالما شاءت أن أسافر إلى خاركوف فلاسافر

وفوق ذلك فقدت اهتمامي في الأيام الأخيرة بكل شيء، بحيث أصبح لدى سيان تماماً إلى أين أسافر: إلى خاركوف،أم إلى باريس، أم إلى بيرديتشيف .

وصلت إلى هنا في حوالي الساعة الثانية عشر ظهراً، ونزلت في فندقغيربعيد عن الكاتدرائية وكنت في عربة القطار قد أصبت بدوار ولفحتنى تيارات الهواء، والآن أجلس على السرير، ممسكًا برأسي ومنتظراً مجيء مرض العزة كان من المفروض أن أذهب اليوم مباشرة إلى معارف الأساتذة، ولكن ليسلدي رغبة أو قدرة .

يدخل خادم الفندق العجوز ويسألني هل لدى فرش للسرير فأستوقفه لخمس دقائق وأوجه إليه بعض الأسئلة بخصوص جنيكر الذي من أجله جئت إلى هنا ويتضح أن الخادم من مواليد خاركوف ويعرف هذه المدينة كأصابعه الخمس ولكنه لا يذكر أية عائلة بهذا الاسموأسأله عن الضيعة نفس الجواب .

تدق الساعة في الممر معلنة الواحدة، ثم الثانية، ثم الثالثة الشهور الأخيرة من حياتي، التي تمضي في انتظار الموت، تبدو لي أطول بكثير من حياتي كلها لم يكن في مقدورى من قبل أن أستسلم لبطء الزمن مثلاً أنا الآنففي السابق، عندما كان يحدث أحياناً أن أنتظر القطار في المحطة أو أجلس لامتحان الطلبة، كان ربع الساعة يبدو لي دهراً، أما الآن فبوسعي أن أجلس الليلة كلها في السريردون حراك، وأفكر بلا مبالاة تامة في أنني سأقضى غداً ليلة مثل هذه، طويلة باهتة، وبعد غد أيضاً

الساعة في الممر تدق الخامسة، السادسة، السابعة ويحل الظلامفي خدى خدر مؤلم - إنها بداية العترة ولكي أشغل نفسي بالتفكير أعود إلى وجهة نظري السابقة عندما لم أكن لا مبالياً وأتساءل: لماذا أجلس أنا الرجل الشهير، المستشار السرى، في هذه الغرفة الصغيرة، على هذا السرير ذى البطانية الرمادية الغريبة؟ ولماذا أنظر إلى حوض الغسيل الصفيح الرخيص هذا وأصغى إلى حشرجة ساعة بالية في الطرقة؟ أهذا كله جدير بصيتى ومركزى الرفيع بين الناس؟ وأجيب نفسي عن هذا الأسئلة بضحكة سخرية إذ تبدو لي مضحكة سذاجتي التي كانت تجعلني، في وقت مافي شبابي، أبالغ في أهمية الشهرةوالوضع الفريد الذي بدا لي أن المشاهير يتمتعون به فأنا شهير،واسمى تلفظه الشفاه بتبجيل، وصورتي نشرت في نيفا وفي المصور العالمي، وتاريخ حياتى قرأته منشوراً حتى في مجلة ألمانية ثم ماذا؟ ها أنا ذا أجلس وحيداً تماماً في مدينة غريبة، على سرير غريب، وأحك براحتى خدى المتقلصوالخلافات العائلية، وقسوة الدائنين، وفظاظة موظفي الخدمة في السكك الحديدية،ومتاعب نظام الهويات والإقامة، والأكل الغالى الضار بالصحة في البوفيهات، والجهل الشامل والقسوة في المعاملة كل ذلك وكثير غيره مما يطول تعداده، يمسنى بدرجة لا تقل عما يمس به أي برجوازي صغير غير معروف إلا في حارته فقط ففيم إذن تفرد وضعى؟ فلنفرض أنني أكثر شهرة ألف مرة، وأنني بطل يفخر به وطنى، وتنشر جميع الصحف النشرات الطبية عن مرضى، ويحمل على البريد رسائل المواساة من زملائي وتلاميذي والجمهور.

ولكن كل هذا لن يحول بيني وبين الموت على فراش غريب، في وحشة ووحدة مطلقة بالطبع ليس هناك أحدمذنب في ذلك، ولكني، وليغفر الله لي، لا أحب اسمى الذائع الصيت يخيل إلى وكأنما قد خدعني .

في حوالي العاشرة أنعس، ورغم العترة أغيب في نوم عميق، وكان من الممكنأن أنام طويلا لولا أنهم أيقظوني ففي بداية الساعة الثانية يطرق الباب فجأة .

-من هناك؟ - برقية وأقول بحنق وأنا أتسلم البرقية من خادم الفندق: كان بوسعك أن تنتظر حتى الصباح الآن لن أستطيع أن أنام ثانية .

آسف ولكني رأيت غرفتكم مضاءة فظننت أنكم مستيقظون أفض البرقية وأتطلع قبل كل شيء إلى التوقيع: زوجتى ماذا تريد بعد؟

بالأمس تزوج جنيكر سرا بليزا ارجع.

اقرأ هذه البرقية، ولفترة قصيرة أشعر بفزعلا يفزعنى تصرف ليزا وجنيكر، بل تلك اللامبالاة التي أتلقى بها نبأ زواجهما يقال إن الفلاسفة والحكماء الحقيقيين غير مبالين ليس صحيحاً فالمبالاة هي شلل الروح، وهي الموت المبكر .

أستلقي مرة أخرى في الفراش وأبدأ في البحث عن أفكار أشغل بها نفسى. فيم يمكن أن أفكر؟ يبدو أن كل شيء قد قتل بحثاً، ولم يعد هناك الآن ما يمكن أن يثير تفكيرى

يشرق الفجر وأنا جالس في الفراش، مطوقاً ركبتى بذراعي، وبدافع الفراغ أحاول أن أعرف نفسياعرف نفسك يا لها من نصيحة رائعة مفيدة، لكنالمؤسف أن القدماء لم يفطنوا إلى إرشادنا إلى كيفية استخدام هذه النصيحة .

في الماضي، عندما كانت تراودني الرغبة في فهم شخص ما أو فهم نفسي،كنت لا أهتم بالتصرفات، التي تحكمها شتى الاعتبارات، بل بالرغبات قل لى ماذا تريد، أقل لك من أنت .

والآن امتحن نفسى: ماذا أريد إذن؟أريد من زوجاتنا وأولادنا وأصدقائنا وتلاميذنا أن يحبوا فينا لا الاسم، لا اللافتة والماركة، بل أشخاصنا العادية وماذا أيضاً؟ بودي أن يكون لي معاونون وورثة وماذا أيضاً؟ بودي لو بعثت بعد مائة عام فنظرت ولو بطرف عيني إلى مصير العلم بودي لو عشر سنوات أخرى وماذا بعد؟.

بعد لا شيء أفكر، وأفكر طويلاً، ولا أستطيع أن أتوصل إلى شيء ومهما فكرت، ومهما تشعبت أفكاري فإن من الواضح لى أن رغباتي تفتقر إلى شيء رئيسي، إلى شيء مهم للغاية ففي شغفي بالعلم، وفي رغبتي في الحياة، وفي هذا الجلوس على فراش غريب، وفي سعيى إلى معرفة نفسي، في كل أفكارى، ومشاعرى، ومفاهيمي التي أكونها عن الأشياء، لا يوجد شيء عام بربط جميع ذلك في كل موحد كل فكرة وكل شعور يحيا في داخلى منعزلاً

وحتى أكثر المحللين مهارة لن يجد في كل أحكامى عن العلم، والمسرح، والأدب والتلاميذ، وفي كل الصور التي يرسمها خيالى، ذلك الشيء الذي يسمونه الفكرة العامة أو إله الإنسان الحي .

فإذا لم يكن هذا موجوداً، فلا وجود إذن لأي شيء .

ومع مثل هذا الفقر كان يكفي مرض خطير أو رهبة الموت، أو تأثير ظروف وأشخاص لكي ينقلب كل ما كنت أعتبره من قبل وجهة نظري وأرى فيه مغزى حياتى وبهجتها، رأساً على عقب ويتناثر مزقاً ولهذا فليس من الغريب في شيء أنني سودت آخر شهور عمرى بأفكار ومشاعر لا تليق إلا بعبد أو همجى، وإنني الآن لا مبال ولا ألاحظ شروق الفجر فإذا لم يكن في الإنسان ذلك الشيء الأسمى والأقوى من كل المؤثرات الخارجية فإنه يكفي، في الحقيقة، مجرد زكام قوى لكي يفقده توازنه ويجعله يرى في كل طائر بومة ويسمع في كل صوت عواء الكلاب ولا يصبح لتشاؤمه أو تفاؤله، ولكل أفكاره الكبيرة والصغيرة من أهمية في تلك اللحظة سوى أهميتها كأعراض، ولا شيء أكثر .

لقد هزمت وما دام الأمر كذلك فلا معنى إذن لمواصلة التفكير، ولا معنيللكلام سأبقى جالساً أنتظر في صمت ما سيحدث .

في الصباح يحمل إلى خادم الفندق الشاى ونسخة من الجريدة المحلية أقرأ آليا الإعلانات المنشورة في الصفحة الأولى والافتتاحية، ومقتطفات الصحف والمجلات، والأخبار بالمناسبة، أجد بين الأخبار الخبر التالي:وصل إلى خاركوف بالقطار السريع عالمنا الشهير، الأستاذ القدير نيقولاي ستيبانوفتش الفلانى حيث نزل في الفندقالفلاني .

يبدو أن الأسماء الطنانة يصنعونها لكي تعيش مستقلة، بعيداً عمن يحملونها وها هو ذا اسمي الآن يتجول في خاركوف خالى البال وبعد حوالى ثلاثة أشهر سوف يلمع كالشمس ذاتها، وقد نقش بأحرف مذهبة على تمثال قبرى هذا في الوقت الذي يكون فيه الطحلب قد غطاني .

طرق خفيف على الباب أحدهم إذن يحتاج إلى

من هناك؟

ادخل .

يفتح الباب، فأخطو خطوة إلى الوراء مدهوشاً، وأسارع بجمع أطرافردائيأمامى تقف كاتياوتقول بأنفاس مبهورة من صعود السلم :مرحباً لم تتوقع؟ أنا أيضاًأيضاً سافرت إلى هنا تجلس، وتستطرد متلعثمة دون أن تنظر إلى :

-لماذا لا ترد على التحية؟ أنا أيضاًوصلت اليوم علمت أنك في هذاالفندق فجئت إليك

فأقول هازا كتفي :

مسرور جدا برؤيتك ولكنى مندهش كأنك هبطت من السماء لماذاأنت هنا؟/

وتنهض كاتيا وتبتسم ببرود ودون ان تتطلع تمد الى يدها وأود أن أسألها الن تحضرى جنازتى ولاترد ولم تلتفت ويلوح فستانها الأسود لآخر مرة ثم يتلاشى وقع خطواتها الى الأبد وداعاً يا كنزى.

عنبر رقم ٦

يقوم في فناء المستشفى جناح صغير، محاط بغابة من الأرقطيون وحشائش القريص والقنب البري وسقفه صدي، ومدخنته تهدمت إلى نصفها، وتأكلت درجات المدخل الخشبية وغطاها العشب، ولم يبق من الطلاء غير آثار وتطل واجهته الأمامية على المستشفى، أما الخلفية فتطل على حقل يفصلها عنه سور المستشفى الرمادي ذو المسامير وهذه المسامير بأسنانها إلى أعلى، والسور، والجناح نفسه تبدو بتلك الصورة الخاصة الموحشة اللعينة التي لا تجدها عندنا إلا في مباني المستشفيات والسجون .

وإذا كنت لا تخشى أن يلسعك القريص فلنمض عبر درب ضيق يفضي إلى الجناح، ولنلق نظرة على ما يدور بداخله بعد أن نفتح أول باب ندلف إلى المدخل هنا تتكدس بجوار الجدران والفرن جبال من نفايات المستشفى مراتب وأرواب قديمة ممزقة، وسراويل وقمصان ذات خطوط زرقاء، وأحذية بالية لا جدوى منها وقد كومت كل هذه الحثالة أكواماً، مجعدة، مختلطة، وتتحلل فتنبعث منها رائحة خانقة .

وعلى هذه النفايات يتمدد دائماًالحارس نيكيتا والغليون بين أسنانه وهو جندي متقاعد عجوز ذو أشرطة كالحة، ووجه قاس غائر الخدين وحواجب كثة تضفي على وجهه تعبيراً تجعله أشبه بكلب المراعي، وأنف أحمر وهو قصيرالقامة، جسده ضامر ومعروق

لكن هيئته مهيبة وقبضتيه ضخمتان وهو ينتمي إلى ذلك الطراز من الناس البسطاء، الإيجابيين المطيعين والبلداء، الذين يحبون النظام أكثر من أي شيء في العالم لذلك فهم على يقين بأنه ينبغي ضربهم وهو يضرب في الوجه، وفي الصدر وفي الظهر، وفي أي مكان، ومتأكد بأنه لولا هذا لما استتب النظام هنا .

وبعد ذلك تدخل غرفة كبيرة رحبة، تشغل كل الجناح إذا استثنينا المدخل .

والجدران هنا مطلية بدهان أزرق قذر، والسقف سوده السناج كما في المنزل الريفي الخالي من المدخنة مما يوضح أن المواقد ترسل دخانها هنا في الشتاء ويصبح الجو خانقاً والنوافذ قد شوهت منظرها من الداخل قضبان حديدية والأرضية رمادية ومليئة بالشظايا وتفوح في المكان رائحة الكرنب الحامض ودخان الفتيل والبق والنشادر، وبسبب هذه الرائحة يخيل إليك للوهلة الأولى أنك تدخل حظيرة حيوانات .

وتضمالغرفة أسرة مثبتة في الأرضيةويجلس عليها أو ينام أناس يرتدون

أرواب المستشفى الزرقاء وطراطير على الطريقة القديمة إنهم المجانينومجموعهم هنا خمسة أشخاص واحد منهمفقط نبيل الأصل، أما البقيةفمن الطبقة الوسطى أولهم من ناحية الباب رجل طويل، نحيل، ذو شوارب حمراء لامعة، وعينين باكيتين، يجلس مسنداً رأسه إلى يده ويحدق في نقطة واحدة

وهو حزين ليل نهار، يهز رأسه ويتنهد، ويبتسم بمرارةونادراً ما يشارك في الأحاديث، وعادة لا يرد على الأسئلة ويأكل ويشرب بصورة آلية عندما يقدم له الأكل والشرب ويبدو من سعاله المضني الحاد ونحوله وتضرج وجنتيه أنه قد بدأ يصاب بالسل .

والشخص التالى له عجوز صغير، حى، خفيف الحركة جداً، ذو لحية قصيرة مدببة وشعر أسود مجعد كشعر الزنجي وفي النهار يتجول في العنبر من النافذة إلى النافذة، أو يجلس في سريره، ضاماً ساقيه تحته على الطريقة التركية، ويصفر بلا كلل كطائر الثلج، ويغني ويقهقه بصوت خافت وهو يبدى مرحهالطفولى وطبعه الحي في الليل أيضاً، عندما ينهض ليصلى، أي ليدق بقبضتيه على صدره وينقب بإصبعه في الأبواب إنه اليهودى مويسيكا،الأبله، الذي فقد صوابه منذ حوالي عشرين عاماً، عندما احترقت ورشته الخاصة بتفصيل الطواقي الفرو .

وهو الوحيد من بين نزلاء عنبر رقم ٦ الذي يسمح له بالخروج من الجناح، بل من فناء المستشفى إلى الشارع وهو يتمتع بهذا الامتياز منذ زمن طويل، ربما لأنه من قدامى المرضى، ولأنه عبيط وديع لا يؤذي، ومضحك المدينة الذي ألف الناس رؤيته في الشوارع محاطاً بالصبية والكلاب يسير عبر الشوارع في روب قصير وطرطور مضحك وفي شبشب، وأحياناً حافي القدمين بل حتى بدون سروال ويتوقف عند الأبواب والدكاكين ويستجدى كوبيكا فيعطونه في أحد الأماكن كوباً من الكفاس وفي مكان آخر خبيراً

وفي مكان ثالث كوبيكا، فيرجع عادة إلى الجناح شبعان وغنياً ولكن نيكيتا يستولي على كل ما يحضره معه يفعل ذلك بفظاظة وغضب، وهو يقلب جيوبه ويدعو الله شاهداً على أنه لن يسمح بعد ذلك أبداً لليهودي بالخروج إلى الشارع، وعلى أنه ليس هناك شيء أسوأ بالنسبة له من الفوضى .

وموسيكا يحب تقديم الخدمات، فيجلب لزملائه الماء، ويغطيهم وهم نيام، ويعد بأن يحضر لكل منهم كوبيكا من الخارج ويفصل لكل منهم طاقية فرو جديدة ويطعم بالملعقة جاره الأيسر المشلول وهو لا يفعل ذلك بدافع العطف، ولا لأية اعتبارات إنسانية، بل تقليداً وخضوعا لجاره الأيمن جروموف .

وإيفان دميتريتش جروموف، رجل في حوالي الثالثة والثلاثين، نبيل الأصل، محضر محكمة سابقوسكرتير المحافظة، يعاني من جنون الاضطهاد فهو إما راقد في سريره متكوراً كالكعكة، وإما يروح جيئة وذهاباً من ركن إلى ركن، وكأنما يسير للتريض، ولا يجلس إلا نادراً جداً وهو دائماً مضطرب منفعل ومتوتر يؤرقه انتظار ما غامض وغير محدد ويكفي أن يتردد حفيف في المدخل مشروب غير كحولي يصنع من الخبز الأسود المخمر.

أو صيحة في الفناء حتى يرفع رأسه ويصيخ السمع: أليسوا قادمين في طلبه؟ ألا يبحثون عنه؟ ويعبر وجهه في هذه الحالة عن منتهي القلق والاشمئزاز .

يعجبني وجهه العريض البارز الوجنتين، الشاحب والبائس دائماً، والذي تنعكس فيه كما في المرآة روحه التي عذبها الصراع والخوف الطويل وحركات وجهه غريبة ومريضة، بيد أن ملامحه الدقيقة التي خطها في وجهه العذاب الصادق العميق، حكيمة ومهذبة، وفي عينيه بريق دافئ صحي وهو نفسه يعجبني، فهو مؤدب، خدوم، مهذب بصورة غير عادية في تعامله مع الجميع ما عدا نيكيتا وعندما يسقط زر أو ملعقة من شخص ما، يقفز بسرعة من فراشه ويرفعها وكل صباح يهنئ رفاقه بصباح الخير، وعندما يأوى للنوم يتمنى لهم ليلة سعيدة .

وبالإضافة إلى التوتر المستمر وتقلصات وجهه يتجلى جنونه كذلك في التالي فأحياناً في المساء يلتف بروبه بينما جسده كله يرتعش وأسنانه تصطك وهو يذهب ويجيء من ركن لركن وبين الأسرة ويبدو كأنه مصاب بحمى شديدة ومن توقفه المفاجئ وتحديقه في رفاقه يلوح أنه يريد أن يفضى بشيء مهم للغاية، ولكنه على ما يبدو يدرك أن أحداً لن يصغي إليه أو يفهمه، فيهز رأسه بنفاذ صبر ويواصل سيره إلا أن الرغبة في الحديث سرعان ما تتغلب على شتى الاعتبارات، فيطلق العنان لرغبته ويتكلم بحرارة وحماسة وحديثه مضطرب، محموم، كالهذيان، غير مترابط وليس مفهوماً دائماً، إلا أنك تسمع في كلامه وصوته شيئاًطيباً إلى أقصى حد وعندما يتحدث ترى فيه مجنونا وإنساناً ومن الصعب أن تنقل إلى الورق حديثه المجنون وهو يتحدث عن الوضاعة البشرية وعن الطغيان الذي ينتهك الحق، وعن الحياة الرائعة التي ستكون على الأرض بمضى الزمن

وعن قضبان النوافذ التي تذكره كل لحظة ببلادة الطغاة وقسوتهم ويتألف من ذلك خليط مشوش متنافر من الأغاني القديمة التي لم تكتمل بعد .

منذ حوالى اثنتي عشرة أو خمس عشرة سنة كان الموظف المحترم الميسور الحال جروموف يعيش في المدينة في منزله الخاص الواقع في أهم الشوارع الرئيسية وكان لديه ولدان، سرجي وإيفان وقد مرض سرجي وهو طالب في الصف الرابع بالسل وتوفي بسرعة، وكأنها كانت هذه الوفاة بداية لسلسلة من المصائب التي انهالت فجأة على أسرة جروموف فبعد أسبوع من دفن سرجى قدم الأب العجوز للمحكمة بتهمة التزوير والاختلاس وسرعان ما توفي في مستشفى السجن من التيفوس وبيع المنزل وكل المنقولات بالمزاد العلني، وأصبح إيفان دميتريتش هو ووالدته دون أي مصدر دخل

وكان إيفان دميتريتش، ووالده على قيد الحياة بعد، يعيش سابقاً في بطرسبرج، حيث كان يدرس في الجامعة، ويتقاضى ستين - سبعين روبلا في الشهر، ولا يدرى ما العوز أما الآن فقد اضطر إلى تغيير مجرى حياته تغييراً حاداً كان عليه أن يعطى من الصباح إلى الليل دروساً بخسة، ويزاول نسخ الكتب، ومع ذلك يجوع، لأنه كان يرسل كل دخله إلى أمه لتعيش منه ولم يستطع إيفان دميتريتش أن يتحمل هذه الحياة، فانهارت معنوياته،ومرض فهجر الجامعة ورحل إلى داره وفي هذه المدينة حصل بتوصية على وظيفة مدرس في مدرسة مركز إقليمي، ولكنه لم يوفق في التعايش مع زملائه ولم يعجب الطلبة، وسرعان ما ترك الوظيفة

ثم ماتت أمه وقضى نصف سنة بلا عمل وهو لا يذوق سوى الخبز والماء، ثم التحق بوظيفة محضر محكمة. وظل في هذه الوظيفة إلى أن فصل بسبب المرض .

لم تكن تبدو عليه أبداً ملامح الصحة حتى في سنى شبابه الدراسية بل كان دائماً شاحب الوجه، نحيلاً، سريع الإصابة بالبرد وكان يأكل قليلاً وينام نوماً سيئاً، ومن كأس نبيذ واحدة يدور رأسه وتنتابه الهستيريا كان دائماً يميل إلى معاشرة الناس، ولكن بسبب عصبيته وارتيابه لم تربطه علاقة حميمة بأحد ولم يكن لديه أصدقاء وكان يتحدث عن أهل المدينة دائماً باحتقار ويقول إن جهلهم الفظوحياتهم الحيوانية الناعسة تبدو له حقيرة ومقززة وكان يتكلم بصوت تينورهعال وبحرارة، ولا يتحدث إلا بغضب أو استنكار، أو بإعجاب ودهشة، ولكن دائماًبصدق وأياً كان الموضوع الذي تتحدث معه فيه فهو يحول الحديث إلى شيء واحد: فالحياة في المدينة خانقة مملة، وليس لدى المجتمع اهتمامات سامية، بل يحيا حياة كابية فارغة وينوعها بالطغيان والانحلال الفظ والنفاق الأوغاد شبعي ومكتسون،بينما يأكل الشرفاء الفتات لابد من مدارس وجريدة محلية ذات اتجاه شريف، ومسرح، وحفلات إلقاء عامة وتلاحم القوى المستنيرة، ينبغي أن يدرك المجتمع نفسه ويرتاح وكان في أحكامه على الناس يضفي ألواناً صارخة من الأبيض والأسود فقط ولا يعترف بدرجات الألوان وكانت البشرية لديه مقسمة إلى شرفاء وأوغاد، وليس بينهما وسط وكان يتحدث عن النساء والحب دائماً بحماسة وإعجاب، رغم أنه لم يجرب الحب مرة

ورغم حدة أحكامه وعصبيته كانوا يحبونه في المدينة، ويدعونه في غيابه فانياوكان تهذيبه الموروث،وروحه الخدوم، واستقامته ونقاؤه الخلقي، وسترته الرثة وهيئته المريضة ومصائبه العائلية تستدر شعوراً طيباً دافئاً وحزيناًوفوق ذلك فقد كان متعلماًومطلعاً بصورة جيدة، وحسب رأي أهل المدينة كان يعرف كل شيء وكان في المدينة أشبه بكتاب دليل متنقل .

وكان يقرأ كثيراً جداً كان يجلس طويلاًفي النادي وهو يعبث بلحيته في عصبية ويقلب المجلات والكتب، ويبدو على وجهه أنه لا يقرأ بل يزدرد حتى قبل أن يتمكن من المضغ ولابد أن القراءة كانت إحدى عاداته المرضية، لأنه كان ينكب بنفس النهم على كل ما تقع عليه يداه، حتى جرائد وتقويمات العام الماضي وفي داره كان يقرأ دائماً وهو راقد.

وذات صباح خريفى، سار إيفان دميتريتش عبر الحوارى والأفنية الخلفية وهو يخوض في الوحل وقد رفع ياقة معطفه، قاصداً أحد المواطنين ليتقاضى منه مبلغاً مستحقاً بأمر دفع وكان مزاجه عابساً كما هو الحال دائماً في الصباحوفي إحدى الحارات قابل سجينين مكبلين بالأغلال ومعهما أربعة حراس ببنادق وكان إيفان دميتريتش في الماضي كثيراً ما يقابل المساجين، وكل مرة كانوا يثيرون فيهمشاعر العطف والحرج، أما اليوم فقد ترك هذا اللقاء في نفسه انطباعاً غريباً خاصاً فقد خيل إليه بغتة ولسبب ما أنه أيضاً يمكن أن يكبل بالأغلال ويساق في الوحل إلى السجن على هذا النحو

وبعد أن زار المواطن التقى في طريق عودته عند البريد بمفتش شرطة يعرفه فحياه هذا، وسار بجواره في الشارع بضع خطوات، ولسبب ما بدا له هذا مريباوفي البيت لازمته طوال اليوم صورةالمساجين والحراس ذوي البنادق، وعاقه عن القراءة والتركيز قلق نفسي غامض وفي المساء لم يشعل الضوء، ولم ينم طول الليل وهو يفكر في أنه قد يعتقل ويكبل ويلقي به في السجن وكان يعرف أنه لم يرتكب جرماً وبوسعه أن يضمن أنه في المستقبل أيضاً لن يقتل .

ولن يحرق ولن يسرق أبداًلكن هل من العسير أن يرتكب المرء جريمة عن غير قصد، بصورة عفوية،وأليس الافتراء محتملاً، وأخيراً ألا يمكن أن تخطئ المحكمة؟ وليس عبثاً أن الخبرة الشعبية العريقة تقول :

يا ما في الحبس مظاليموفي ظل نظام القضاء الحالي فإن الخطأ محتمل جداً ومأأسهل أن يقع فالأشخاص الذين لهم علاقة وظيفة أو عمل بمآسي الآخرين، كالقضاة ورجال الشرطة والأطباء مثلاً، يكتسبون بمضى الزمن وبحكم العادة مناعة إلى درجة أنهم لا يستطيعون حتى لو شاءوا غير ذلك إلا أن يتعاملوا مع زبائنهم بصورة شكليةمن هذه الزاوية فهم لا يختلفون في شيء عن الفلاح الذي يذبح الخراف والعجول في الفناء الخلفي ولا يلاحظ الدماء وفي ظل الموقف الشكلى المجرد من المشاعر تجاه الفرد، لا يعود القاضي بحاجة إلالشيء واحد، هو الزمن، لكي يجرد الشخص البريء من جميع حقوق الملكية

ويحكم عليه بالأشغال الشاقة الزمن فقط، لمراعاة بعض الإجراءات الشكلية التي يتقاضى القاضى راتبه مقابلها، وبعدها ينتهي كل شيء ولتبحث بعد ذلك عن العدالة والحماية في هذه المدينة الصغيرة القذرة، على بعد مائتي فرسخ من السكة الحديدية ثم أليس من المضحك أن تفكر في العدالة والمجتمع ينظر إلى أي طغيان وكأنه ضرورة حكيمة معقولة، بينما يثير أي عمل من أعمال الرحمة، كالحكم بالبراءة مثلاً، تفجراً هائلاً لمشاعر السخط والحنق؟.

نهض إيفان دميتريتش من فراشه في الصباح مفزوعاً، والعرق البارد يغطى جبينه، وقد أصبح واثقاً تماماً من أنه قد يعتقل في أية لحظة وفكر فينفسه بأنه إذا كانت أفكار الأمس المرهقة لم تفارقه في هذه الفترة الطويلة فهذا يعني أن فيها جانباً من الصحة فلا يمكن بالفعل أن تراوده دون مبرر .

ومر شرطي على مهل بجوار النوافذ هذا ليس صدفة وها هما ذان شخصان

قد وقفا قرب المنزل في صمت لماذا يصمتان؟.

وحلت أيام وليال مضنية بالنسبة لإيفان دميتريتشكان يخيل إليه أن جميع المارين بجوار النوافذ والداخلين إلى الفناء هم من الجواسيس والمخبرين وكان المفتش يمر كل ظهيرة في الشارع في عربة بجوادين، قادماً من ضيعته في الضاحية إلى إدارة الشرطة، ولكن كان يخيل إلى إيفان دميتريتش في كل مرة أنه يسير بسرعة

وبتعبير خاص على وجهه: يبدو أنه يسرع ليبلغ أنه قد ظهر في المدينة مجرم خطير للغاية وكان إيفان دميتريتش ينتفض كلما سمع الجرس أو دقاًعلى الباب ويشعر بالقلق كلما رأى لدى ربة البيت شخصاً جديداً وعندما يلقى رجال الشرطة والدرك يبتسم ويصفر لكي يبدو غير مبال لم يكن ينام ليالي بأكملها في انتظار القبض عليه، ولكنه كان يشخر ويزفر بصوت عال كالنائم لكي تظن ربة الدار أنه نائم فعدم النوم يعنى أن ضميره يعذبه، فيا له من دليل! وكانت الحقائق والمنطق السليم تؤكد له أن كل هذه المخاوف هراء وسيكوباتية، وأن الاعتقال والسجن، إذا نظرنا إلى الأمر نظرة أشمل، ليس فيهما ما يخيف في الواقع طالماكان ضمير المرء مستريحاً بيد أنه كلما فكر بمزيد من التعقل والحكمة ازداد قلقه النفسي شدة وعذاباوكان ذلك أشبه بالناسك الذي أراد أن يقتطع لنفسه مكانا في غابة عذراء، فكلما أعمل فأسه بهمه، ازدادت الغابة كثافة ونمواً وعندما أدرك إيفان ديميتريتش في النهاية أن كل ذلك لا طائل منه، ترك عنه التفكير واستسلم تماماً لليأس والخوف .

وبدأ ينطوى ويتجنب الناس وعمله، الذي كان يمقته سابقاً أصبح الآن لا يطاق كان يخشى أن يدبروا له مكيدة ما، أن يضعوا في جيبه رشوة بصورة غير ملحوظة ثم يضبطونه متلبساً بعد ذلك،أو أن يرتكب هو نفسه في الأوراق الحكومية خطأ عفوياً يرقى إلى منزلة التزوير، أو أن يضيع نقود العهدة ومن الغريب أن خياله لم يكن أبداً مرناً وخصباًكما هو الآن، إذ كان يتفتق كل يوم عن آلاف الحجج المختلفة التي تجعله يخاف على مصيره وشرفه

ولكن في مقابل ذلك ضعف إلى حد كبير اهتمامه بالعالم الخارجي، خاصة بالكتب، وأصبحت ذاكرته تخونه كثيراً .

وفي الربيع، عندما ذاب الثلج وانحسر،اكتشفت في الغور المجاور للمقابر جثتا امرأة عجوز وصبي وبها آثار وفاة غير طبيعية ولم يعد الحديث يدور في المدينة إلا عن هاتين الجثتين والقتلة المجهولينولكي لا يظن أحد أن إيفان دميتريتش هو القاتل، أخذ يسير في الشوارع مبتساً،وعندما يلتقى بمعارف يشحب وجهه ثم يتفرج، وأخذ يؤكد أنه ليس هناك جريمة أشد دناءة من قتل الضعفاء والمساكين ولكن هذا الكذب سرعان ما أرهقه،وبعد قليل من التفكير قرر أن أفضل شيء له في وضعه هذا أن يختبئ في قبو ربة الدار ومكث في القبو نهاراً وليلة ونهاراً آخر، وبرد بشدة فانتظر حلول الظلام ثم صعد خفية إلى غرفته كاللص ووقف حتى الفجر في وسط الغرفة بلا حراك وهو يصيخ السمع وفي الصباح الباكر، قبل شروق الشمس جاء البناءون إلى ربة الدار وكان إيفان دميتريتش يعلم جيداً أنهم جاءوا ليعيدوا بناء الفرن في المطبخ، ولكن الخوف صور له أنهم رجال شرطة متنكرون في زى بنائين فخرج من الشقة فيهدوء وبدون سترة أو غطاء رأس وقد استولى عليه الرعب، وركض في الشارع وانطلقت وراءه الكلاب وهي تنبح، وصاح خلفه شخص ما، وصفرت الريح في أذنيه، وخيل لإيفان دميتريتش أن طغيان العالم كله قد تجمع وراءه يطارده .

وأمسكوا به وأعادوه إلى المنزل وأرسلوا ربة الدار لاستدعاء الطبيب وأوصى الطبيب أندريه يفيمتش الذي سنتحدث عنه فيما بعد، بكمادات باردة على الرأس وبقطرات الغار والكرز، وهز رأسه في أسى وانصرف بعد أن قال لربة الدار إنه لن يعوده بعد ذلك لأنه لا ينبغي إعاقة الناس عن الجنون ولما لم يكن لدى إيفان ديميتريتش في المنزل ما يعيش ويتعالج به فقد أرسلوه إلى المستشفى ووضعوه هناك في عنبر الأمراض الجنسيةولم ينم الليالي وهو يتأفف ويزعج المرضى، وسرعان ما نقلوه بأمر أندريه يفيميتش إلى عنبر رقم٦ .

وبعد عام نسي أهالى المدينة إيفان دميتريتش تماماً، أما كتبه التي كومتها ربةالدار في المدخل تحت الرف فقد بددها الصبيان .

كان جار إيفان دميتريتش الأيسر، كما قلت، هو اليهودي مويسيكا، أما جاره الأيمن ففلاح غطاه الشحم، مستدير تقريباً، ذو وجه بليد لا يعبر عن أي شيء كان ذلك حيواناً عديم الحركة، شرهاً، قذر الجسم،فقد منذ أمد بعيد القدرة على التفكير والإحساس وكانت تنبعث منه باستمرار رائحة عفونة حادة خانقة .

وكان نيكيتا، الذي ينظف له مكانه، يضربه بفظاعة وبكل قوته، غير مشفق على قبضتيهولم يكن المرعب في الأمر أنهم يضربونه، فهذا يمكن التعود عليه، وإنما المرعب أن هذا الحيوان البليد لم يكن يند عنه أثناء الضرب صوت أو حركة أو نظرة بل كان يتمايل قليلاً فحسب، كبر ميل ثقيل

أما النزيل الخامس والأخير في عنبر رقم ٦ فكان من الطبقة الوسطى يعمل في وقت ما فرازاًفي البريد، وكان صغيراً، نحيلاً، أشقر ذا وجه طيب ولكنه ماكربعض الشيء ويبدو من عينيه الذكيتين الهادئتين اللتين تطل منهما نظرة صافية مرحة أنه حريص، ويحتفظ بسر مهم للغاية وسار ولديه تحت المرتبة شيء مالا يريه لأحد، لا خوفاً من أن يخطفوه منه أو يسرقوه، بل خجلاً وأحياناً يقترب من النافذة، ويولى ظهره لرفاقه، ويرتدي شيئاً ما على صدره ويتطلع وقد أحنى رأسه وإذا اقترب منه أحد في تلك اللحظة يرتبك وينزع شيئاً ما في صدره بيد أنه ليس من الصعب معرفة سره .

وكثيراً ما يقول لإيفان دميتريتش :

هنئني، لقد رشحت لوسام ستانيسلاف من الطبقة الثانية وبنجمة الطبقة الثانية بالنجمة لا يمنح إلا للأجانب ولكنهم لسبب ما يريدون تقديم هذا الاستثناء لي ويبتسم ويهز كتفيه مستغرباً ـ أصارحك لم أكن أتوقع هذا !.

فيقول إيفان دميتريتش بتجهمأنا لا أفهم شيئاً في هذه الأمور فيستطرد الفراز السابق وهو يزر عينيه بمكر :ولكن أتدري ما الذي سأبلغه عاجلاً أم آجلاً؟ سوف أحصل حتما علىالنجم القطبي السويدي إنه وسام يستحق أن تسعى من أجله صليب أبيضوشريط أسودإنه جميل جداً .

وربما لا تسير الحياة في أي مكان آخر بمثل هذه الرتابة كما في الجناح ففي الصباح يغتسل المرضى، ما عدا المشلول والفلاح السمين، في الردهة من وعاء كبير ويجففون وجوههم بذيول أروابهم وبعد ذلك يشربون في أكواز معدنية الشاي الذي يأتي به نيكيتا من المبنى الرئيسي ويخص كلاً منهم كوز واحد وفي منتصف النهار يتناولون حساء من الكرنب الحامض وعصيدة، وفي المساء يتعشون بالعصيدة المتبقية من الغداء وبين ذلك يستلقون وينامون ويتطلعون من النوافذ ويسيرون من ركن إلى ركن هكذا كل يوم وحتى الفراز السابق يتحدث دائماً عن الأوسمة نفسها .

ونادراً ما يرى أحد حديث في عنبر رقم ٦فالدكتور لم يعد من زمن طويل يقبل مجانين جدد، أما هواة زيارة مستشفيات المجانين فقليلون في هذا العالم ومرة كل شهرين يأتي الحلاق سيميون لازريتش إلى الجناح ولن نروى هنا كيف يحلق للمجانين، وكيف يعاونه نيكيتا في ذلك، ومدى الاضطراب الذي يعتري المرضى في كل مرة يظهر فيها الحلاق الثمل المبتسم .

وبخلاف الحلاق لا يزور الجناح أحد لقد حكم على المرضى ألا يروا يوماً

بعد يوم غير نيكيتا .

بيد أنه ترددت في مبنى المستشفى منذ فترة قريبة شائعة غريبة إلى حد كبير لقد قيل إن الدكتور أخذ يتردد على عنبر رقم ٦ .

فالدكتور أندريه يفيميتش راجين إنسان رائع من نوعه، ويقال إنه كان في صباه شديد التدين ويعد نفسه للخدمة الدينية، وإنه بعد أن أنهى الدراسةفي المدرسة عام ١٨٩٣ كان يعتزم الالتحاق بالأكاديمية الدينية، ولكن أباه، الدكتور الجراح، سخر منه سخرية لاذعة، وأعلن له بشكل قاطع أنه لن يعتبره ابناً له إذا ما أصبح قسيساً ولست أدري ما مدى صحة ذلك، ولكن أندريه يفيمينش نفسه اعترف غير مرة أنه لم يشعر أبداً بميل للطب وللعلوم المتخصصة بشكل عام .

وأياً كان الأمر فبعد أن تخرج من كلية الطب لم يصبح قسيساً ولم يبد عليه تدين خاص، وكان في بداية حياته العملية قليل الشبه برجل الدين،مثلما هو الآن أيضاً .

كانت هيئته ثقيلة، خشنة، كهيئة فلاح وكان بوجهه ولحيته وشعره المسطح وبدنه القوى غير المتناسق أشبه بصاحب حانة على طريق رئيسى، متخم، متهور، وحاد الطباع كان وجهه قاسياً، مغطى بعروق زرقاء، وعيناه صغيرتين وأنفهأحمر وإلى جانب قامته الطويلة وكتفيه العريضتين كان ضخم الساقين واليدين، حتى ليخيل إليك أنه لو لكم لكمة لأزهق الروح ولكن وقع خطواته كان خفيفاً ومشيته حذرة، متلصصة، وعندما يقابل أحداً في ممشى ضيق يبادر إلى التوقف ليفسح الطريق، ويقول لا بصوت غليظ كما تتوقع، بل بصوت رفيع لينآسفوفي رقبته ورم صغير يعوقه عن ارتداء الياقات المنشاة الصلبة.

ولذلك يرتدي دائماً قميصاً ناعماً من الكتان أو الشيت وعموماً فهندامه ليس هندام دكتور فهو يلبس نفس البدلة حوالي عشر سنوات، أما الملابس الجديدة التي يبتاعها عادة من متجر يهودى فتبدو عليه مستعملة ومجعدة كملابسه القديمة وكان في السترة نفسها يستقبل المرضى ويتناول الغداء ويزور المعارف ولم يكن ذلك بسبب البخل، بل لعدم اهتمامه بمظهره على الإطلاق .

وعندما وصل أندريه يفيمتش إلى المدينة ليتسلم عمله كان المستشفى في حالة فظيعة كان من الصعب أن تتنفس في العنابر والطرقات وفناء المستشفى من العفونة وكأن خدم المستشفى والمربيات وأولادهم ينامون في العنابر مع المرضى وتعالت الشكوى من الصراصير والبق والفئران وفي قسم الجراحة لم ينقطع مرض الحمرة ولم يكن في المستشفى كلها سوى مشرطين وليس بها ترمومتر واحد وكانوا يحفظون البطاطس في أحواض البانيو وكان المشرف وأمينة مخزن الملابس والحكيم يسرقون المرضى، وقيل إن الدكتور العجوز، سلف أندريه يفيميتش كان يمارس سراً بيع كحول المستشفى، وكون لنفسهحزباً كاملاً من المربيات والمريضات وكانوا يعرفون في المدينة هذه الفوضى تمام المعرفة بل ويبالغون في وصفها لكنهم نظروا إليها بهدوء كان البعض يبررها بأن المستشفى لا ينزل به سوى متوسطى الحال والفلاحين، وهؤلاء لا يمكن أن يكونوا غير راضين لأن حياتهم في المنزل أسوأ بكثير من المستشفى، ومن غير المعقول أن تقدم لهم الديوك البرية

ويبررها البعض الآخر بأن المدينة وحدها، دون مساعدة مجلس الإقليم، غير قادرة على تأمين مستشفى جيد، والحمد لله أنلدينا مستشفى حتى لو كان سيئاً أما مجلس الإقليم فلم يفتح مستشفى لافي المدينة ولا قربها تذرعاً بأن للمدينة مستشفاها .

وبعد أن تفقد أندريه يفيميتش المستشفى توصل إلى استنتاج بأن هذه المؤسسة لا أخلاقية ومضرة إلى أقصى حد بصحة النزلاء وكان من رأيه أن أصوب مايمكن عمله هو إطلاق سراح المرضى وإغلاق المستشفى ولكنه أدرك أن إرادته وحدها لا تكفي لذلك وأنه لا فائدة من هذا؛ فإذا أزيلت القذارة الجسدية والخلقية من مكان فسوف تنتقل إلى مكان آخر ينبغي الانتظار إلى أن تتبخر بنفسها وعلاوة على ذلك فإذا كان الناس قد افتتحوا مستشفى ويتحملون بقاءه لديهم فمعنى ذلك أنهم بحاجة إليه فالخزعبلات وكل هذه الوضاعة والحقارة المعيشية مطلوبة لأنها بمضى الزمن تتحول إلى شيء مفيد، كما يتحول الروث إلى سماد وليس هناك في الدنيا شيء طيب إلا وكان فيه شيء حقير في أصله .

ويبدو أن أندريه يفيميتش، بعد أن تسلم الوظيفة، نظر إلى تلك الفوضى نظرة لا مبالية إلى حد كبير ولم يفعل سوى أن طلب من خدم المستشفى والمربيات ألا يبيتوا في العنابر، ووضع صوانين بها أدوات جراحة أما المشرف وأمينة مخزن الملابس والحكيم ومرض الحمرة فقد ظلوا في أماكنهم.

وأندريه يفيميتش يهوي للغاية الحكمة والشرف،بيد أنه لا يملك من الإرادة والإيمان بحقه ما يكفي لكي يجعل الحياة من حوله حكيمة وشريفة وهو لا يجيد أبداً إصدار الأوامر والمنع والإصرار وكأنه قطع على نفسه عهداً بألا يرفع صوته أبداً وألا يستخدم صيغة الأمر ومن الصعب عليه أن يقول أعطني أو هات وعندما يريد أن يأكل، يسعل بتردد ويقول للطاهية: لو أمكن شاى أو لو أمكن أن أتغدى وأن يقول للمشرف بأن يكف عن السرقة، أو أن يطرده، أو يلغي تماماً هذه الوظيفة التي لا داعي لها، فهذا أمر لا يقوى عليه أبداً وعندما يخدعون أندريه يفيميتش أو يتملقونه، أو يقدمون له حساباً مزوراً عمداً ليوقع عليه فإنه يحمر كسرطان البحر، ويحس بنفسه مذنباً، بيد أنه يوقع الحساب وعندما يشكو له المرضى من الجوع أو من فظاظة المربيات، يخجل ويدمدم بنبرة اعتذار :

حسنا، حسناً، سأنظر في ذلك فيما بعد يبدو أن هناك سوء فهم وفي الأيام الأولى عمل أندريه يفيميتش باجتهاد كبير كان يستقبل المرضىكل يوم من الصباح إلى الظهر، ويجري العمليات الجراحية، بل ويمارس التوليد وقالت عنه النساء إنه معتن ويخمن الأمراض بصورة ممتازة وخاصة أمراض الأطفال والنساء ولكن بمرور الزمن سئم العمل بشكل ملحوظ لرتابته وعدم جدواه الواضحة فاليوم تستقبل ثلاثين مريضاً، وإذا بك تستقبل غداًخمسة وثلاثين، وبعد غد أربعين،وهكذا يوماً بعد يوم، وعاماً بعد عام، بينما نسبة الوفيات في المدينة لا تقل، ولا يكف المرضى عن المجيء

وليس هنا كإمكانية بدنية لمساعدة أربعين مريضاً مساعدة جاد من الصباح حتى الظهر، إذن فالنتيجة محض خداع رغماً عنك ويكتب في التقرير السنوي أنه تم الكشف على اثنى عشر ألف مريض خارجي، أي ببساطة تمخداع اثنى عشر ألف شخص كذلك فمن المستحيل وضع المرضى الخطرين في العنابر ومعالجتهم حسب القواعد العلمية لأن القواعد موجودة أما العلم فغير موجود وإذا ما تركنا الفلسفة جانباً واتبعنا القواعد بدقة، كما يفعل أطباء آخرون، فلابد أولاً من توفر النظافة والتهوية لا القذارة، والغذاء السليم لا حساء الكرنب الحامض الكريه الرائحة، والمعاونين الجيدين لا اللصوص .

وعموماً فلماذا نمنع الناس من أن يموتوا طالما أن الموت هو النهاية الطبيعية المشروعة لكل إنسان؟ وما جدوى أن يعيش تاجر أو موظف خمسة أو عشرة أعوام زيادة؟ وإذا اعتبرنا أن هدف الطب هو أن تخفف الأدوية الآلام فإن السؤال الذي يثور لا إرادياًهو: وما الداعي لتخفيفها؟ فأولاً: يقال إن الآلام تفضي بالإنسان إلى الكمال، وثانيا: لو أن البشرية تعلمت بالفعل أن تخفف آلامها بالحبوب والقطرات،فسوف تهجر تماماً الدين والفلسفة، اللذين وجدت فيهما حتى الآن لا مجرد الحماية من شتى المصائب، بل السعادة كذلك لقد عانى بوشكين قبل موته عذاباً رهيباً، وهاني المسكين رقد مشلولاً عدة سنوات، فلماذا لا يمرض من يدعي أندريه يفيميتش أو ماتريونا سافيتشنا، اللذان تعتبر حياتهما تافهة، ولولا الآلام لأصبحت فارغة تماما كحياة الأميبا؟

وأثقلت هذه الأفكار على أندريه يفيميتش فتراخي ولم يعد يتردد علىالمستشفي كل يوم .

تسير حياته على النحو التالي: يستيقظ عادة في الثامنة صباحاً، فيرتدى ملابسه ويتناول الشاي ثم يجلس إلى مكتبه ليقرأ أو يذهب إلى المستشفى. وهنا، في المستشفى، وفي طرقة ضيقة مظلمة يجلس المرضى الخارجيون في انتظار الكشف ومن جوارهم يهرول الخدم والمربيات وهم يدقون بأحذيتهم على الأرضية الحجرية، ويمر المرضى الهزالى في أردية المستشفى وينقل الموتى والأوعية بالفضلات،ويبكي الأطفال، وتهب تيارات الهواء وأندريه يفيميتش يعلم أن هذا الوضع بالنسبة للمرضى بالحمى والمسلولين، وعموماً للمرضى السريعى التأثر، وضع معذب، ولكن ما العمل؟ ويقابله في غرفة الاستقبال الحكيم سرجى سرجيتش، وهو رجل صغير بدين، ذو وجه نظيف حليق مكتنز، وحركات ناعمة انسيابية، وفي حلة جديدة فضفاضة، ويبدو أكثر شبهاً بسناتور منه بحكيم وله في المدينة زبائن لا حد لهم، وهو يضع ربطة عنق بيضاء ويعتبر نفسه أكثر إلماماً من الدكتور الذي ليس لديه أي زبائن وفي ركن غرفة الاستقبال أيقونة كبيرة في إطار قنديل ثقيل، وبالقرب منها حامل في غلاف أبيضوعلى الجدران صور الأساقفة ومنظر لدير سفيتاجورسك وأكاليل من الزهور البرية الجافة وسرجى سرجيتش رجل متدين يحب الرونق والجلال وقد وضع الأيقونة على نفقته وفي الآحاد يتلو أحد المرضى بأمر منه الدعاء بصوت مسموع

وبعد التلاوة يقوم سرجى سرجيتش بنفسه بالمرور على جميع العنابر بالمبخرة وهو يطلق البخور .

ولكثرة المرضى وقلة الوقت يقتصر الأمر على سؤال سريع للمريض وإعطائه دواء ما، مرهم مثلاً أو شربة زيت الخروع ويجلس أندريه يفيميتش معتمداً بخده على قبضته ومستغرقاً في التفكير ويوجه الأسئلة آلياً وسرجى سرجيتش جالس أيضاً يفرك يديه ويتدخل أحياناً قائلاً.

نمرض ونعاني من الفقر لأننا لا نصلى للرب الرحيم جيداً نعم !وأثناء الكشف لا يجري أندريه يفيميتش أية عمليات جراحية، فقد نسى كيف يقوم بها منذزمن بعيد وأصبح منظر الدماء يثير فيه اضطراباً كريهاًوعندما يضطر إلى فتح فم طفل لينظر في حلقه بينا يصرخ الطفل ويحمي نفسه بيديه، يدور رأسه من الطنين في أذنيه وتدمع عيناه ويسارع إلى كتابة الدواء ويشبح بيديه لكى تنصرف المرأة بالطفل سريعاً وأثناء الكشف سرعان ما يمل من رجل المرضى وقلة حيلتهم، ومن وجود سرجى سرجيتش الجليل بقربه، ومن الصور المعلقة على الجدران، ومن أسئلته هو التي يوجهها دون تغيير منذ حوالي عشرين سنة فينصرف بعد الكشف على خمسة أو ستة مرضى أما البقيةفيكشف عليهم الحكيم .

ويعود أندريه يفيميتش إلى المنزل بفكرة سارة وهي أنه والحمد لله لم يعد يملك عيادة خاصة منذ زمن بعيد، ومن ثم فلن يزعجه أحد، فيجلس على الفور في غرفة المكتب ويشرع في القراءة

وهو يقرأ كثيراً وباستمتاع كبير دائماًوينفق نصف راتبه في شراء الكتب، وتغص ثلاث حجرات في شقته المكونة من ست غرف بالكتب والمجلات القديمة يهوي أكثر شيء كتب التاريخ والفلسفة، أما في الطب فلا يشترك سوى في مجلة الطبيب التي يبدأ قراءتها دائماًمن آخر صفحة ويستمر في القراءة كل مرة عدة ساعات بدون راحة ولا يتعب وهو لا يقرأ بتلك السرعة والاندفاع مثلما كان يقرأ إيفان دميتريتش في وقت ما، بل ببطء وتمعن وكثيراً ما يتوقف عند المواضع التي تعجبه أو التي لا يفهمها وبجوار الكتاب يوجد دائماً إبريق فودكا وخيارة مملحة أو تفاحة مخللةموضوعة على جوخ المكتب مباشرة بدون طبق وكل نصف ساعة يصبلنفسه قدح فودكا، وهو لا يحول عينيه عن الكتاب، ويشربه، ودون أن ينظر يتحسس الخيارة ويقضم منها قطعة .

وفي الساعة الثالثة يقترب من باب المطبخ بحذر ويسعل ثم يقول :يا داريوشكا، لو أمكن أن أتغدى وبعد الغداء السيئ والكريه يتجول أندريه يفيميتش في غرف شقته وقدعقد ذراعيه على صدره وراح يفكر وتدق الساعة الرابعة، ثم الخامسةبينما لا يزال يتجول ويفكر وأحياناً يصر باب المطبخ، ويطل منه وجه داريوشكا الأحمر الناعسوتسأله بقلق :

-يا أندريه يفيميتش، ألم يحن الوقت لتناول البيرة؟ فيرد - :كلا، ليس بعد سأنتظر سأنتظر .

ويأتي عادة في المساء مدير مكتب البريد ميخائيل أفيريانيتش، الإنسان الوحيد في المدينة كلها الذي لا تثقل صحبته على أندريه يفيميتش كان ميخائيل أفيريانيتش في وقت ما إقطاعياً غنياً جداً يخدم في سلاح الفرسان، ولكنه أفلس، واضطره العوز إلى الالتحاق بإدارة البريد وهو في شيخوخته وكان ذا هيئةانشطة صحيحة، وسالفين أشيبين فاخرين، وحركات مهذبة وصوت جهورى لطيف وهو إنسان طيب، حساس ولكنه سريع الغضب.

وعندما يحتج أحد زوار مكتب البريد ويبدى عدم موافقته أو حتى يشرع في النقاش يتضجر وجه ميخائيل أفيريانيتش بحمرة قانية، ويرتعش بدنه كله ويصرخ بصوت كالرعد:اخرس، حتى إن مكتب البريد اكتسب منذ أمد طويل سمعة المؤسسة المرعبة لمن يزورها وميخائيل أفريانيتش يحترم أندريه يفيميتش ويحبه لثقافته ونبل أخلاقه، أما الآخرون فينظر إليهم بتعال، نظرته إلى مرؤوسيه .

ويقول وهو يدخل على أندريه يفيميتش: ها أنا ذامرحباً يا عزيزى! أظن أنني قد أثقلت عليك، هه؟ فيرد الدكتور :بالعكس، أنا سعيد جداً أنا دائما أسعد برؤياك .

ويجلس الصديقان في غرفة المكتب على كنبة، ويدخنان في صمت بعض الوقت .

ثم يقول أندريه يفيميتش :يا داريوشكا، لو أمكن بيرة .ويشربان الزجاجة الأولى أيضاً في صمت يشرب الدكتور مستغرقاً في التفكير، وميخائيل أفيريانيتش في هيئة مرحة متهللة كالشخص الذي لديه قصة مشوقة جداً سيرويها والدكتور هو الذي يبدأ الحديث دائماً .

-مما يؤسف له يقول ببطء وصوت خافت وهو يهز رأسه ولا يتطلع إلى عينى محدثه وهو لا ينظر أبداً في العينين مما يؤسف له أشد الأسف يا ميخائيل أفيريانيتش المحترم، أنه لا يوجد في مدينتنا على الإطلاق أناس يستطيعون ويحبون أن يتحدثوا حديثاً ذكياً شيقاً هذه خسارة كبيرة لنا حتى المثقفون لا يرقون فوق مستوى الوضاعة أؤكد لك أن مستوى رقيهم لا يعلو أبداً على مستوى الطبقة الدنيا .

- صحيح تماماً أنا متفق معك ويستطرد الدكتور بصوت خافت وبتمهل :

-أنت نفسك تعلم أن كل شيء في هذه الدنيا تافه وممل باستثناء أسمى مظاهر العقل الإنساني فالعقل يضع فاصلاًحاداً بين الحيوان والإنسان ملمحاً إلى ألوهية الأخير، وإلى حد ما يعوضه عن الخلود الذي لا وجود له وانطلاقاً من هذا يصبح العقل المصدر الوحيد المتاح للمتعة أما نحن فلا نسمع ولا نرى من حولنا العقل فإذن نحن محرومون من المتعة صحيح أن لدينا كتبا، ولكن ذلك يختلف تماماً عن الحديث الحي والتخاطب وإذا سمحت لى أن ألجأ إلى تشبيه غير موفق تماما فإن الكتب هي النوتة، أما الحديث فهو الغناءصحيح تماما.

ويسود الصمت وتخرج داريوشكا من المطبخ وعلى وجهها تعبير حزن بليد

وتعتمد على قبصتها بوجهها وتقف في الباب لكي تسمعويتنهد ميخائيل أفيريانيتش قائلا: - إيه! أتريد عقلاً من هؤلاء !.

ثم أخذ يتحدث عن أن الحياة في الماضي كانت رائعة ومرحة وشيقة، وكم

كان المثقفون في روسيا أذكياء، وكم كانوا يقدرون تقديراً عالياً مفاهيم الشرف والصداقة كانوا يقرضون النقود دون إيصال، وكان يعد من العار ألا تمد العون الرفيق محتاج وياللرحلات، والمغامرات، والمصادمات، ويا للرفاق ويا للنساء! والقوقاز يا له من بقعة مدهشة !وهناك زوجة قائد إحدى الكتائب، امرأة غريبة، كانت ترتدي زي الضباط وتصعد الجبال في المساء وحدها، دون دليل ويقال إنها كانت على علاقة غرامية بأحد الأمراء الصغار في القرى الجبلية.

فتنهد داريوشكا قائلاً :أيتها السيدة العذراء، الرحمةوكيف كانوا يشربون! كيف كانوا يأكلون وأي ليبراليين جسورين كانواويصغي أندريه يفيميتش إليه ولا يسمع، فهو يفكر في شيء ما ويجرع البيرةويقول فجأة مقاطعا ميخائيل أفيريانيتش

كثيرا ما أرى في الحلم أناساً أذكياء وأنا أتحدث معهم لقد منحنى أبى تعليما ممتازاً، ولكنه، تحت تأثير أفكار الستينيات، أجبرني أن أصبح طبيباً ويخيل إلى أنني لو لم أطاوعه آنذاك لكنت الآن في قلب الحركة الفكرية

وربما كنت منضماًإلى عضوية كلية ما العقل بالطبع شيء غير خالد بل زائل، ولكنك تعلم الآن لماذا أشعر بالميل إليه فالحياة فخ محزن وعندما يحقق الشخص المفكر فرصته ويبلغ وعيه درجة النضج، يحس بنفسه لا إرادياً كأنه قد وقع في فخ لا مهرب منه وبالفعل، فقد جاء إلى الحياة من العدم رغم إرادته بفعل عوامل عارضة فلماذا؟ إنه يريد أن يعرف مغزى وهدف وجوده فلا يقال له، أو تقال له حماقات ويدق الباب فلا يفتح له أحد ويأتيه الموت أيضاً رغم إرادته وهكذا، كمافي السجن،عندما يشعر الأشخاص الذين جمعتهم المأساة المشتركة بنوع من الارتياح عندما يجتمعون معاً، كذلك في الحياة،لا يحس الأشخاص الميالون إلى التحليل والتعميم بوجود الفخ عندما يجتمعون معاً ويقضون الوقت في تبادل الأفكار الحرة الأبيةوبهذا المعنى يعتبر العقل متعة لا بديل لها.

ـ صحيح تماماً.

ويمضي أندريه يفيميتش، دون أن يتطلع في عيني محدثه،في الحديث بصوت خافت مع فواصل صمت عن الأشخاص الأذكياء والحديث معهم، بينما يصغي ميخائيل أفيريانيتش إليه بانتباه ويصدق على ما يقولصحيح تماماً.

وفجأة يسأل مدير البريد:ألا تؤمن بخلود الروح؟كلا، يا ميخائيل أفيريانيتش الموقر، لا أؤمن، وليس لدى سند للإيمان.

-أصارحك بأني أيضاً أشك ومع ذلك فلدى إحساس بأني لن أموت أبداًوأحياناًأقول لنفسي: إيه أيها العجوز لقد حان الوقت لتموتولكن صوتا في داخلى يقول: لا تصدق، لن تموت.

وفي بداية الساعة العاشرة ينصرف ميخائيل أفيريانيتش ويقول وهويرتدي معطفه في المدخل :

-انظر إلى أي ركن مهجور ألقت بنا الأقدار! أكثر ما يحزن أننا سنموتهناإيه!

بعد أن يودع أندريه يفيميتش صديقه يجلس إلى الطاولة ويشرع في القراءة ثانية ولا يعكر صمت المساء ثم بعد ذلك صمت الليل أي صوت، ويبدو

كأن الزمن قد توقف وتسمر مع الدكتور فوق الكتاب، ويبدو كأنما لا يوجد شيء غير هذا الكتاب والمصباح ذي الغطاء الأخضر،وشيئاً فشيئاً يتهلل وجه الدكتور الخشن الفلاحي بابتسامة هيام وإعجاب بحركة العقل الإنساني ويقول لنفسه: أوه، لم لا يكون الإنسان خالدا؟ وما الداعي لمراكز المخ وتجاعيده، ما الداعي للبصر والكلام والإحساس والعبقرية، إذا كان مقدراً لكل هذا أن يواريه التراب ويبرد في النهاية مع قشرة الأرض، ثم يدور بعد ذلك ملايين السنين حول الشمس بلا معنى ولا غاية؟ فلكي يبرد ثم يدور بعد ذلك، لا داعي أبداً لاستخراج الإنسان من العدم بعقله السامي الذي يكاد يكون عقل إله، ثم تحويله بعدها إلى تراب وكأنها سخرية به.

التمثيل الغذائي ولكن باله من جبن أن يعزى المرء نفسه ببديل الخلود هذا! إن العمليات غير الواعية التي تجرى في الطبيعة هي أدنى قدراً حتى من الحماقةالإنسانية، لأن الحماقة فيها مع ذلك وعي وإرادة، بينما ليس في العمليات أدني شيء إن الجبان وحده، والذي لديه من الخوف أمام الموت أكثر مما لديه من الكرامة، هو الذي يمكن أن يعزى نفسه بأن جسده سوف يعيش مع الزمن في العشب والحجر والضفدعة أن يرى المرء خلوده في التمثيل الغذائي هو على نفس القدر من الغرابة مثلما تتنبأ بمستقبل باهر لصندوقالكمان بعد أن تحطم الكمان القيم وأصبح غير صالح للاستعمالوعندما تدق الساعة يضطجع أندريه يفيميتش على ظهر المقعد ويغمض عينيه لكي يفكر قليلاً وعن غير قصد، تحت تأثير الأفكار الجيدة التي قرأها في الكتب، يلقي نظرة على ماضيه وحاضره الماضى كريه، من الأفضل ألا يتذكره والحاضر مثله مثل الماضي فهو يعلم أنه في الوقت الذي تدور أفكاره مع الأرض الباردة حول الشمس، هناك على مقربة من شقته، وفي مبنى المستشفى الرئيسي يعاني أناس تحت وطأة المرض والقذارة الجسدية وربما بينهم من لا ينام الآن وهو يصارع الحشرات، ومن يصاب بالحمرةأو يئن من الضمادة المربوطة بشدة وربما يلعب المرضى الورق مع المربيات ويجرعون الفودكا في التقرير السنوي تم خداع اثنى عشر ألف شخص وكل أمور المستشفى،كما كانت منذ عشرينعاماً، قائمة على السرقة والمشاجرات والأقاويل والمحسوبية،وعلى الشعوذة الفظة،ولا يزال المستشفى.

كما كان، مؤسسة لا أخلاقية وضارة للغاية بصحة النزلاء وهو يعلم أن نيكيتا يضرب المرضى في عنبر رقم ٦ خلف القضبان، وأن مويسيكا يطوف بالمدينة كل يوم ويجمع الصدقاتومن ناحية أخرى فهو يعلمجيداً أنه خلال السنوات الخمس والعشرين الماضية حدث تحول أسطوري في الطب فعندما كان يدرس في الجامعة خيل إليه أن الطب سيؤول عما قريب إلى ما آلت إليه الخيمياء والميتافيزيقا، أما الآن وعندما يقرأ في الليل فإن الطب يهزمه ويثير فيه الدهشة، بل الإعجاب وبالفعل فيا له من رقي غير متوقع، يا لها من ثورة! فبفضل مضادات التقيح تجرى العمليات التي كان بيروجوف العظيم يعتبرها مستحيلة حتىوأطباء الأرياف العاديون يقدمون على إجراء عملية استئصال مفصل الركبة، ومن كل مائة عملية شق الرحم تحدث حالة وفاة واحدة،أما مرض الحصى فيعتبر من التفاهة بحيث إنهم حتى لا يكتبون عنه، وثمة علاج جذري للزهري، ونظرية الوراثة، والتنويم المغناطيسى و اكتشافات باستير وكوخ، والوقاية وطبنا الروسي الريفي؟ إن علم الأمراض النفسية بتقسيمه الحالي للأمراض، وطرق الاكتشاف والعلاج، هو، بالمقارنة مع ما كان في الماضي، جبل كامل المجانين الآن لا يعالجون بصب الماء البارد على رؤوسهم،ولا يلبسونهم قمصان الكتان بل يعاملونهم معاملة إنسانية، بل وكما تكتب الصحف يقيمون لهم التمثيليات والحفلات وأندريه يفيميتش يعرف أنه في ظل الآراء والأذواق الراهنة فإن وضاعة مثل عنبر رقم ٦ لا يمكن أن توجد إلا على بعد مائتي فرسخ من السكة الحديدية

وفي مدينة رئيسها وجميع نواب بلديتها من صغار البرجوازيين أنصاف المتعلمين الذين يرون في الطبيب كاهناً ينبغي تصديقه بلا أي انتقاد حتى لو صب في الفم قصديراً مصهوراً ولو كان هذا في مكان آخر لكان الجمهور والصحافة قد مزقا قلعة الباستيل الصغيرة هذه إربا منذ زمن بعيد الكيمياء القديمة التي لم تكن قائمة على أسس علمية بل على الشعوذة والسحر ويسأل أندريه يفيميتش نفسه وهو يفتح عينيه: ثم ماذا؟ ما الذي تمخض عن هذا؟ حقا هناك مضادات التقيح وكوخ وباستير ولكن جوهر الأمر لم يتغير أبداً فالمرض والموت ظلا كما هما والمجانين يشهدون التمثيليات والحفلات، ومع ذلك لا يطلق سراحهم إذن فكل ذلك هراء وأباطيل وليس هناك في الواقع أي فرق بين عيادة جيدة في فيينا وبين مستشفاى.

ولكن الحزن وإحساساً يشبه الحسد يعوقانه عن أن يكون لامبالياً يبدو أن ذلك من أثر الإرهاق ويميل رأسه المثقل على الكتاب، فيضع يديه تحت وجهه ليجعل منها وسادة لينة، ويفكر :

إني أخدم قضية مضرة وأتقاضى أجراً من الناس الذين أخدعهمأنا غير شريف ولكني في حد ذاتى لست شيئاً، أنا مجرد جزء صغير من الشر الاجتماعي المطلوب: جميع موظفي الأقاليم مضرون ويتقاضون أجورهم عبثاً إذن فلست أنا المذنب في عدم شرفي، بل الزمن لو أني ولدت بعد مائتي عام لكنت شخصاً آخروعندما تدق الساعة الثالثة يطفئ المصباح

ويتجه إلى غرفة النوم ولا يشعربرغبة في النوممنذ حوالي عامين تكرم مجلس الإقليم فقرر تخصيص ثلاثمائة روبل سنوياً كمساعدة لتعزيز الطاقم الطبي في مستشفى المدينة لحين افتتاح مستشفى للإقليم، ودعت المدينة الطبيب الريفى يفجيني فيودوروفيتش خوبونوف لمعاونة أندريه يفيميتش وكان هذا شخصاً شاباً للغاية لم يبلغ الثلاثين بعد أسود الشعر،طويل القامة ذا وجنتين عريضتين وعينين صغيرتين، إذ يبدو أن جدوده كانوا أجانب وقد جاء إلى المدينة خاوي الوفاض، بحقيبة صغيرة وامرأة شابة دميمةيسميها طاهيته ولدى هذه المرأة طفل رضيع ويحمل يفجيني فيودوروفيتشكسكتة وحذاء برقبة، وفي الشتاء معطفاً قصيراً وتوثقت صلته بالحكيم سرجى سرجيتش وبالصراف، أما بقية الموظفين فيسميهم لسبب ما بالأرستقراطيين ويتجنبهم وليس في شقته كلها سوى كتاب واحد هو أحدث وصفات عيادة فيينا لعام ١٨٨١ وعندما يتوجه لزيارة مريض يأخذ معه دائماً هذا الكتاب وفي المساء يلعب البلياردو في النادي، ولا يحب لعب الورق ويهوى في كلامه استخدام كلمات مثل: التسويف، وخزعبلات بالخل، وكفاك مراوغة.

وهو يتردد على المستشفى مرتين في الأسبوع، ويطوف بالعنابر ويستقبل المرضى ويثير سخطه انعدام مضادات التقيح وكاسات الهواء، ولكنه لا يضع نظرا جديدة خوفا من أن يهين بذلك أندريه يفيميتش وهو يعتبر زميله أندريه يفيميتش محتالا عجوزا، ويظن أن لديه أموالاً كثيرة ويحسده في سريرته ويود لو حلمحلهفي إحدى أمسيات الربيع في نهاية مارس، عندما لم يعد هناك ثلج على الأرض، وصدحت في فناء المستشفى الزرازير

خرج الدكتور إلى البوابة ليودع صديقه مدير البريد وفي تلك اللحظة دلف اليهودي مويسيكا إلى الفناء عائداً من جولته كان بلا غطاء رأس، وفي نعل خفيف بدون جورب، ويحمل في يده كيساًصغيراًبه الصدقات.

وقال للطبيب وهو يرتعد من البرد ويبتسم - :أعطنى كوبيكاوأعطاه أندريه يفيميتش الذي لم يكن يستطيع أبداً أن يرفض، عشرةكوبيكات.

وفكر وهو ينظر إلى قدميه العاريتين برسغيها الأحمرين النحيلين: يا له منشىء سيئ إن الأرض رطبةوبدافع هذا الإحساس الذي يشبه الشفقة والتقزز مضى إلى الجناح في أثر اليهودي، وهو ينظر تارة إلى صلعته، وتارة إلى رسغيه وعند دخول الطبيب هب نيكيتا واقفاً من فوق كومة النفايات وشد قامتهوقال أندريه يفيميتش برفق :مرحبا، يا نيكيتا هل يمكن أن تصرف لهذا اليهودي حذاء، يعنى، وإلاأصيب بالبرد.

-حاضر، يا صاحب السعادة سأبلغ المشرفمن فضلك اطلب منه باسمى قل له إنني طلبت ذلك.

كان الباب المفضى من المدخل إلى العنبر مفتوحاً وأصغي إيفان دميتريتش، الذي كان راقداً في السرير وقدهم قليلاً معتمداً على مرفقه إلى الصوت الغريب بقلق، وفجأة عرف فيه الدكتور وارتجف بدنه كله من الغضب، وقفز إلى وسط العنبر بو جه محتقن ساخط وعينين جاحظتين

وصاح الدكتور وصل ثم قهقه أخيراً وصل! أيها السادة أهنئكم، لقد شرفكم الدكتور بزيارته وصرخ بلوعة لم يسبق لأحد في العنبر أن رأى مثلها الوغد الملعون ودق بقدمه فلنقتل هذا الوغد! كلا، القتل قليل عليه فلنغرقه في المرحاضوأطل أندريه يفيميتش، الذي سمع هذا، من المدخل إلى العنبر وسألبرفق :

-ولماذا؟.

فصاح إيفان دميتريتش مقبلاً عليه بوجه متوعد وهو يلتف بالرداء فيعصبية :

-لماذا؟ لماذا؟ - وقال بتقزز وهو يحرك شفتيه وكأنه يريد أن يبصق لأنك

لص محتال جلاد.

فقال أندريه يفيميتش وهو يبتسم بذنب :

-هدئ نفسك أؤكد لك أنني لم أسرق شيئاًأبداً، وفيما عدا ذلك أعتقد أنك تبالغ جداً أنا أرى أنك غاضب منى هدئ نفسك أرجوك إذا كنت تستطيع وخبرنى بهدوء لماذا أنت غاضب منى؟.

-ولماذا تبقيني هنا؟ - لأنك مريض.

-نعم مريض،ولكن عشرات ومئات المجانين ينعمون بالحرية لأن جهلك غير قادر على تمييزهم عن الأصحاء فلماذا ينبغي على أنا وهؤلاء التعساء أننبقى هنا بدلاً من الجميع ككباش الفداء؟ أنت والحكيم والمشرف

وكل أوغادكم في المستشفى أدني من أي واحد منا من الناحية الأخلاقية بما لا يقاس، فلماذا نبقى هنا وأنتم لا؟ أين المنطق؟.

-لا دخل للناحية الأخلاقية والمنطق هنا كل شيء متوقف على الصدفة من وضعوه هنا فسيبقى، ومن لم يضعوه ينعم بالحرية، وهذا كل ما في الأمر ليس هناك أي أخلاق أو منطق في كونى دكتوراًوأنت مريض نفسي بل مجرد صدفة فارغةأنا لا أقبل هذا الهراء قال إيفان دميتريتش بصوت مكتوم وجلس على سريرهأما مويسيكا الذي استحى نيكيتا من تفتيشه في حضرة الدكتور فقد وضع على سريره كسر الخبز والأوراق والعظام التي جمعها، وقال بالعبرية شيئاًمابسرعة وبصورة منغمة يبدو أنه تخيل أنه قد فتح دكاناً

وقال إيفان دميتريتش بصوت متهدج :

-أطلق سراحى لا أستطيعلماذا إذن؟ لماذا؟.

-لأن هذا ليس في سلطتي ثم احكم بنفسك، ما الفائدة التي تجنيها إذا أطلقت سراحك ؟ اذهب سيمسك بك أهل المدينة أو الشرطة ويعيدونك إلى هنافقال إيفان دميتريتش ومسح جبينه نعم، هذا صحيحشيء فظيع! ولكن ماذا أفعل؟ ما العمل؟.

أعجب صوت إيفان دميتريتش ووجهه الشاب الذكي ذو التقلصات أندريه يفيميتش وشعر برغبة في الترويح عن هذا الشاب وتهدئته فجلس بجواره على الفراش.

وفكر ثم قال :

-أنت تسأل ما العمل؟ إن أفضل شيء في وضعك هذا أن تهرب من هنا ولكن ذلك غير مجد للأسف فسوف يمسكون بك عندما يحمي المجتمع نفسه من المجرمين والمرضى النفسيين وعموماً من الأشخاص المتعبين، فإنه لا يمكن التغلب عليه، ولا يبقى لك غير شيء واحد: أن تهدئ نفسك بفكرة أن وجودك هنا ضرورى.

لاأحد بحاجة إليه.

طالما توجد السجون ودور المجاذيب فلابد أن يبقى فيها أحد إن لم تكن أنت فأنا،إن لم أكن أنا فغيرنا انتظر إلى أن ينتهي في المستقبل البعيد وجود السجون ودور المجاذيب، وعندئذ لن تكون هناك قضبان على النوافذ أو أرواب بالطبع سيأتي هذا العهد إن عاجلاً أم آجلاً.

فابتسم إيفان دميتريتش بسخرية، وقال وهو يزر عينيه - :أنت تمزح إن السادة أمثالك وأمثال مساعدك نيكيتا لا يهمهم المستقبلفي شيء، ولكن ثق يا سيدي الكريم أنه سيأتي زمان أفضل! ولتكن كلماتي مبتذلة، فلتضحك منها، ولكن فجر الحياة الجديدة سيهل، وسينتصر الحق وسيحل العيد في شارعنا ! لن أعيش إلى ذلك اليوم، سأنفق، ولكن أحفاد أشخاص غيري سيعيشون إنني أحييهم من كل قلبي وأسعد، أسعد لهم! إلى الأمام! فليرعاكم الله يا أصدقائي.

ونهض إيفان دميتريتش وعيناه تلمعان، ومد يديه نحو النافذة، ومضى يقول بصوت منفعل :

-إنني أباركم من وراء هذه القضبان! يحيى الحق! إنني أسعد.

فقال أندريه يفيميتش الذي بدت له حركات إيفان دميتريتش مسرحية،ولكنها أعجبته جداً في الوقت نفسه :

-أنا لا أرى أي مبرر للسعادة نعم، لن تكون هناك سجون ودور مجاذيب، والحق كا تفضلتم بالقول سوف ينتصر، ولكن جوهر الأمور لن يتغير، وستبقى قوانين الطبيعة كما هي سيظل الناس يمرضون ويهرمون ويموتون كما هو الآن ومهما كانت روعة الفجر الذي سيضيء حياتك فسوف يضعونك في النهاية في تابوت ويلقون بك في الحفرة

الخلود؟ - آه، دعك من هذا.

إنك لا تؤمن ولكنى أؤمن لقد قال شخص ما عند دوستويفسكي أو فولتير إنه لو لم يكن هناك إله لاخترعه الناس أما أنا فأؤمن إيماناً عميقاً بأنه إذا لم يكن هناك خلود فإن العقل البشري العظيم سوف يخترعه إن عاجلاً أم آجلاً.

فقال أندريه يفيميتش وهو يبتسم مستمتعاً.

-أحسنت القول حسن أنك تؤمن بهذا الإيمان يمكن أن تعيش في هناءحتى لو كنت مدفوناً في جدار هل حصلت على تعليم في مكان ما؟.

-نعم، كنت في الجامعة، لكني لم أكمل تعليمى.

-أنت إنسان مفكر ورزين وتستطيع في أي وضع أن تجد السكينة في نفسك

إن التفكير الحر العميق الذي يسعى إلى فهم الحياة، والاحتقار التام لأباطيل الدنيا الحمقاء هما النعمتان اللتان لم يعرف الإنسان شيئاً أسمى منهماً وبوسعك أن تحوزهما حتى لو كنت تعيش وراء ثلاث طبقات من القضبان لقد عاش ديوجين في برميل لكنه كان أسعد من كل قياصرة العالم.

فقال إيفان دميتريتش متجهما

ـ ديوجينك هذا كان أحمق لماذا تحدثني عن ديوجين وعن فهمالحياة؟قال فجأة بغضب وقفز واقفاًإنني أحب الحياة، أحبها بشوق ! وعندي عقدة الاضطهاد، خوف مستمر معذب، ولكن تمر بى لحظات ينتابني فيها ظمأ للحياة، وعندها أخشى أن أجنكم أود أن أعيش، أوه كم أود.

وتمشي في العنبر بانفعال، وقال وقد خفض صوته - :عندما أحلم تزورني الأشباح يأتيني أناس ما، وأسمع أصواتا وموسيقى،ويخيل إلى أنني أتريض في غابات ما أو على شاطئ البحر، ويجتاحني شوق جارف إلى الزحام والمشاغل وسأل إيفان دميتريتش خبرني ماذا هناك من جديد؟ ماذا هناك؟.

أتريد أن تعرف أخبار المدينة أم بشكل عام؟ حسناً، حدثني في البداية عن المدينة، وبعد ذلك بشكل عام.

-حسنا الحياة في المدينة مملة إلى حد العذاب لاتجد من تتبادل معه كلمةولا من تسمعه ليس هناك أشخاص جدد ولكن جاءنا منذ فترة قريبة الطبيب الشاب خوبوتوفلقد جاء عندما كنت هناك ماذا، أهو وقح ؟ -نعم، شخص غير مهذب شيء غريب أتدرى الدلائل كلها تشير إلىأنه ليس هناك ركود ذهني في عواصمنا، وإذن فينبغي أن يكون هناك أناسحقيقيون، ولكن لسبب ما يرسلون إلينا كل مرة من هناك أناساً تود ألا تراهميا لها من مدينة تعيسة !

فتنهد إيفان دميتريتش وضحك قائلاً :

-نعم، مدينة تعيسة! وكيف الحال بشكل عام؟ عم تكتب الصحفوالمجلات؟كان الظلام قد خيم على العنبر ونهض الدكتور وراح يتحدث واقفاً عما يكتب في الخارج وفي روسيا وعن الاتجاه الفكرى الملاحظ الآن وأصغي إيفان دميتريتش بانتباه ووجه إليه بعض الأسئلة، ولكنه أمسك برأسه فجأة وكأنه تذكر شيئاً فظيعاً، وتمدد في السرير مولياً ظهره للدكتور.

وسأل أندريه يفيميتش :ماذا بك؟ فقال إيفان دميتريتش بغلظة: لن تسمع منى بعد كلمة واحدة دعني.

لماذا؟.أقول لك دعني ما لك بي؟

فهز أندريه يفيميتش كتفيه وتنهد ثم خرج وقال وهو يجتاز المدخل: لو أمكن تنظيف المكان يا نيكيتا الرائحة هنا فظيعةحاضر، يا صاحب السعادة.

وفكر أندريه يفيميتش في طريق عودته إلى الشقة: يا له من شاب لطيف! طول فترة وجودي هنا يبدو أنه أول إنسان يمكن أن نتحدث معه إنه يجيد النقاش ويهتم بها ينبغي الاهتمام به.

وبينما كان يقرأ، ثم وهو يأوي للفراش بعد ذلك ظل يفكر طوال الوقت فيإيفان دميتريتش، وعندما استيقظفيصباح اليوم التالي، تذكر أنه تعرف بالأمس على شخص ذكى ممتع، فقرر أن يزوره مرة أخرى في أول فرصة ممكنةكان إيفان دميتريتش راقداً في نفس الوضع الذي كان عليه بالأمس، وقدطوق رأسه بذراعيه وثنى ساقيه ولم يكن وجهه ظاهراً وقال أندريه يفيميتش :مرحباً، يا صديقى ألست نائماً؟ فقال إيفان دميتريتش في الوسادة :

أولاً أنا لست صديقك وثانياً عبثاً تتعب نفسك: لن تحصل مني علىكلمة واحدةفدمدم أندريه يفيميتش في ارتباك : غريبةبالأمس تحدثنا في سلام، ولكنك غضبت فجأة لسبب ما وقطعت الحديث ربما أكون قد أسأت التعبير، أو ربما أكون قد أعربت عن فكرة لا تتفق مع معتقداتكأتظن أنني أصدقك هكذا ببساطة قال إيفان دميتريتش وهو ينهض ويتطلع إلى الدكتور بسخرية وقلق وكانت عيناه حمراوين بوسعك أن تتجسس وتستطلع في مكان آخر، أما هنا فليس لديك ما تفعله لقد أدركت بالأمس سبب مجيئكوضحك الدكتور وقال :يا له من خيال غريب! إذن فأنت تعتقد أنني جاسوس؟.

-نعم أعتقد جاسوس أم دكتور وضعوني عنده للاختبار، الأمر سيانآه يا لك من عفواً غريب الأطوار وجلس الدكتور على مقعد خشبي بجوار السرير وهز رأسه مؤنباً، وقال :- حسناً، لنفرض أنك على حق لنفرض أنني أحاول غدراً أن أوقع بك لتسليمك للشرطة سيقبضون عليك ويحاكمونك بعد ذلك ولكن هل سيكون وضعك في المحكمة وفي السجن أسوأ من هنا؟ ولو نفوك أو حتى حكموا عليك بالأشغال الشاقة، فهل سيكون ذلك أسوأ من بقائك هنا في هذا الجناح؟ أعتقد أنه ليس أسوأ فمم تخاف إذن؟.

ويبدو أن هذه الكلمات أثرت على إيفان دميتريتش، فجلس بهدوءكانت الساعة الخامسة مساء، وهو الوقت الذي يتجول فيه أندريه يفيميتش عادة في غرف شقته بينما تسأله داريوشكا عما إذا كان الوقت قد حان لتقديم البيرة وكان الجو في الخارج هادئاً وصحواً وقال الدكتور - :خرجت بعد الغداء لأمشي، وعرجت عليك كما ترىالربيع قد حلتماماً.

فسأل إيفان دميتريتش :في أي شهر نحن الآن؟ مارس؟نعم، نهاية مارسالأرض قذرة في الخارج؟كلا، ليس إلى هذا الحد الحديقة بها دروب الآن فقال إيفان دميتريتش وهو يفرك عينيه كأنما استيقظ لتوه :

ما أجمل أن تركب الآن عربة وتتجول في المدينة، ثم تعود إلى البيت، إلى غرفة مكتب دافئة ومريحة وتعالج لدى طبيب جيد من الصداع منذ فترة طويلة لمأعش عيشة إنسانية

أما هنا فالحال مقزز مقزز بصورة لا تحتمل. كان متعباً وخائر القوى بعد ثورة الأمس، وغير راغب في الكلام وكانتأصابعه ترتعش، وبدا واضحاً على وجهه أنه يعاني من صداع شديدفقال أندريه يفيميتش :

-ليس هناك أي فرق بين غرفة المكتب الدافئة المريحة وهذا العنبر إن سكينة

الإنسان ورضاه ليست خارجه، بل في داخله<

-ماذا تقصد؟.

-الإنسان العادي ينتظر الأمور الطيبة أو السيئة من الخارج، أي من العربةوغرفة المكتب، أما الإنسان المفكر فينتظرها من داخل نفسه.

ذهب وبشر بهذه الفلسفة في اليونان، حيث الجو دافي وتفوح منه رائحة الفارنج، أما هنا فهي لا تلائم الجو مع من تحدثت عن ديوجين؟ أظنمعك؟.

-نعم، معي بالأمس

-لم يكن ديوجين بحاجة إلى غرفة مكتب وبيت دافئ، فالجو هناك حار فلتجلس في البرميل، وكل برتقالاً وزيتوناً أما لو قدر له أن يعيش في روسيا للجأ إلى الغرفة لا في ديسمبر بل في مايو ولتجمدت أطرافه من البرد.

كلا البرد، مثله عموماً مثل أي ألم، يمكنك ألا تحس به لقد قال مرقس أوريليوس: أليس الألم سوى تصور حى عن الألم فلتبذل مجهوداً إرادياً لكي تغير هذا التصور، ولتطرحه عنك،ولتكف عن الشكوى، وسيختفى الألم

وهذا حق فالحكيم، أو ببساطة الشخص المفكر الحصيف يتميز بأنه يحتقر المعاناة إنهدائماً راض ولا يدهشه شيء

-إذن فأنا أبله، لأني أعانى، وغير راض، وتدهشني الخسة البشرية .

-عبثا تقول ذلك فلو أنك أمعنت التفكير لأدركت مدى تفاهة كل تلك الأشياء الخارجية التي تقلقنا ينبغي أن نسعى إلى فهم الحياة، ففيه النعمة الحقيقية.

وامتعض إيفان دميتريتش قائلاً :

-فهم الحياة الخارجي والداخلي عفواً، أنا لا أفهم هذا ثم نهض وقال وهو ينظر إلى الدكتور بغضب أنا لا أعرف سوى أن الله خلقني من دم دافئ وأعصاب، نعموالنسيج العضوى، إذا كان قادراً على الحياة، ينبغي أن يستجيب لكل مؤثر وأنا أستجيب! أرد على الألم بالصراخ والدموع، وعلى الخسة بالسخط وعلى الدناءة بالتقزز وأعتقد أن ذلك هو ما يسمى بالحياة وكلما كان الجسم أدنى مستوى، قلت حساسيته وضعفت استجابته للمؤثرات، وكلما ارتفع مستواه ازدادت حساسيته للواقع كيف لا تعرف هذا؟ دكتور ولا يعرف هذه الأمور التافهة لكي تحتقر المعاناة وتكون راضياً على الدوام ولا يدهشك شيء ينبغى أن تتردى إلى هذا المستوى وأشار إيفان دميتريتش إلى الفلاح البدين الذي غطاه الشحم أو أن تحصن نفسك بالألم إلى درجة أن تفقد أي إحساس به، أي بعبارة أخرى، أن تكف عن الحياة

ومضى إيفان دميتريتش يقول بعصبية عفواً أنا لست حكيماًولا فيلسوفاً، ولا أفقه شيئاً في ذلك أنا لست قادراً على المناقشة.

-بالعكس، أنت تناقش بشكل رائع.

-إن الرواقيين الذين تحاكيهم كانوا ممتازين، ولكن تعاليمهم تحجرت منذ ألفي سنة، ولم تتقدم خطوة واحدة إلى الأمام ولن تتقدم،لأنها ليست عملية ولا حيوية ولم تلق رواجاًسوى لدى الأقلية التي تنفق حياتها في حفظ ولوك مختلف التعاليم، أما الأغلبية فلم تفهمها إن التعاليم التي تدعو إلى تجاهل الثروة وملذات الحياة،واحتقار الآلام والموت ليست مفهومة أبداً للغالبية الساحقة، لأن الغالبية لم تعرف قط لا الثروة ولا ملذات الحياة أما احتقار الآلام فيعنيبالنسبة لها احتقار الحياة نفسها، لأن جوهر الإنسان كله يقوم على أحاسيس الجوع والبرد والإهانات والخسائر والخوف الهاملتي من الموت الحياة كلها في هذه الأحاسيس يمكنك أن تشقى بالحياة، وتمقتها، ولكن لا تحتقرها نعم، هكذا، أكرر، إن تعاليم الرواقيين لن يكون لها مستقبل أبداً، أما التقدم فهو كما نرى، منذ مطلع القرن حتى اليوم، من نصيب الصراع، ورهافة الإحساس بالألم، والقدرة على الاستجابة للمؤثراتوفجأة فقد إيفان دميتريتش حبل أفكاره فتوقف، وفرك جبينه بأسى،وقال :

-أردت أن أقول شيئاً مهماً، ولكني شردت عم كنت أتحدث؟ آه، نعم! إنني أقول إذن إن واحداً من الرواقيين قد باع نفسه وأصبح عبداً لكي يحرر أحد الأقربين أرأيت، ها هو ذا رواقي قد استجاب للمؤثر

لأن مثل هذا العمل الشهم، وهو أن تقضى على نفسك من أجل شخص قريب، يتطلب روحاً مغضبة عطوفاً لقد نسيت هنا في السجن كل ما درسته، وإلا لتذكرت أمثلة أخرى وخذ عندك المسيح لقد كان يستجيب للواقع بأن يبكى ويبتسم ويحزن ويغضب، بل كان يستوحش ولم يمض للقاء الآلام بابتسامة ولم يحتقر الموت، بل صلى في حديقة جنساني لكي يعبر عنه هذي الكأسوضحك إيفان دميتريتش ثم جلس وقال :

لنفرض أن سكينة الإنسان ورضاه ليسا خارجه بل في داخله، ولنفرض أنه ينبغي احتقار الآلام وعدم الاندهاش لشيء ولكن، على أساس تدعو أنت لذلك؟ هل أنت حكيم؟ فيلسوف؟.

-كلا، لست فيلسوفاً، ولكن كل إنسان ينبغي أن يدعو لذلك لأنهصواب.

-لا فخبرني لماذا تعتبر نفسك خبيرا في مسألة فهم الحياة واحتقار الآلاموما إلى ذلك؟هل تألمت في حياتك؟ هل تفهم ما هي الآلام؟ اسمح لى: هل ضربت في طفولتك؟.

-كلا، كان والداى بنفران من العقاب الجسدي.

-أما أنا فكان أبي يضربني بقسوة، كان أبي موظفاً حاد الطبع، مصاباًبالبواسير، ذا أنف كبير ورقبة صفراء ولكن دعنا نتحدث عنك طوال حياتك كلها لم يمسسك أحد بإصبعه، ولم يرهبك أحد أو يقهرك وأنت صحيح كالثور

وقد تربيت في كنف أبيك وتعلمت على حسابه، وبعد ذلك حصلت فوراً على وظيفة مريحة وعشت أكثر من عشرين سنة بالمجان في شقة بالتدفئة والنور والخدم وتملك الحق في أن تعمل بقدر ما تريد وكيفما تريد، حتى لو لم تعمل شيئاً وأنت بطبيعتك شخص كسول، رخو، لذلك سعيت إلى تدبير حياتك بحيث لا يزعجك شيء ولا يحركك من مكانك وقد سلمت الأمور للحكيم وبقية الأوغاد بينما جلست في الدفء والسكون، تدخل النقود وتطالع الكتب وتمتع نفسك بالتفكير في مختلف ألوان الهراء السامي ثم نظر إيفان دميتريتش إلى أنف الدكتور الأحمر وبالشراب وباختصار أنت لم تر الحياة ولا تعرفها على الإطلاق، ولست مطلعاً على الواقع إلا من الجانب النظري وأنت تحتقر الآلام ولا يدهشك شيء لسبب بسيط للغاية، فالقول: هذا باطل الأباطيل، والاحتقار الداخلي والخارجي للحياة والآلام وللموت، وفهم الحياة، والنعمة الحقيقية كل ذلك هو أنسب فلسفة للتنبل الروسى أنت مثلاً ترى فلاحاًيضرب زوجته، فلماذا تتدخل؟ دعه يضربها، فكلاهما على أي حال سيموتان عاجلاً أم آجلاً زدعلى ذلك أن الضارب لا يهين بضربه الشخص المضروب بل نفسه والسكر عمل أحمق، غير لائق، ولكن سواء شربت أم لم تشرب فسوف تموت وتأتي إليك امرأة تشكو ألماً في أسنانها وماذا في ذلك؟ الألم ليس إلا تصوراً عن الألم، وعلاوة على ذلك لا يمكنك أن تعيش في هذه الدنيا دون أمراض، وكلنا سنموت، ولذلك انصرفي أيتها المرأة، لا تعطليني عن التفكير وشرب الفودكا ويسألك النصح شاب فيما ينبغي عليه أن يفعل وكيف يعيش ولو سأل شخصاً آخر لفكر قبلأن يجيب

أما هنا فالجواب حاضر: اسع لفهم الحياة أو للنعمة الحقيقيةولكن ما هي هذه النعمة الحقيقية الخيالية؟ بالطبع ليس هناك جواب ويحتفظون بنا هنا وراء القضبان لنعفن ويعذبوننا، ولكن ذلك رائع ومعقول لأنه ليس هناك أي فرق بين هذا العنبر وغرفة المكتب الدافئة المريحة هذه فلسفة مريحة: لا تفعل شيئاً بينما ضميرك مستريح وتحس بنفسك حكيماً كلاً يا سيدى، هذه ليست فلسفة، وليس تفكيراً، ولا سعة أفق، بل كسل، وزهد وأضغاث أحلام نعموعاود الغضب إيفان دميتريتش من جديد إنك تحتقر الآلام، ولكن لو أن إصبعك انحشرت في الباب فلربما صرخت بأعلى صوتك.

فقال أندريه يفيميتش وهو يبتسم بوداعة - :وربما لا أصرخكيف لا؟ أما لو أصابك الشلل، أو لنفرض أن أحد الحمقى الوقحين أهانك علناًمستغلاً مركزه ورتبته وأنت تعرف أنه لن يعاقب على ذلك، لأدركت عندئذ ما معنى أن ترسل الآخرين إلى فهم الحياة وإلى النعمة الحقيقيةفقال أندريه يفيميتش وهو يضحك من المتعة ويفرك يديه :

-هذا طريف إن ما يذهلني فيك هو قدرتك على التعميم، أما الصورة التي تفضلت من توك برسمها لشخصى فهى، ببساطة، باهرة، أصارحك بأن الحديث معك يحمل لي متعة فائقة حسناً، لقد استمعت إليك، فلتتكرم الآن بالاستماع إلى.استمر هذا الحديث حوالي ساعة أخرى، وترك في نفس أندريه يفيميتش، على ما يبدو، أثراً عميقاً وأصبح يتردد على العنبر كل يوم كان يأتي في الصباح، وبعد الغداء، وكثيراً ما كانت ظلمة المساء تحل

وهو يتحدث مع إيفان دميتريتش. وفي البداية كان إيفان دميتريتش ينفر منه ويرتاب في سوء قصده، ويعرب بصورةسافرة عن نفوره، ولكنه تعود عليه فيما بعد، وبدل معاملته الحادة له إلى نبرة متعاليةساخرة.

وسرعان ما سرت في المستشفى شائعة بأن الدكتور أندريه يفيميتش أصبح يتردد على عنبر رقم ٦ ولم يستطع أحد لا الحكيم، ولا نيكيتا، ولا المربيات، أن يفهم السر وراء ذهابه إلى هناك، ولماذا يجلس ساعات طوال يتحدث في أشياء ما، ولماذا لا يكتب روشتات وبدت تصرفاته غريبة وكثيراً ما كان ميخائيل أفيريانيتش لا يجده في البيت، الأمر الذي لم يحدث من قبل أبداً، وكانت داريوشكا في غاية الارتباك لأن الدكتور لم يعد يشرب البيرة في مواعيد محددة، بل كان أحياناً يتأخر عن الغداء

وذات مرة، وكان ذلك في أواخر يونيو، ذهب الدكتور خوبوتوف إلى أندريه يفيميتش في أمر ما ولما لم يجده في المنزل مضى ليبحث عنه في الفناء وهناك قيل له إن الدكتور العجوز ذهب إلى المرضى النفسيين ودلف خوبوتوف إلى الجناح وتوقف في المدخل فسمع الحديث التالي :

-لن نتفق أبداً، ولن تستطيع أن تحولني إلى دينك قال إيفان دميتريتش بعصبية أنت لا تعرف الواقع مطلقاً، ولم تتألم قط، بل كنت كالعلقة تعيش على آلام الآخرين أما أنا فتألمت باستمرار، من مولدي حتى يومنا هذا لذلك أقول لك بصراحة: إنى أعتبر نفسي أعلى منك وأكثر خبرة من جميع النواحى لست أنت من يعلمني.

فقال أندريه يفيميتش بصوت خافت و بأسى لعدم الرغبة في فهمه :

أنا لا أسعى أبداً إلى تحويلك إلى دينى وليست تلك هي المسألة يا صديقي ليست المسألة أنك تألمت وأنا لم أتألم فالآلام والأفراح أشياء زائلة، دعنا منها، لها الله ولكن المسألة أننا، أنا وأنت، نفكر نحن نرى في بعضنا أناساً قادرين على التفكير والمناقشة، وهذا ما يجعلنا متضامنين مهما كانت آراؤنا مختلفة آه، لوتدرى يا صديقى كم مللت الجنون العام وانعدام المواهب والغباء، وكم أسعد في كل مرة بالحديث معك! أنت رجل ذكي وأنا أستمتع بك.

وفتح خوبوتوف الباب قليلا وأطل برأسه في العنبر كان إيفان دميتريتش بطرطوره والدكتور أندريه يفيميتش جالسين على السرير متجاورين وكان المجنون يقلص وجهه وينتفض ويلف نفسه في الروب بعصبية، بينما جلس الدكتور بلا حراك وقد نكس رأسه، ووجهه محتقن عاجز حزين وهز خوبونوف كتفيه وضحك بسخرية، وتبادل النظرات مع نيكيتا، فهز هذا أيضاً كتفيه.

وفي اليوم التالى جاء خوبوتوف إلى الجناح مع الحكيم ووقفا كلاهما فيالمدخل يسترقان السمعوقال خوبونوف وهما يغادران الجناح - :يبدو أن شيخنا خرف تماماً !.

فتنهد سرجى سرجينتش الجليل وهو يتحاشى البرك الصغيرة بعناية حتى لا يلوث حذاءه النظيف اللامع :

رحماك يا ربى، اغفر لنا ذنوبنا؟ أصارحك يا يفجيني فيودوروفيتش المحترم

أنني كنت أتوقع ذلك من زمان.

أصبح أندريه يفيميتش بعد ذلك يلاحظ من حوله جواً من الغموض والأسرار فعندما كان خدم المستشفى والمربيات والمرضى يقابلونه، كانوا يتطلعون إليه بتساؤل ثم يتهامسون أما الطفلة ماشا، ابنة المشرف، التي كان يحب لقاءها في حديقة المستشفى، فقد أصبحت الآن لسبب ما تهرب منه عندما يقترب منها مبتسماً لكي يمسد شعرها ولم يعد مدير البريد ميخائيل أفيريانيتش وهو يصغي إليه يقول صحيح تماماً، بل كان يدمدم بارتباك غير مفهومنعم،نعم، نعمويتطلع إليه بتفكير وأسي ولسبب ما راح ينصح صديقه أن يهجر الفودكا والبيرة، ولكنه، كشخص مهذب، لم يكن يقول ذلك مباشرة، بل ملمحاً، وهو يحدثه تارة عن قائد كتيبة، رجل ممتاز، وتارة عن قسيس فوج، وهو شاب رائع، كان يقبلان على الشراب فمرضا، ولكنهما شفيا تماماً بعد أن تركا الشراب وجاء إلى أندريه يفيميتش زميله الدكتور خوبوتوف مرتين أو ثلاث، ونصحه هو أيضاً أن يترك عنه المشروبات الكحولية، وبدون أي مبرر واضح أوصاه بتناول البوتاسيوم مع البروم.

وفي أغسطس تلقي أندريه يفيميتش من رئيس المدينة رسالة يرجوه فيها الحضور لأمر مهم للغاية وعندما وصل أندريه يفيميتش في الوقت المحدد إلى مبنى الإدارة وجد هناك قائد الحامية، والمشرف على مدرسة المركز، وعضو مجلس الإدارة وخوبوتوف وسيداً بديناً أشقر، قدموه إليه على أنه دكتور وكان هذا الدكتور، الذي يحمل كنية بولندية صعبة النطق يعيش على بعد ثلاثين فرسخاً من المدينة، في مزرعة لتربية الخيول، وكان الآن ماراً في طريقه بالمدينةوقال عضو مجلس الإدارة مخاطباً أندريه يفيميتش بعد أن سلم الجميعوجلسوا إلى الطاولة :

-هنا طلب يخصك يقال يا يفجيني فيودور فيتش أن مكان الصيدلية في المبنى الرئيسيضيق، وينبغي نقلها إلى أحد الأجنحة وهذا طبعاً أمر ممكن، ولكن السبب الرئيسي أن الجناح سيحتاج إلى تصليح.

فقال أندريه يفيميتش بعد تفكير قصير :

نعم، الأمر لن يخلو من التصليح فإذا أخذنا الجناح الركنى للأجزاخانة فأعتقد أن ذلك سيحتاج إلى خمسمائةنفقات غير منتجةوصمتوا قليلاً واستطرد أندريه يفيمتش بصوت خافت :

لقد تشرفت منذ عشر سنوات برفعتقرير، بأن المستشفى بحالته الراهنة يعتبر بالنسبة للمدينة ترفاًأكبر من إمكاناتها وقد شيد في الأربعينيات

ولكن الأموال كانت آنذاك غيرها الآن إن المدينة تنفق أكثر من اللازم على المباني غير الضرورية والوظائف الزائدة وأعتقد أنه بهذه الأموال يمكن، في ظل نظم أخرى، الإنفاق على مستشفيين نموذجيين.

فقال عضو مجلس الإدارة بحيوية: - إذن هيا رتب نظما أخربلقد تشرفت برفع تقرير عن ذلك، واقترحت وضع الناحية العلاجية تحتإشراف مجلس الإقليمفضحك الطبيب الأشقر وقالنعم، أعطوا مجلس الإقليم النقود وسوف يسرقها فأمن عضو مجلس الإدارة على قوله وضحك أيضاًهذا ما يحدث فعلاً ونظر أندريه بتراخ واكتئاب إلى الدكتور الأشقر وقال: ينبغي أن نكون منصفينوصمتوا ثانية وجيء بالشاي ومد قائد الحامية يده عبر الطاولة، وهومرتبك لسبب ما، ولمس يد أندريه يفيميتش وقال:

-لقد نسيتنا تماماً يا دكتور وعموماً فأنت راهب ؛ لا تلعب الورق، ولاتهوى النساء إنك تشعر معنا بالمللوتحدث الجميع عن الملل الذي يشعر به ساكن هذه المدينة المحترم فليس هناك مسرح أو موسيقى، وفي آخر حفلة رقص في النادي كان هناك حوالي عشرينسيدة ومراقصان اثنان فقط والشبان لا يرقصون، بل يتزاحمون طوال الوقت قرب البوفيه أو يلعبون الورق وبدأ أندريه يفيميتش يتحدث ببطء وبصوت خافت دون أن يتطلع إلى أحد عنالأسف، والأسف العميق من أن أهالى المدينة يبددون طاقاتهم الحيوية وقلوبهم وعقولهم في لعب الورق وتناقل الشائعات ولا يستطيعون ولا يريدون أن يقضوا وقتهم في الحديث الممتع والقراءة

ولا يريدون استغلال المتع التي يوفرها العقل العقل وحده هو الطريف والرائع، أما غير ذلك فضحل ومنحط وأصغي خوبوتوف بانتباه إلى زميله ثم سأله بغتة :

-في أي يوم من الشهر نحن الآن يا أندريه يفيميتش؟.

وبعد أن سمع الإجابة، أخذ هو والدكتور الأشقر يسألان أندريه يفيميتش بنبرة الممتحن الذي يشعر بعجزه: أي أيام الأسبوع اليوم، وكم عدد أيام السنة وهل صحيح أنه يوجد نبي رائع في عنبر رقم ٦

ورد أندريه يفيميتش على السؤال الأخير متضرجاً نعم، إنه مريض، ولكنه شاب طريفولم يوجهوا إليه أية أسئلة أخرى.

وعندما كان يرتدي معطفه في المدخل وضع قائد الحامية يده على كتفه وقال

متنهدا : آن لنا نحن الشيوخ أن نستريح !.

عندما خرج أندريه يفيميتش من مبنى الإدارة أدرك أنها كانت لجنة معينة للكشف على قواه العقلية وتذكر الأسئلة التي وجهوها إليه فتضرج وجهه، ولسبب ما شعر الآن، ولأول مرة في حياته، بالأسى المر على الطبوفكر وهو يتذكر كيف فحصه الأطباء لتوه: يا إلهي، إنهم منذ فترة قريبة جداً درسوا علم الأمراض النفسية، وأدوا فيه الامتحانات، فمن أين هذا الجهل المطبق؟ إنهم لا يعرفون شيئاً عن علم الأمراض النفسية.

ولأول مرة في حياته أحس بالمهانة والغضبوفي مساء نفس اليوم زاره ميخائيل أفيريانيتش اقترب منه مدير البريد دونأن يحييه وأمسك بكلتا يديه، وقال بصوت منفعل :

-يا صديقي العزيز، برهن على أنك تثق في صدق شعورى نحوك وتعتبرني صديقك يا صديقى ومضى يقول بانفعال دون أن يعطي فرصة لأندريه يفيميتش إنني أحبك لثقافتك ونبل روحك فلتسمعنى يا عزيزى إن قواعد العلم توجب على الأطباء أن يخفوا عنك الحقيقة، ولكني، كعسكرى أقول الحقيقة دون مواربة: أنت مريض اعذرني يا عزيزى، ولكنها حقيقة، وقد لاحظ ذلك كل من حولك منذ فترة طويلة وقال لى الآن الدكتور يفجيني فيودوروفيتش إنك بحاجة إلى الراحة والترويح من أجل صحتك صحيح تماماً رائع بعد أيام سآخذ إجازة وأسافر لكي أستنشق هواء آخر أثبت لي أنك صديق، ولنسافر معاً فلنرحل وننفض عنا الشيخوخةفقال أندريه يفيميتش بعد تفكير :

-أنا أشعر بنفسي في صحة تامة ولا أستطيع أن أسافر ولتسمح لى أن أعرب لك بصورة أخرى عن صداقتى.

-أن يسافر إلى مكان ما، ولغرض غير معروف، بدون كتب، بدون داريوشكا، بدون البيرة، ويغير تغييراً حاداً نظام الحياة المستقر منذ عشرين سنة، هذه الفكرة بدت لأندريه يفيميتش للوهلة الأولى غريبة وخيالية

ولكنه تذكر الحديث الذي دار في مبنى الإدارة والمزاج المقبض الذي أحس به وهو عائد من مبنى الإدارة إلى البيت،فداعبته فكرة الرحيل لفترة قصيرة عن هذه المدينة التي يعتبره الأغبياء فيها مجنوناً وسأل :ولكن إلى أين تنوي السفر؟.

-إلى موسكو، وبطرسبرج، ووارسو لقد قضيت في وارسو خمس سنواتمن أسعد سنوات عمري يا لها من مدينة مدهشة! فلنسافر يا عزيزيبعد أسبوع عرضوا على أندريه يفيميتش أن يستريح، أي أن يقدم استقالته، فاستقبل ذلك بلا مبالاة، وبعد أسبوع آخر كان هو وميخائيل أفيريانيتش جالسين في عربة بريد متوجهين إلى أقرب محطة قطار كانت الأيام باردة صافية والسماء زرقاء والأفق شفافاً وقطعا مسافة المائتي فرسخ التي تفصلها عن المحطة في يومين، وباتا ليلتين في الطريق وعندما كانوا يقدمون لها في محطات البريد أكواباً للشاي غير مغسولة جيداً أو يتأخرون في تسريج الجياد، كان ميخائيل أفيريانيتش يحمر، ويهتز بدنه كله ويصيح: اخرس ممنوع الكلام وعندما يجلس في العربة كان لا يكف دقيقة واحدة عن الحديث حول رحلاته إلى القوقاز والمملكة البولندية كم خاض من مغامرات، ويا للقاءات كان يتحدث بصوت عال وينظر بعينين مدهوشتين بحيث كان من الممكن الظن بأنه يكذب وعلاوة على ذلك فقد كان، وهو يتحدث، يزفر في وجه أندريه يفيميتش ويقهقه في أذنه وكان يضايق الدكتور ويعوقه عن التفكير والتركيزومن باب التوفير سافرا في الدرجة الثالثة في القطار، في عربة لغير المدخنين وكان نصف الركاب نظيفين

وسرعان ما تعرف ميخائيل أفيريانيتش بالجميع، وراح يتنقل من مقعد لآخر وهو يتحدث بصوت عال عن أنه لا ينبغي السفر في هذه الطرق المحنقة، الجميع من حولك محتالون! ولكن السفر على ظهر جواد شيء آخر تقطع في اليوم مائة فرسخ وبعدها تحس بأنك صحيح ومنتعش أما قلة المحاصيل لدينا فسببها تجفيف مستنقعات بينسك وعموماً فالفوضى رهيبة كان يثور ويتحدث بصوت عال ولا يعطى للآخرين فرصة للكلام وقد أرهقت هذه الثرثرة اللانهائية والمقترنة بالضحك العالى والحركات المعبرة أندريه يفيميتش. وفكر بأسى: أينا المجنون يا ترى؟ أنا، الذي أحاول ألا أسبب أي إزعاجللركاب، أم هذا الأناني الذي يعتقد أنه أذكى وأطرف الجميع هنا، ولذلك يزعج الجميع؟.

وفي موسكو ارتدى ميخائيل أفيريانيتش سترة عسكرية بدون شارات الرتبة وسروالاً بشرائط حمراء وكان يسير في الشوارع في عمرة عسكرية ومعطف فكان الجنود يؤدون له التحية العسكرية وبدا لأندريه يفيميتش الآن أنه شخص قدبدد من أصله النبيل الذي كان له في وقت ما كل ما هو طيب ولم يبق لنفسه إلا ما هو سيئ فقط كان يحب أن يحتفى به حتى عندما لم يكن ثمة داع لذلك على الإطلاق إذ يكون الكبريت موضوعاً أمامه على الطاولة، وهو يراه ولكنه يصيح بالخادم لكي يقدم له كبريتاً ولم يكن يخجل من السير أمام عاملة الفندق بملابسهالداخلية، وينادي جميع الخدم دون تفرقة حتى كبار السن منهم ب أنت، وعندما يغضب يدعوهم بالحمقى والبلهاء وخيل لأندريه يفيميتش أن ذلك كان من طباع السادة

ولكنه شيء مقززوقبل كل شيء قاد ميخائيل أفيريانيتش صديقه إلى كنيسة إيفير وصلىبحرارة وهو يركع حتى الأرض وعيناه تدمعان، وعندما فرغ من الصلاة تنفس الصعداء وقال :

-عندما تصلى، حتى لو لم تكن مؤمناً، تشعر براحة أكثر هيا قبليا عزيزى.

وارتبك أندريه يفيميتش وقبل الأيقونة، أما ميخائيل أفيريانيتش فقد مط شفتيه وأخذ يصلى هامساً ورأسه يتمايل، واغرورقت عيناه بالدموع ثانية ثم توجها إلى الكريملين وشاهدا هناك ملك المدافع وملك الأجراس بل وتحسساهما بأصابعهما، ومليا النظر من منظر ما وراء نهر موسكو، وزارا معبد المخلص ومتحف روميانتسفوتناولا الغداء في مطعم تيستوف وحدق ميخائيل أفيريانيتش طويلاًفي قائمة الطعام وهو يمسد فوديه وقال بنبرة الذواقة الذي تعود أن يشعر بنفسهفي المطاعم وكأنه في بيته :

فلنر ماذا ستطعمنا اليوم يا همام ان الدكتور يمشي ويتفرج ويأكل ويشرب، ولكنه لم يكن يحس إلا بشيء واحد، هو الأسى من ميخائيل أفيريانيتش وود لو يرتاح من صديقه ويبتعد عنه ويختفي، ولكن الصديق اعتبر من واجبه ألا يتركه يبتعد عنه خطوة، وأن يهيئ له أكبر ما يمكن من المتع وعندما لم يكن هناك ما يشاهد، كان يسليه بالأحاديث وصبر أندريه يفيميتش على ذلك يومين، وفي اليوم الثالث أخبر صديقه أنه مريض ويريد أن يبقى في البيت طول اليوم فقال الصديق إنه في هذه الحالة سيبقى هو أيضاً

وبالفعل ينبغي أن يستريح وإلا فلن تكفيه قدماه ورقد أندريه يفيميتش على الكنبة ووجهه إلى ظهرها، وزم أسنانه وهو يصغي لصديقه الذي أخذ يؤكد له بحرارة أن فرنسا ستهزم ألمانيا حتماًإن عاجلاً أم آجلاً، وأن في موسكو كثيراً جداً من المحتالين، وأنه لا يمكن الحكم على فصائل الجياد من مظهرها الخارجي وبدأ أندريه يفيميتش يحس بطنين في أذنيه وتسارع في ضربات القلب، ولكنه لم يجرؤ من باب اللياقة على أن يطلب من صديقه أن يتركه أو يصمت ولحسن الحظ مل ميخائيل أفيريانيتش من البقاء في الغرفة، فانصرف بعد الغداء ليتنزه.

وعندما أصبح أندريه يفيميتش وحده استسلم للإحساس بالراحة ما أجمل أن تستلقي على الكنبة بلا حراك وأن تشعر بأنك وحيد في الغرفة! السعادة الحقيقية مستحيلة بدون الوحدة والملاك الساقط خان الرب ربما لأنه رغب في الوحدة التي لا يعرفها الملائكة وأراد أندريه يفيميتش أن يفكر فيما رآه وسمعه في الأيام الأخيرة، ولكن ميخائيل أفيريانيتش لم يفارق مخيلتهوفكر الدكتور بأسى: ولكنه أخذ إجازة وسافر معي بدافع الصداقة، بدافع السياحةليس هناك ما هو أسوأ من الوصاية باسم الصداقة إنه يبدو لك طيباً، وسمحاً، ومرحاً، ومع ذلك فهو ممل ممل إلى درجة لا تحتمل وهكذا قد تجد أناساً لا يقولون إلا كلمات ذكية جيدة ولكنك تحس بأنهم أناس بلداء.

وفي الأيام التالية كذلك ادعي أندريه يفيميتش المرض ولم يغادر الغرفة ظل راقداً ووجهه إلى ظهر الكنبة ويعاني عندما يسليه صديقه بالأحاديث، أو يرتاح عندما يكون الصديق غائباً وحنق على نفسه لأنه سافر، وعلى صديقه الذي كان يزداد ثرثرة وتبسطاً يوماً بعد يوم ولم يستطع أبداً أن يوجه أفكاره في اتجاه جاد سام.

وفكر وهو يشعر بالغضب من تفاهته: إنه الواقع يعصرنى، الواقع الذي تحدث عنه إيفان دميتريتش وعموماً فهذا هراء عندما أرجع إلى البيت سيسير كل شيء كما كان في السابقوفي بطرسبرج تكرر نفس الوضع كان لا يغادر الغرفة أياما بكاملها وهوراقد على الكنبة، ولا ينهض إلا ليشرب البيرةوكان ميخائيل أفيريانيتش طول الوقت يتعجل السفر إلى وارسو فيقول أندريه يفيميتش بضراعة :

-يا عزيزى، وما الداعي لذهابي أنا؟ سافر وحدك، واسمح لي أن أعود إلى البيت أرجوكفيحتج ميخائيل أفيريانيتش :

-لا يمكن بأي حال إنها مدينة رائعة قضيت فيهاخمس سنوات من أسعدسنوات عمريولم يكن لدي أندريه يفيميتش من الإرادة ما يكفي للإصرار على رأيه فسافر مكرهاً إلى وارسو وهناك لم يغادر الغرفة، وظل راقداً على الكنبة، وهو يحنق علىنفسه وعلى صديقه،وعلى الخدم الذين أصروا بعناد على عدم فهم الروسية

أما ميخائيل أفيريانيتش بصحته ونشاطه ومرحه كالعادة، فكان يتجول في المدينة من الصباح إلى المساء ويبحث عن معارفه القدامى ولم يبت في الفندق عدة مرات وبعد ليلة قضاها في مكان غير معروف رجع إلى الفندق في الصباح الباكر وهو في حالة انفعال شديد، أحمر الوجه، مشعث الشعر وأخذ يروح في الغرفة جيئة وذهاباً فترة طويلة، وهو يدمدم بكلمات ما، ثم توقف وقال:الشرف قبل كل شيءثم تمشى قليلاً، أمسك رأسه بيديه وقال بصوت تراجيدى :

نعم، الشرف قبل كل شيء !اللعنة على تلك الساعة التي فكرت فيها أن آتى إلى بابل هذه والتفت إلى الدكتور قائلاًيا عزيزى، فلتحتقرنى، لقد خسرت في القمار، أعطني خمسمائة روبل.

عد أندريه يفيميتش خمسمائة روبل وأعطاها لصديقه في صمت فتفوه هذا بقسم ما غير ضروري، وهو لا يزال محتقناًمن الخجل والغضب، وارتدي قبعته وخرج وعاد بعد حوالى ساعتين وتهالك في المقعد وتنهد بصوت عال وقال :

-لقد أنقذ الشرف فلنرحل يا صديقيلا أريد أن أبقى في هذه المدينة الملعونة دقيقة واحدة المحتالون! جواسيس النمسا؟.

عندما عاد الصديقان إلى المدينة كان نوفمبر قد حل، وغطى الشوارع ثلج كثير وشغل الدكتور خوبوتوف محل أندريه يفيميتش، وكان لا يزال يقطن الشقة القديمة في انتظار رحيل أندريه يفيميتش عن شقة المستشفى وأصبحت المرأة الدميمة التي كان يسميها طاهيته تقطن بالفعل في أحد أجنحة المستشفىوسرت في المدينة شائعات جديدة عن المستشفى فقيل إن المرأة الدميمةتشاجرت مع المشرف، وأن الأخير زحف أمامها على ركبتيه طالباً الصفح. واضطر أندريه يفيميتش في أول يوم لوصوله إلى البحث عن شقةوقال له مدير البريد بتردد - :يا صديقي اعذرني على هذا السؤال غير المتواضع: كم لديك منالمال؟.

فعد أندريه يفيميتش نقوده في صمت وقالستة وثمانون روبلاً فقال ميخائيل أفيريانيتش في حرج وهو لم يفهم الدكتور لست أسأل عن هذا إنني أسأل كم تملك عموماً؟لقد قلت لك: ستة وثمانون روبلاً ليس لدي أكثر من هذاكان ميخائيل أفيريانيتش يعتبر الدكتور شخصاً شريفاً ونبيلاً، ولكنه مع ذلك كان يحدس بأن لديه رصيداً يبلغ على الأقل عشرين ألفاً أما الآن، وبعد أن عرف أن أندريه يفيمينش شحاذ وليس لديه ما يعيش به، يكى فجأة لسبب ما وعانق صديقهسكن أندريه يفيميتش في منزل المواطنة بيلوفا ذي الثلاث نوافذ ولم يكن في هذا البيت سوى ثلاث غرف بخلاف المطبخ وشغل الدكتور غرفتين منها،بنوافذ تطل على الشارع، بينما سكنت داريوشكا وربة البيت وأطفالها الثلاثة الغرفة الثالثة والمطبخ.

أحياناً كان عشيق ربة الدار يأتي للمبيت، وهو فلاح ثمل، كانت ثائرته تثور في الليل فيلقى الرعب في قلوب الأطفال وداريوشكا وعندما يأتي ويتربع في المطبخ ويبدأ في المطالبة بالفودكا، كان الجميع يشعرون بضيق المكان الشديد فيأخذ الدكتور الأطفال الباكين شفقة بهم ويرقدهم عنده على الأرض، وكان ذلك يجلب له متعة كبيرة.

كان يستيقظ في الثامنة كسابق عهده، وبعد تناول الشاي يجلس ليقرأ كتبه ومجلاته القديمة، إذ لم يعد لديه نقود لشراء كتب جديدة وربما لأن الكتب قديمة أو ربما بسبب تغيير المكان لم تعد القراءة تستغرقه بل كانت ترهقه ولكى لا يبدد الوقت دون عمل، وضع كتالوجاً مفصلاً لكتبه، والصق بطاقات صغيرةبكعوبها، وبدا له هذا العمل الميكانيكى الدقيق أطرف من القراءة كان العمل الرتيب الدقيق يهدهد أفكاره بصورة غير مفهومة، فلا يفكر في شيء ويمر الوقت بسرعة وحتى الجلوس في المطبخ مع داريوشكا لتقشير البطاطس أو تنظيف البرغل من الشوائب بدا له طريفاً وكان يتردد على الكنيسة في يومي السبت والأحد كان يقف بجوار الحائط ويصغي إلى الغناء مغمض العينين ويفكر في أبيه، وأمه والجامعة، والأديان، ويحس بالسكينة والحزن، وعندما ينصرف بعدذلك من الكنيسة يشعر بالأسف لانتهاء الصلاة بسرعة.

وزار إيفان دميتريتش في المستشفى مرتين لكي يتحدث معه ولكن إيفان دميتريتش في كلتا المرتين كان هائجاً ومحنقاً بصورة غير عادية، فطلب منه أن بدعه وشأنه لأنه مل منذ فترة بعيدة هذه الثرثرة الفارغة، وقال إنه لا يرجو من الأوغاد الملاعين غير مكافأة واحدة على كل آلامه: الحبس الانفرادى، فهل من المعقول أن يرفضوا حتى هذا الطلب؟ وعندما ودعه أندريه يفيميتش في المرتين متمنياً له ليلة هادئة، قال بغل :إلى الشيطان.والآن لم يعد أندريه يفيميتش يعرف هل يزوره للمرة الثالثة أم لا وكانتبه رغبة في الذهابوفي السابق كان أندريه يفيميتش يقضي فترة ما بعد الغداء في الطواف بالغرف والتفكير، أما الآن فأصبح يرقد من الغداء حتى شاي العشاء على الكنبة ووجهه إلى ظهرها ويستسلم لأفكار ضحلة لم يستطع التغلب عليها أبداً كان يحز في نفسه أنه مقابل خدمته التي جاوزت العشرين عاما لم يحصل لا على معاش ولا على مكافأة صحيح أنه بغير أمانة، ولكن المعاش يحصل عليه جميع الموظفين بغيرتمييز، سواء كانوا أمناء أم لا والعدالة المعاصرة إنها تجلى في أن الرتب والأوسمة والمعاشات لا تمنح مكافأة على الخصائص الخلقية والقدرات، بل على العمل بشكل عام، وأياً كان فلماذا ينبغي أن يكون هو وحده الاستثناء؟ لم يكن لديه نقود على الإطلاق وكان يشعر بالخجل من المرور أمام الدكان والنظر إلى ربة الدار وكان مديناً باثنين وثلاثين روبلاً مقابل البيرة وداريوشكا تبيع شيئاً فشيئاً الملابس والكتب القديمة وتكذب على ربة الدار قائلة إن الدكتور سيحصل عما قريب على مبلغ ضخم وحنق على نفسه

لأنه أنفق في الرحلة الألف روبل التي كان قد ادخرها كمكانت تنفعه هذه الألف الآن وكان يشعر بالأسى لأن الناس لا تدعه وشأنه فقد كان خوبوتوف يرى من واجبه أن يزور زميله المريض من حين لحين كان كل ما فيه بغيضاً على نفس أندريه يفيميتش: وجهه الشبعان، ونبرته المتعالية السيئة، وكلمة زميل وحذاؤه العالي أما أكثر شيء بغضاً فهو أنه كان يرى من واجبه أن يعالج أندريه يفيميتش، ويعتقد أنه يعالج بالفعل وفي كل زيارة كان يأتي معه بقارورة من البوتاسيوم والبروم وحبوب الراوند.

وكان ميخائيل أفيريانيتش أيضاً يرى من واجبه أن يزور صديقه ويسرى عنه كان يدخل على أندريه يفيميتش في كل مرة في تبسط مفتعل، ويقهقه بتكلف، ويؤكد له أن هيئته اليوم تبدو رائعة، وأن الأمور تسير والحمد لله نحو التحسن، وكان يمكن أن تستنتج من ذلك أنه يعتبر حالة صديقه ميئوساًمنها ولميرد بعد دين وارسو فكان مهموماً من الخزى الشديد، ومتوتراً، لذلك يحاول أن يقهقه بصوت أعلى ويروى بصورة أكثر إضحاكا وبدت مزحاته وحكاياته الآن بلا نهاية، وكانت مضنية سواء لأندريه يفيميتش أم له هو نفسه.

وفي حضرته كان أندريه يفيميتش يتمدد عادة على الكنبة ووجهه إلى الحائط ويستمع وقد أطبق أسنانه وتترسب المرارة على قلبه طبقات، وبعد كل مرة يزوره فيها صديقه يحسب أن هذه الترسبات تصبح أعلى فأعلى وكأنها تقترب من حلقه.

ولكي يخمد هذه الأحاسيس التافهة كان يسارع إلى التفكير في أنه هو نفسه، وخوبوتوف وميخائيل أفيريانيتش مصيرهم إلى الزوال عاجلاً أم آجلاً، دون أن يخلفوا في الطبيعة حتى مجرد بصمة ولو تخيلنا أنه بعد مليون سنة حلقت روح ما في الفضاء مارة بالكرة الأرضية فلن ترى سوى الطين والصخور العارية سيندثر كل شيء ستندثر الثقافة وقانون الأخلاق، حتى دون أن يغطيها العشب فماذا يعني الخجل من صاحب الدكان، وماذا يعني خوبوتوف التافه، والصداقة المرهقة مع ميخائيل أفيريانيتش؟ كل هذا هراء وتفاهة.

ولكن هذه الأفكار لم تعد تسعفه فيها ان يتصور الكرة الأرضية بعد مليون سنة، حتى يطل خوبوتوف بحذائه العالي من وراء صخرة عارية أو ميخائيل أفيريانيتش وهو يقهقه بتوتر، بل يسمع هما خجلاً: سأرد لك يا عزيزى دين وارسو في الأيام القادمة حتماً.

جاء ميخائيل أفيريانيتش ذات مرة بعد الغداء عندما كان أندريه يفيميتش راقداً على الكنبة واتفق أن جاء في نفس الوقت خوبونوف أيضاً حاملاً البوتاسيوم بالبروم ونهض أندريه يفيميتش بتثاقل وجلس معتمداً بكلتا يديه على الكنبةوبدأ ميخائيل أفيريانيتش يقول :

أما اليوم يا عزيزى فلون وجهك أفضل بكثير من الأمس، نعم برافوعليك! أي والله برافو؟.

وقال خوبونوف متثائباً :حان الوقت للشفاء يا زميلى، حان الوقت! عساك سئمت هذا التسويف فقال ميخائيل أفيريانيتش بمرح: سوف نشفي! وسنعيش مائة عام أخرى نعم، هكذا.

فقال خوبونوف مواسياً :- مائة أم لا، لكن لديه ما يكفي لعشرين عاماً أخرى لا بأس، لا بأس باعزيزى، لا تحمل هما كفاك مراوغة.

وقهقه ميخائيل أفيريانيتش وربت على ركبة صديقه قائلاً :

-سوف نريكم من نحن! سوف نريكم في الصيف القادم إن شاء الله نرحل إلى القوقاز ونطوف به كله على ظهور الجياد هوب هوب هوبوبعد أن نعود من القوقاز،من يدري،ربما نشهد حفل الزفاف وغمز ميخائيل أفيريانيتش بعينيه في خبث سنزوجك يا صديقي العزيز، سنزوجك.

وفجأة أحس أندريه يفيميتش أن المرارة تقترب من حلقه، ودق قلبه بعنف فقال وهو ينهض بسرعة متجهاً إلى النافذة :هذا ابتذال! ألا تدركان أنكما تقولان أشياء مبتذلة؟.

وأراد أن يستطرد بلطف واحترام ولكنه رغماً عنهشدقبضتيه فجأة ورفعها أعلى من رأسه وصاح بصوت غير صوته وهو يتضرج وجسده كلهيرتعش :دعونى اخرجا من هنا أنتما الاثنان اخرجاونهض ميخائيل أفيريانيتش وخوبوتوف وحدقا فيه في البداية بدهشة، ثم بخوف ومضى أندريه يفيميتش يصيح

-اخرجا من هنا أيها البلداء أيها الأغبياء لست بحاجة إلى الصداقة أو إلىأدويتك أيها البليد يا للابتذال يا للحقارةوتبادل ميخائيل أفريانيتش وخوبوتوف النظرات في ارتباك وتراجعا إلىالباب وخرجا إلى المدخل والتقط أندريه يفيميتش قارورة البوتاسيوم بالبروم وقذف بها في أثرهما،فتحطمت القارورة على العتبة برنينا ذهبا إلى الشيطان صاح بصوت باك وهو يندفع إلى المدخل إلى الشيطان.

وبعد خروج الضيفين، استلقي أندريه يفيميتش على الكنبة وهو يرتعش كالمحموم، ظل طويلاً يردد :البلداء! الأغبياء !.

وعندما هدأت ثائرته كان أول ما تبادر إلى ذهنه أن ميخائيل أفيريانيتش المسكين لا بد يشعر الآن بالخجل الرهيب والكآبة، وأن كل هذا فظيع لميحدث له من قبل أبداً شيء مثل هذا، فأين ذكاؤه ولباقته؟ وأين فهم الأشياء واللامبالاة الفلسفية؟.

لم يغمض للدكتور جفن طول الليل من الخجل والحنق على نفسه، وفيالصباح، حوالى الساعة العاشرة، اتجه إلى مكتب البريد واعتذر لمدير البريدفقال ميخائيل أفيريانيتش وهو يتنهد متأثراً ويشد بقوة على يده :

دعنا من ذكر الماضي ما فات مات يا لوبافكين صاح فجأة بصوت عال انتفض له السعاة والزوار هات مقعدا أما أنت فانتظرى صاح في امرأة كانت تمد له عبر النافذة رسالة مسجلة ألا ترين أنني مشغول؟

ومضى يقول بلطف مخاطباً أندريه يفيميتش دعنا من ذكر الماضي اجلس يا صديقى، تفضلأرجوك.

وصمت دقيقة وهو يمسد ركبتيه، ثم قال.

لم يخطر ببالي أبدا أن أغضب منك فالمرض يجلب الكرب أنا أعرف لقد أزعجتني أنا والدكتور النوبة التي أصابتك بالأمس، وقد تحدثنا بعدها طويلاً عنك يا عزيزى،لماذا لا تريد أن تهتم جدياًبمرضك؟أمن المعقول أن تبقىهكذا؟وهمس ميخائل أفيريانيتش اعذرني على صراحتى الودية، إنك تعيش في ظروف غير ملائمة أبداً: في مكان ضيق، غير نظيف، وليس هناك من يرعاك، وليس لديك ما تتعالج به يا صديقي العزيز، أتوسل إليك أنا والدكتور من صميم قلوبنا،اقبل نصيحتنا وادخل المستشفى هناك الطعام الصحي، والرعاية والعلاج ويفجيني فيودروفتش، رغم أنه موفي تون، إلا أنه بيني وبينك، رجل عليم، يمكن الاعتماد عليه تماماً وقد وعدني أن يهتم بككان أندريه يفيميتش متأثراً بهذه المشاركة المخلصة وبالدموع التي لمعت فجأةعلى خدي مدير البريدفهمس وهو يضع يده على قلبه.

يا صديقي المحترم، لا تصدق! لا تصدقهمهذا خداعما مرضى إلا أننيخلال عشرين سنة لم أجد في المدينة كلها سوى رجل ذكى واحد، وفوق ذلك فهو مجنون ليس بي أي مرض، وإنها ببساطة وقعت في حلقة مفرغة لا مخرج منها الأمر عندي سيان، أنا مستعد لأي شيء.

-ادخل المستشفى يا عزيزى سيان عندي، ولو السجن عدنى يا عزيزى بأنك سوف تطيع يفجينى فيودر وفتش في كل شيء.

-تفضل، أعدك ولكني أكرر لك أنني وقعت في حلقة مفرغة وكل شيء الآن، حتى المشاركة المخلصة من جانب أصدقائي، تتجه نحو شيء واحد نحو هلاكى إنى أمضي إلى الهلاك، ولدي من الشجاعة ما أدرك به ذلك.

-ستشفى يا عزيزى فقال أندريه يفيميتش بعصبية :

-ما الداعي لهذا الكلام؟ قليلون هم الذين لا يعانون في أواخر أيامهم ما أعانيه الآن فعندما يقال لك إن الكلى لديك سيئة وقلبك متضخم فتشرع في العلاج، أو يقال لك إنك مجنون أو مجرم، أي باختصار عندما يوجه الناس انتباههم إليك فجأة، فلتعلم أنك وقعت في حلقة مفرغة لن تخرج منها أبداًوإذا ما حاولت أن تخرج ستضل أكثر فلتستسلم، لأنه لن تنقذك أية جهود بشرية هكذا يبدو لي.

وفي تلك الأثناء تجمع الجمهور بجوار النافذة، فنهض أندريه يفيميتش مودعاً لكي لا يعرقل العمل وأخذ منه ميخائيل أفيريانيتش مرة أخرى كلمة شرف، وصاحبه حتى الباب الخارجيوفي نفس اليوم قبيل المساء جاء خوبوتوف بغتة في معطفه القصير وحذائهالعالى إلى أندريه يفيميتش وقال وكأن شيئاً لم يحدث بالأمس لقد جئتك في موضوع يا زميلي جئت أدعوك، ألا تريد أن تشترك معيفي كونسولتو؟ هه؟.

وظن أندريه يفيميتش أن خوبونتوف يريد أن يسرى عنه بالتريض، أو يعطيه بالفعل فرصة للكسب، فارتدى ثيابه وخرج معه إلى الشارع كان سعيداً بفرصة تصحيح خطأ الأمس والتصالح، وكان في قرارة نفسه ممتناً .

خوبوتوف الذي لم ينبس حتى ببنت شفةعما حدث بالأمس، رحمة به فيما يبدو وكان من الصعب أن تتوقع من شخص غير مهذب كهذا مثل هذه اللباقةوسأل أندريه يفيميتش: وأين مريضك؟.

عندي في المستشفى لقد أردت منذ فترة طويلة أن أعرضه عليك حالةطريفة جداًودلفا إلى فناء المستشفى، ودارا حول المبنى الرئيسي متجهين إلى الجناح الذيينزل به المرضى العقليون ولسبب ما جرى ذلك في صمت وعندما دخلا الجناح قفز نيكيتا كالعادة وشد قامتهوقال خوبونوف بصوت خافت وهو يدخل مع أندريه يفيميتش إلىالعنبر :لقد أصيب أحدهم هنا بمضاعفات في الرئتين انتظرني هنا، سآتى حالاً سأذهب لإحضار الساعةوخرج حل الغسق كان إيفان دميتريتش ممدداً على سريره وقد دس وجهه في الوسادة وجلس المشلول دون حراك وهو يبكي بصوت خافت ويحرك شفتيه أما الفلاح السمين والفراز السابق فكانا نائمين.

جلس أندريه يفيميتش على سرير إيفان دميتريتش وأخذ ينتظر ولكن بعد أن مضى حوالي نصف ساعة، بدلاً من خوبوتوف دخل نيكيتا ممسكاً تحت إبطه روبا وملابس داخلية ما وحذاء

وقال بصوت خافت :

-تفضل البس يا صاحب السعادة هذه هو فراشك، تفضل هنا قال مشيراً

إلى سرير فارغ، يبدو أنهم قد وضعوه مؤخراً لا بأس، إن شاء الله ستشفى

وفهم أندريه يفيميتش كل شيء ودون أن يتفوه بكلمة انتقل إلى السرير الذي أشار إليه نيكيتا وجلس وعندما رأى أن نيكيتا ما زال واقفاً ينتظر، نزع ثيابه حتى تعري تماماً وأحس بالخجل ثم ارتدي ثياب المستشفى كان السروال قصيراً جداً، والقميص طويلا، وفاحت من الروب رائحة سمك مدخن

وردد نيكيتا :ستشفى إن شاء الله وجمع تحت إبطه ثياب أندريه يفيميتش وخرج وأغلق الباب خلفهسيان فكر أندريه يفيميتش وهو يشد الروب على جسده بحياء ويحس أنه يشبه السجناء بملابسه الجديدة سيان، بدلة السهرة أم البدلة الرسمية، أم هذا الروبولكن الساعة؟ والمفكرة التي في جيب السترة؟ والسجائر؟ إلى أين أخذ نيكيتا الثياب؟ في الغالب لن يقدر له حتى الممات أن يرتدي السروال والصديرى والحذاء وكل هذا يبدو غريباً وغير مفهوم للوهلة الأولى وحتى الآن كان أندريه يفيميتش مقتنعاًبأنه ليس هناك أي فرق بين بيت المواطنة بيلوفا وعنبر رقم ٦، وأن كل شيء في هذا العالم هراء وباطل الأباطيل، ومع ذلك ارتعشت يداه، وبردت قدماه، واستولى عليه الرعب من فكرة أن إيفان دميتريتش سوف يستيقظ ويراه مرتدياً الروب فنهض، وتمشى قليلاً، ثم جلسها هو ذا قد جلس نصف ساعة، ساعة

وتملكه الملل إلى درجة الكآبة أمن المعقول أن يعيش المرء هنا يوماً، أسبوعاً، بل أعواماً، مثل هؤلاء الأشخاص؟ ها هو ذا قد جلس، وتمشي، ثم جلس من جديد من الممكن أن يذهب إلى النافذة ويتطلع منها، ثم يتمشى من ركن لركن وماذا بعد ذلك؟ هل يجلس طوال الوقت كالأبله ويفكر؟ كلا، هذا شبه مستحيل.

ورقد أندريه يفيميتش، ولكنه نهض لتوه، ومسح بكمه العرق البارد من جبينه

وأحس أن وجهه كله قد تشبع برائحة السمك المدخن وعاد فتمشي ثانيةوقال وهو يشيح بيديه في استغرابهذا سوء فهم ماينبغي أن أستوضح، ثمة سوء فهم هنا وفي تلك اللحظة استيقظ إيفان دميتريتش جلس واعتمد بخديه على قبضتيهوبصق ثم تطلع بكسل إلى الدكتور، ويبدو أنه لم يفهم شيئاً للوهلة الأولى، لكن وجهه الناعس سرعان ما أصبح غاضباً وساخراًوقال بصوت أبح من أثر النوم وقد زر إحدى عينيه - :آه، أنت أيضاً وضعوك هنا يا عزيزى سعيد جداً كنت تشرب دم الناس،والآن سيشربون دمك رائع.

-هذا سوء فهم ماقال أندريه يفيميتش وقد أخافته كلمات إيفان دميتريتش،وهز كتفيه وأضاف - سوء فهم ماوبصق إيفان دميتريتش ورقد ودمدم بسخط :

-حياة لعينة! والمحنق والمرير في الأمر أن هذه لن تنتهي بمكافأة على الآلام أو بمشهد ختامى كما في الأوبرا، بل بالموت يأتي خدم المستشفى ويسحبون الميت من يديه وقدميه إلى القبو بررر ولكن لا بأس في العالم الآخر سنحيي عيدنا سوف آتي من العالم الآخر إلى هنا ظلاًل أخيف هؤلاء الأوغاد سأشيبهم

وعاد مويسيكا، ورأى الدكتور فمد له يده قائلا - :أعطني كوبيكا.

ذهب أندريه يفيميتش إلى النافذة ونظر إلى الحقل كان الظلام قد هبط، وفي الجانب الأيمن من الأفق صعد قمر بارد أحمر وعلى مقربة من سور المستشفى، على بعد مائة ذراع لا أكثر قام منزل أبيض عال، محاط بجدار حجري كان ذلك مبنى السجنوفكر أندريه يفيميتش:هذا هو الواقع!، وأحس بالرعبكان القمر مرعباً، والسجن ومسامير السور، واللهب البعيد في مصنع معالجة العظموسمع أندريه يفيميتش من ورائه زفرة، فالتفت فرأى رجلاً بنجوم لامعة وأوسمة على صدره، كان يبتسم له ويغمز بعينه في خبث وبدا هذا أيضاً مرعباً .

وأخذ أندريه يفيميتش يؤكد لنفسه أنه ليس هناك أي شيء خاص في القمر والسجن، وأنه حتى الأشخاص الأصحاء نفسياً يحملون الأوسمة، وأن كل ذلك بمرور الزمن سيزول ويتحول إلى طين، ولكن اليأس تملكه فجأة، فأمسك بالقضبان بكلتا يديه وهزها بكل قوته، ولكن القضبان القوية لم تستجب له.

ولكي يخفف من وطأة الخوف اتجه إلى سرير إيفان دميتريتش ودمدم وهو يرتعش ويجفف عرقه البارد: لقد انهرت يا عزيزى انهرت فأجاب إيفان دميتريتش بسخرية :جرب أن تتفلسف إذن

-يا إلهي، يا إلهي نعم، نعم لقد تفضلت ذات مرة وقلت إنه ليس في روسيا فلسفة، ولكن الجميع يتفلسفون، حتى الصغار، ولكن تفلسف الصغار لا يعود بضرر على أحد قال أندريه يفيميتش بنبرة خاصة وكأنه أراد أن يبكي أو يستدر الشفقة ما الداعى يا عزيزى لهذه السخرية الحاقدة؟ وكيف لا يتفلسف هؤلاء الصغار إذا كانوا لا يشعرون بالارتياح؟ الإنسان النبيه المتعلم، الآبي، الحر، الشبيه بالإله لا يجد مخرجاً سوى أن يصبح طبيباً في مدينة صغيرة قذرة غبية، ويقضى عمره كله في وضع كؤوس الهواء ودود العلق والكادات! يا للاحتيال وضيق الأفق والابتذال أوه يا إلهي.

أنت تثرثر بحماقات إذا كنت تنفر من الطب فاعمل وزيراًلا يمكن،لا يمكن، مستحيل نحن ضعفاء يا عزيزى كنت لا مبالياً .

أناقش بهمة ومنطق، وما إن مستني الحياة بخشونة حتى انهرت خارت قواى ضعفاء نحن، سيئون نحن وأنت أيضاًيا عزيزي أنت ذكى، نبيل، رضعت مع لبن الأم الانفعالات النبيلة، ولكن ما إن دخلت معترك الحياة حتى تعبت ومرضت ضعفاء، ضعفاء.

كان ثمة شيء آخر ملح، غير الخوف والشعور والخنق، يرهق أندريه يفيميتش طوال الوقت منذ حلول المساء وأخيراً أدرك أن ذلك بسبب رغبته في تناولالبيرة والتدخينوقالسأخرج من هنا يا عزيزى، سأطلب منهم أن يشعلوا النور هنا أنا لاأستطيع هكذا لا أحتملومضى أندريه يفيميتش إلى الباب وفتحه، ولكن نيكيتا هب واقفاً على الفوروسد عليه الطريق، وقال :

-إلى أين؟ ممنوع، ممنوع! حان وقت النوم فقال أندريه يفيميتش بوجل: - سأخرج دقيقة واحدة فقط، سأتمشي في الفناء ممنوع، ممنوع الأوامر لا تسمح أنت نفسك تعرف وصفق نيكيتا الباب وارتكز عليه بظهره وسأل أندريه يفيميتش وهو يهز كتفيه: ولكن هل سيحدث لأحد شيء إذا خرجت من هنا؟

أنا لا أفهم وقال بصوت متهدج يا نيكيتا ينبغي أن أخرج، أنا بحاجةإلى ذلك ! فقال نيكيتا آما :

-لا تسبب الفوضى عيب وفجأة صاح إيفان دميتريتش وهب واقفاً :

-الشيطان يعلم ما هذا؟ بأي حق يمنعه من الخروج؟ كيف يجرؤون علىإبقائنا هنا؟ القانون ينص بوضوح فيما يبدو على عدم جواز حبس أي شخص بدون محاكمة هذا طغيان تعسففقال أندريه يفيميتش وقد شجعه صياح إيفان ديمتريتش :

طبعاً تعسف! أنا بحاجة إلى الخروج، ينبغي أن أخرج ليس من حقه أنيمنعني! دعني قلت لك !وصاح إيفان دميتريتش ودق الباب بقبضته: أسمع أيها الحيوان البليد؟ افتح وإلا كسرت الباب أيها السفاح وصاح أندريه يفيميتش وجسده كله يرتعش: افتح أنا أطالب كفرد نيكيتا من خلف الباب: - أكمل، أكمل، هيا تكلم

-على الأقل استدع يفجينى فيودور فيتش قل له إني أرجوه أن يأتي لدقيقة واحدة سيأتى غذاً بنفسه ومضى إيفان دميتريتش يقول في أثناء ذلك :

-لن يطلقوا سراحنا أبداً سيجعلوننا نتعفن هنا أوه يا إلهي، أحقاًلا يوجد جحيم في العالم الآخر وسيغفر لهؤلاء الأوغاد؟ أين العدالة إذن؟ وصاح بصوت أبح وتحامل على الباب افتح أيها الوغد، إنني أختنق سأحطم رأسى، يا قتلة وفتح نيكيتا الباب بسرعة، ودفع أندريه يفيميتش بيديه وركبته بخشونة، ثم طوح بيده إلى الوراء ولكمه بقبضته في وجهه وخيل لأندريه يفيميتش أن موجة مالحة ضخمة قد غطته حتى رأسه وسحبته إلى السرير وبالفعل شعر في فمه بطعم مالح بيد أن الدم تدفق من أسنانه ولوح بيديه وكأنما يريد أن يطفو، وتشبث بسرير ما، وفي تلك اللحظة أحس أن نيكيتا ضربه مرتين في ظهرهوصرخ إيفان دميتريتش بصوت عال لا بد أنه هو أيضاً كان يضربثمهدأكلشيءوتسرب ضوء القمر الضعيف عبر القضبان، وارتمى علىالأرض ظل يشبه السمكة وساد الرعب وتمدد أندريه يفيميتش

وقد حبس أنفاسه كان يتوقع في رعب ضربة أخرى وأحس كأنما غرز أحدهم فيه منجلاً وأداره بضع مرات في صدره وأحشائه وعض الوسادة من الألم وضغط على أسنانه،وفجأة ومضت في ذهنه بوضوح وسط الفوضى فكرة رهيبة لا تحتمل، وهي أن مثل هذا الألم كان ينبغي أن يتحمله أعواماً، ويوماً إثر يوم، هؤلاء الأشخاص الذين يلوحون الآن في ضوء القمر ظلالاً سوداء وكيف أمكن أن يحدث أنه طوال أكثر من عشرين سنة لم يعرف ولم يرد أن يعرف هذا؟ لميكن يعرف ولا يتصور ما هو الألم، إذن فهو غير مذنب، ولكن ضميره، العنيد والفظ تماماً مثل نيكيتا، جعله يتثلج من قمة رأسه إلى أخمص قدميه وقفز، وأراد أن يصرخ بكل قواه ويهرب بسرعة لكي يقتل نيكيتا، ثم خوبوتوف والمشرف والحكيم، ثم يقتل نفسه، ولكن لم يخرج من صدره أي صوت ولم تستجب له ساقاه وشد القميص والروب عند صدره وهو يختنق ومزقهما، وارتمى على السرير فاقد الوعيفي صباح اليوم التالى أحس بصداع، وطنين في أذنيه،وتعب في جسده كله ولم يخجل من تذكر ضعفه بالأمس لقد كان بالأمس جباناً، وخاف حتى منالقمر، وعبر بصراحة عن مشاعر وأفكار لم يكن يظن قبلاً أنها تراوده مثلاًفكرة عدم الرضا لدى الصغار المتفلسفين أما الآن فلم يعد يهمه شيء.

لم يأكل، ولم يشرب، وتمدد بلا حراك ولزم الصمتوفكر عندما كانوا يوجهون إليه أسئلة: الأمر سيان عندي لن أرد الأمرسيان.

وبعد الغداء جاء ميخائيل أفيريانيتش وأحضر معه ربع رطل من الشاي ورطلاً من الحلوى، وجاءت داريوشكا أيضاً ووقفت ساعة كاملة بجوار السرير وعلى وجهها تعبير حزن بليد وزاره أيضاً الدكتور خوبوتوف، وجاء معه بقارورة بوتاسيوم بالبروم وأمر نيكيتا أن يبخر العنبروقبيل المساء توفي أندريه يفيميتش أثر نوبة نزيف في البداية أحس بقشعريرةمذهلة وغثيان وشده شيء ما مقزز، كما خيل إليه، من معدته إلى رأسه وملأ أذنيه وعينيه وهو يتغلغل في كل جسده، حتى في أصابعه وغامت عيناه وأدرك أندريه يفيميتش أنها النهاية فتذكر أن إيفان دميرتيتش وميخائيل أفيريانيتش وملايين الناس يؤمنون بالخلود وربما هو موجود؟ ولكنه لم يكن يريد الخلود، فلم يفكر فيه سوى لحظة وركض ماراً به قطيع من الغزلان الفائقة الجمال والرشاقة التي قرأ عنها بالأمس ثم مدت امرأة يدها له برسالة مسجلة وقال ميخائيل أفيريانيتش شيئاً ما ثم اختفى كل شيء وغاب أندريه يفيميتش إلى الأبد.

وجاء خدم المستشفى فسحبوه من يديه ورجليه إلى المصلى وهناك تمدد على طاولة وعيناه مفتوحتان وأضاء القمر ليلاً وفي الصباح جاء سرجى سرجيتش، وصلى بورع على الصليب، وأغلق عيني رئيسه السابقودفن أندريه يفيميتش بعد يوم ولم يحضر الجنازة سوى ميخائيل أفيريانيتشوداريوشكا.

المبارزة

كانت الساعة الثامنة صباحاً،وهي الساعة التي يذهب فيها الضباط والموظفون والوافدون عادة للاستحمام في البحر بعد ليلة حارة خانقة، ثميقصدون المقصف لتناول القهوة أو الشاي وعندما جاء إيفان أندريتشلايفسكى وهو شاب في حوالي الثامنة والعشرين، نحيف أشقر، يرتدي عمرة وزارة المالية وشبشباً إلى الشاطئ للاستحمام وجد هناك الكثيرين من معارفه، ومن بينهم صديقه الدكتور العسكرى صامويلنكو.

كان صامويلنكو هذا، برأسه الكبير الحليق، وانعدام عنقه، ووجهه الأحمر الكبير الأنف، وحاجبيه الأسودين الكثين، وسالفيه الأشيبين، والجسد السمين المترهل،وعلاوة على ذلك بصوته العسكري الأبح، يترك في نفوس الوافدين الجدد انطباعاً منفراً عن رجل جلف أبح، ولكن ما إن يمر على التعارف الأول يومان أو ثلاثة، حتى يبدأ وجهه يبدولهم طيباً بصورة غير عادية، ولطيفاًبل حتى جميلاًفرغم هيئته الخرقاء ونبرته الفظة كان رجلاً وديعاً، طيباً بلاحدود، بشوشاً وخدوماً كان يعرف جميع أهل المدينة معرفة قريبة،ويقرض الجميع ويعالج الكل ويزوجهم ويصالحهم، ينظم النزهات الخلوية التي يشوى أثناءها الكباب ويطهو حساءاً لذيذاً للغاية من سمك البوري وكان دائماً يسعى لأحد ما ويرجو، ويفرح دائماً لأمر ما كان بإجماع الآراء رجلاً نقياً، لا يعيبه إلا شيئان:

فقد كان، أولاً، يخجل من طيبته، فيحاول تمويهها بنظرة صارمة وخشونة مصطنعة، وكان، ثانياً، يحب أن يناديه الممرضون والجنود بلقب صاحب المعالي بالرغم من أنه لم يكن سوى مستشار دولة فقط .

أجبني على سؤال واحد يا ألكسندر دافيديتش قال لايفسكى بعد أن نزل هو وصامويلنكو البحر وغاصا حتى أكتفاهما فلنفرض أنك أحببت امرأة واتصلت بها، ولنفرض أنك عشت معها أكثر من عامين، وكما يحدث أحيانًا، لم تعد تحبها وأصبحت تشعر أنها غريبة بالنسبة لك كيف تتصرف فيهذه الحالة؟.بكل بساطة اذهبى يا صاحبتى إلى حيث تريدين وانتهى الأمر !.

ليست المسألة بهذه البساطة! وإذا لم يكن لديها مكان تذهب إليه؟ فهيامرأة وحيدة، بلا أهل، ليس لديها من النقود قرش، لا تجيد العمل -فليكن! خمسمائة روبل دفعة واحدة في يدها، أو خمسة وعشرون روبلاً وانتهينا بكل بساطة .

فلنفرض أن لديك خمسمائة روبل وخمسة وعشرين شهرياً، ولكن المرأةالتي أتحدث عنها مثقفة وذات كرامة .

فهل تجرؤ حقاً على أن تعرض عليها نقوداً؟ وبأية صورة؟أراد صامويلنكو أن يقول شيئاً، ولكن موجة عالية غمرتهما معاًفي تلك اللحظة، ثم اصطدمت بالشاطئ وارتدت إلى الوراء في صخب فوق الحصى الصغير وخرج الصديقان إلى الشاطئ وأخذا يرتديان ملابسهما .

وقال صامويلنكو وهو ينفض الرمل عن حذائه :

-من الصعب طبعاًص أن تعيش مع امرأة إذا كنت لا تحبها ولكن ينبغى يا فانيا أن تتناول الأمر من ناحية إنسانية لو حدث هذا لي لما أظهرت لها أبداً أنني لم أعد أحبها، ولعشت معها إلى الممات .

وفجأة أحس بالخجل مما قاله، فأسرع يقول مستدركاً-لو كان الأمر بيدي لما رغبت أن تكون هناك نساء فليذهبن إلى الجحيم.

ارتدى الصديقان ملابسها وذهبا إلى المقصف وهنا كان صامويلنكو كصاحب البيت، وكانوا يحتفظون له بآنية خاصة كانوا يقدمون له كل صباح على صينية قدح قهوة وكوباً طويلاً مضلعاًماء مثلج كأساً من الكونياك فيشرب أولا كأس الكونياك، ثم القهوة الساخنة، وبعد ذلك الماء المثلج، وكان ذلك، على ما يبدو، لذيذ جداً، لأن عينيه بعد الشرب تصبحان لا معتين، ويمسد سالفيه بكلتا يديه ويقول وهو ينظر إلى البحرمنظر في غاية الروعة!.

أما لايفسكى، فبعد ليلة طويلة أنفقت في تفكير كئيب عقيم عاقه عن النوم، وبدا كأنما زاد من حدة ظلام الليل وجوه الخانق، فكان يشعر أنه مضعضع وذابل ولم تتحسن حالته حتى بعد الاستحمام والقهوة .

وقال :فلنواصل حديثنا يا ألكسندر دافيديتش لن أخفي عنك شيئاً ولأقل لك بصراحة كصديق: إن أمورى سيئة مع ناد يجدا فيودوروفنا سيئة للغاية عفواً إذا كنت أقحمك في أسرارى، ولكني بحاجة إلى أن أفضى بها في قلبي

كان صامويلنكو يحدس علام سيدور الحديث فخفض بصره وبدأ ينقربأصابعه على الطاولة .

ومضى لايفسكى يقول :

-لقد عشت معها سنتين ثم لم أعد أحبها، وبالأصح أدركت أنه لم يكن هناكأي حب كانت هاتان السنتان خداعاً .

كان من عادة لايفسكى أثناء الحديث أن يتفحص باهتمام راحتيه الورديتينويقضم أظفاره أو يلوي أساوره بأصابعه والآن أيضاً كان يفعل ذلكوقال :

-إنني أدرك جيداً أنك لا تستطيع أن تساعدني، ولكني أتحدث إليك في هذا، لأنه بالنسبة لنا، نحن الفاشلين الضائعين، لا منقذ سوى الأحاديث ينبغي أن أعمم كل تصرف من تصرفاتي، ينبغي أن أجد تفسيراً وتبريراً لحياتي الحمقاء في نظريات علماء ما، وفي الشخصيات الأدبية، وفي أننا نحن النبلاء مثلاً ننقرض وننحط وخلافة في الليلة الماضية مثلاً كنت أعزي نفسي بأن أفكر طوال الوقت: نعم كم هو محق تولستوى، محق بقسوة! وقد خفف هذا عني وبالفعل يا أخي، ياله من كاتب عظيم! مهما قلت عنه .

أحس صامويلنكو، الذي لم يقرأ تولستوى قط وينوي كل يوم أن يقرأه،بالحرج وقال :نعم، جميع الكتاب يكتبون من الخيال، أما هو فمن الطبيعة مباشرة فقال لايفسكى متنهداً

-يا إلهي، إلى أي حد أفسدتنا الحضارة! لقد أحببت امرأة متزوجة، وهي أيضاً أحبتنيفي البداية كان لنا قبلات، وأمسيات هادئة، وأيمان، وسبنسر ومثل عليا واهتمامات مشتركة يا للكذب! لقد هربنا في الواقع من زوجها،ولكننا كذبنا على أنفسنا بأننا نهرب من فراغ حياتنا الذهنية وبدا لنا مستقبلنا على هذا النحو في البداية نذهب إلى القوقاز، وإلى أن نتعرف على المكان والناس أرتدي الحلة الرسمية والتحق بالخدمة، ثم نأخذ قطعة أرض في مكان رحب، ونكد وتعرق، فنغرس كرماً، ونزرع حقلاً وخلافه ولو كنت أنت مكاني، أو صاحبك عالم الحيوان فون كورين، فربما عشتما مع ناديجدا فيودووفنا وتركتما لورثتكما كرماً وفيراً وألف ديسياتينا من الأذرة، أما أنا فأحسست أنى مفلس من أول يوم ففي المدينة حر لا يطاق، وملل ووحدة، وإذا خرجت إلىالحقل يتراءى لك تحت كل أيكة وحجر عناكب وعقارب وثعابين، أما وراء الحقل فليس إلا الجبال والصحراء أناس غرباء وطبيعة غريبة وكل هذا يا أخي ليس سهلاًمثل التنزه في شارع نيفسكى فيمعطف فراء، متأبطا ذراع ناديجدا فيودورفنا بينما تحلم بالأماكن البعيدة الدافئة هنا لا بدمن معركة حياة أو موت، وأي مناضل أنا؟ أنا بائس منهار الأعصاب، مرفهأدركتمن أول يوم أن أفكاري عن حياة الكد وعن الكروم لا تساوى لامة ظفر أما بخصوص الحب، فينبغي أن أقول لك إن العيش مع امرأة قرأت سبنسر، ومضت معك إلى آخر الدنيا، ليس طريفاً، تماماً مثل العيش مع أية أنفيسا فمنها أيضاً تفوح رائحة المكواة والعقاقير نفس ورق تجعيد الشعر كل صباح، وخداع النفس عينه

-المكواة لا غنى عنها في شئون البيت قال صامويلنكو وهو يتضرج لأن لايفسكى يتحدث معه بصراحه عن امرأة يعرفها أنت اليوم يا فانيا معتل المزاج كما ألاحظ ناديجدا فيودورفنا امرأة رائعة، مثقفة، وأنت شخص نادر الذكاء ومضى صامويلنكو يقول وهو يتلفت نحو الموائد المجاورة أنتما بالطبع لم تعقدا قرانكما، ولكن هذا ليس ذنبكما، وعلاوة على ذلك ينبغي أن نتجرد من التحيز ونقف على مستوى الأفكار الحديثة أنا أقف في صف الزواج المدني نعم، ولكني أعتقد أنه طالما اقترنتما فينبغي أن تعيشا معاً حتى الممات .

-بلا حب؟ فقال صامويلنكو :

-سأوضح لك الآن منذ حوالي ثماني سنوات كان لدينا هنا وكيل، رجل عجوز، نادر الذكاء وكان يقول: أهم شيء في الحياة الزوجية هو الصبر هل تسمعنى يا فانيا؟ ليس الحب، بل الصبر الحب لا يمكن أنيستمر طويلاًلقد عشت حوالي عامين في ظل الحب، والآن يبدو أن حياتك العائلية دخلتمرحلة عليك فيها، لكي تحافظ على التوازن، كما يقال، أن تستخدم كل ما لديك من صبر .

-أنت تؤمن بما قاله صاحبك الوكيل العجوز، أما بالنسبة لى فنصحيته هراءعجوزك كان بوسعه أن ينافق، كان بوسعه أن يتمرن على الصبر وفي الوقت نفسه ينظر إلى الشخص الذي لا يحبه باعتباره شيئاً ضرورياً لتمريناته، ولكني لم أسقط بعد إلى هذه الدرجة من الانحطاط

فإذا ما أردت أن أتمرن على الصبرفسأشتري أثقالاً حديدية أو حصاناً سريعاً، أما الإنسان فسأدعه في حاله .

طلب صامويلنكو نبيذا أبيض بالثلج وبعد أن شرب كل منهما كوباً سألهلايفسكى فجأة - :قل لي من فضلك، ما معنى تلين المخ؟.

-كيف أشرح لك إنه مرض يصبح المخ بسببه أكثر ليناً أكثر سيولةيعنى .

-هل يمكن علاجه؟ .

نعم، إذا لم يكن قد استشرى حمامات باردة، حشرات الذراح ثم بالطبعشيء ما باطنياً.

مفهومو هكذا فوضعى كا تربلا أستطيع أن أعيش معها، هذا فوق طاقتي أنا معك هنا أتفلسف وأبتسم، أما في البيت فأنهار تماماً أشعر بضيق لا يطاق إلى درجة أنه لو قيل لي مثلاً إنني لا بد أن أعيش معها ولو شهراً آخر لأطلقت على رأسى رصاصة كما أعتقد وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أهجرها فهي وحيدة، لا تقدر على العمل، وليس هناك نقود لدى أو لديها فإلى أين تذهب؟ إلى من تتوجه؟ لا أجد أي حل وهكذا فلتقل لي: ما العمل؟.

فدمدم صامويلنكو وهو لا يدري ماذا يقول :أم هل هي تحبك؟نعم، تحبني بالقدر الذي تحتاج فيه في سنها وبطبع كطبعها إلى رجل .

فسيكون من الصعب عليها أن تتركنى مثلما عليها أن تترك البودرة أو ورق تجعيد الشعر أنا بالنسبة لها جزء ضروري لا يتجزأ من غرفة نومها .

أحس صامويلنكو بالحرج فقال: أنت اليوم يا فانيا معتل المزاج. يبدو أنك لم تنم - .نعم، نمت نوماً سيئاً وعموماً يا أخي أشعر بحالتي في غاية السوء في رأسي فراغ، و قلبى متوقف، أحس بضعف لا أعرف كنهه يجب أن أهرب - !إلى أين؟

-إلى هناك، إلى الشمال إلى الصنوبر والفطر، إلى الناس، إلى الأفكار أنا مستعد أن أعطى نصف عمرى مقابل أن أستحم الآن في نهير في مكان ما بمحافظة موسكو أو تولا، وأشعر بالبرد، أتدرى، ثم أتسكع ثلاث ساعات ولو مع أبلد طالب وأثرثر، أثرثر ورائحة الدريس، ما أروعها! هل تذكر ؟ أما في الأمسيات، عندما تتجول في البستان، تتناهى إليك من البيت أنغام البيانو، وتسمع ضجيج قطار . وضحك لايفسكي من المتعة، وأغرورقت عيناه بالدموع، ولكى يدرايها،مد جسمه إلى الطاولة المجاورة ليأخذ كبريتاً دون أن ينهض من مكانه .

وقال صامويلنكو :

-أما أنا فلم أذهب إلى روسيا منذ ثمانية عشر عاماً نسيت كيف تبدو هناكأعتقد أنه ليس هناك مكان أروع من القوقاز .

-عند فيريشاجين صورة: في قاع بئر سحيقة ألقي بأشخاص حكم عليهم بالإعدام قوقازك الرائع يبدو لي مثل هذه البئر تماماً ولو خيرت بين أمرين: أن أكون منظف مداخن في بطرسبرج أو أميراً هنا لاخترت وظيفة منظفالمداخن .

واستغرق لايفسكي في التفكير وعندما نظر صامويلينكو إلى جسمه المحني، وعينية المحدقتين في نقطة واحدة، وإلى وجهه الشاحب العرقان وصدغيه الغائرين، وإلى أظفاره المقضومة، وإلى شبشبه الذي تدلى من كعبه فكشف جوربا قد رتق بصورة سيئة، أحس بالشفقة عليه، وربما لأن لايفسكى بدا له كطفل عاجز فقد سأله :

-هل أمك على قيد الحياة؟نعم، ولكننا افترقنا لم تستطع أن تغفر لي هذه العلاقة .

كان صامويلنكو يحب صديقه كان يرى في لايفسكى فتى طيباً، طالباً، وشخصاً نزيهاً، يمكن معه أن تشرب وتضحك وتتحدث بما في نفسك وكانت الجوانب التي يفهمها فيه هي التي لا تعجبه أبداً فقد كان لايفسكي يشرب كثيراً وفي الوقت غير المناسب، ويلعب الورق، ويحتقر وظيفته، ويعيش بأكثر مما يسمح به دخله، ويستخدم كثيراً في حديثه عبارات غير لائقة، ويسير في الشارع بالشبشب، ويتشاجر مع ناديجدا فيودوروفنا أمام الغرباء وهذامالم يكن يعجب صامويلنكو، أما أن لايفسكى كان في وقت ما طالباً بكلية الآداب، ومشتركاً الآن في مجلتين من المجلات السميكة

وكثيراً ما يتحدث بذكاء بحيث لا يفهمه إلا القليلون، ويعاشر امرأة مثقفة فكل هذا لم يكن صامويلنكو يفهمه، وكان يعجبه، وقد اعتبر لايفسكى أعلى منه واحترمه .

وقال لايفسكي وهو ينفض رأسه :

هناك شيء آخر وليكن هذا بيننا فقط مازلت أخفيه عن ناديجدا فيودورفينا فلا تتفوه به عرضاً أمامها لقد تلقيت منذ ثلاث أيام رسالة بأن زوجها توفي من تلين المخ .

فتنهد صامويلنكو وقال - :عليه الرحمة ولماذا تخفي عنها ذلك؟.

اطلاعها على الرسالة سيعني: تفضلي إلى الكنيسة لنعقد قراننا بينما أولاًينبغي أن نستوضح علاقتنا وعندما تتأكد من أننا لا نستطيع أن نعيش معاً سأريها الرسالة عندها لن يكون ذلك خطراً .

أتدري يا فانيا؟ - قال صامويلنكو واكتسى وجهه فجأة بتعبير حزين وضارع، كأنما كان ينوي أن يطلب شيئاً حلواً للغاية ويخشى أن يرفض طلبهتزوج يا عزيزى !.

-ما الداعى؟.

-قم بواجبك إزاء هذه السيدة الرائعة لقد مات زوجها، وهكذا فهذه هيالعناية الإلهية تشير لك بما يجب عمله !.

-يا لك من غريب! فلتفهم أن مستحيل الزواج عن غير حب انه عملوضيع وغير جدير بالإنسان تماماً كأن تؤم الصلاة وأنت غير مؤمن .

ولكن ذلك واجب عليك! فسأل لايفسكى بعصبية :ولماذا هو واجب على؟لأنك أخذتها من زوجها وأصبحت مسؤولاً عنهاولكني أقول لك باللغة الروسية: أنا لا أحبهاإذا لم يكن هناك حب فلتحترمها، ولتبهجها فقال لايفسكى مقلداً نبرته بسخرية :

فلتحترمها،ولتبهجها كأنها هي كبيرة الراهبات أنت سيكولوجى وفسيولوجي سيئ إذا كنت تعتقد أنك يمكن أن تعيش مع امرأة على الاحترام والإبهاج فقط المرأة بحاجة قبل كل شيء إلى غرفة نوم .

فقال صامويلنكو بخجل :فانيا، فانياأنت طفل عجوز، منظر، أما أنا فعجوز شاب، وعمل، ولن يفهم أحدناالآخر أبداً من الأفضل أن نترك هذا الحديث وصاح لايفسكي النادل يا خوروف، كم حسابنا؟.

فانزعج الدكتور وأمسك بذارع لايفسكى لا، لاأنا سأدفع أنا الذي طلبت ـ وصاح بخوروف سجله علىحسابى .

نهض الصديقان وسارا في صمت على الكورنيش وتوقفا عند مدخلالبوليفار وصافحا بعضهما بعضاً مودعين .

وقال صامويلنكو متنهداً

-كمأنتم مدللون أيها السادة! لقد ساقت لك الأقدار امرأة شابة، جميلة، مثقفة، وإذا بك ترفضها، ولو أعطاني الله ولو عجوزاًمهدمة، بشرط أن تكون رقيقة وطيبة، لما وسعتني الدنيا من الفرحة! ولعشت معها في كرمنا وواستدرك صامويلنكو فقال :ولتعدلى الشاي، هذه الساحرة الشمطاء .

وودع لايفسكى ومضى في البوليفار وعندما سار في البوليفار، رزيناً،مهيباً، بتعبير صارم على الوجه، وفي سترته البيضاء الناصعة وحذائه الطويل الملمع بصورة ممتازة، وقد نفخ أمامه صدره المزدان بوسام فلاديمير، في تلك اللحظة أحس بإعجاب شديد بنفسه، وخيل إليه أن العالم كله ينظر إليه بسرور .

وتطلع حواليه دون أن يدير رأسهفوجد أن البوليفار منسق جيداً، وأن أشجار السرو الفتية والكافور، والنخل القبيح الأعجف جميلة جداًوسوف تنشر بمضى الزمن ظلالها الوارفة، وأن الشركس قوم شرفاء وكرماء وفكر في نفسه :

من الغريب أن القوقاز لا يعجب لا يفسكى، غريب جداً .

وقابله خمسة جنود يحملون البنادق فأدوا له التحية وعلى الرصيف الأيمنللبوليفار مرت زوجة أحد الموظفين مع ابنها التلميذ .

فصاح صامويلنكو محيياً وهو يبتسم بارتياح :

-صباح الخير يا ماريا قسطنطينوفنا! هل كنت تستحمين؟ها هاهاتحياتي لنيكوديم ألكسندريتش !وواصل سيره وهو لا يزال يبتسم بارتياح، ولكنه عندما رأى ممرضاً عسكرياً يسير في اتجاهه عبس فجأة واستوقفه وسأله:

-هل هناك أحد في المستشفى؟لاأحد يا صاحب المعالي .

هيه؟ لا أحديا صاحب المعالي حسناً، انصرف .

واتجه وهو يتأرجح بعظمة إلى كشك مرطبات، حيث كانت تجلس امرأة يهودية عجوز كبيرة الصدر، وتدعي أنها جورجية،وقال لها بصوت عال وكأنه يقود فوجاً :

-لو سمحت رجاء، أعطينى ماء صودا !

كان عدم حب لايفسكي لناديجدا فيودورفنا يتجلى أساساً في أن كل ما كانتتقوله وتفعله يبدو له كذبا أو شبيها بالكذب، وكل ما كان يقرأه ضدالنساء والحب بدا له منطبقاً أكثر شيء عليه وعلى ناديجدا فيودوروفنا وعلى زوجها وعندما عاد إلى البيت كانت جالسة بجوار النافذة، وقد ارتدت ملابسها وصففت شعرها، تشرب القهوة بوجه مهموم وتقلب صفحات عدد من مجلة سميكة، ففكر لايفسكي بأن شرب القهوة ليس حدثاً بهذه الأهميةالتي تستدعي إضفاء تعبير الهم على الوجه، وأنها عبثاً ضيعت الوقت في تسريحة موضة

لأنه لا يوجد هنا من يبدى إعجابه ولا حاجة لذلك وفي عدد المجلة رأى كذباً أيضاًوفكر أنها تتأنق وتصفف شعرها لكي تبدو جميلة، وتقرأ لكيتبدو ذكية .

وسألته:هل هناك مانع في أن أذهب اليوم للاستحمام؟.

حسناً لو ذهبت أو لم تذهبي فلا أظن أن زلزالاً سيحدث بسببذلك.

- لا،ولكني أسأل لأني أخشى أن يغضب الدكتور اسألى الدكتور إذن أنا لست دكتوراً .

في هذه المرة كان أكثر شيء لم يعجب لايفسكي في ناديجدا فيودورفنا عنقها الأبيض المكشوف وخصلاتها المجعدة على قفاها، فتذكر أن آنا كارينينا عندما لم تعد تحب زوجها لم يعجبها فيه قبل كل شيء أذناه، ففكر: كم هذاصحيح كم هو صحيح وأحس بضعف وخواء ذهني فاتجه إلى غرفة مكتبه، واستلقي على الكنبة، وغطى وجهه بمنديل لكيلا يزعجه الذبابو امتدت في ذهنه أفكار ذابلة متثاقلة عن نفس الشيء كقافلة عربات طويلة في مساءخريف مطر، فاستولت عليه حالة قهر وخمولوخيل إليه أنه مذنب في حق ناديجدا فيودورفنا وزوجها، وأن زوجها مات بسببه خيل إليه أنه مذنب في حق حياته هو التي أفسدها، في حق عالم الأفكار السامية والمعارف والعمل، فبدا له هذا العالم الرائع ممكناً وموجوداً ليس هنا، على شاطئ البحر، حيث يتسكع الأتراك الجوعى والأبخازيون الكسالى، بل هناك، في الشمال، حيث الأوبرا والمسارح والصحف وكل صور النشاط الذهني لا يمكن للإنسان أن يكون شريفاً، ذكياً، سامياً وطاهراً إلا هناك وليس هنا

واتهم نفسه بأنه ليست لديه مثل عليا وفكرة موجهة في الحياة، رغم أنه كان يفهم ذلك الآن بصورة غامضة فمنذعامين، عندما أحب ناديجدا فيودوروفنا، بدا له أنه ما إن يتحد بها ويسافر معها إلى القوفاز حتى ينجو من وضاعة الحياة وخوائها؛ وها هو ذا الآن أيضاً واثق من أنه ما إن يهجر ناديجدا فيودوروفنا ويرحل إلى بطرسبرج حتى يحصل على كل ما يحتاج إليه .

-الهرب - دمدم وقد جلس وأخذ يقضم أظفاره - الهرب !.

وتصور في خياله كيف يستقل السفينة، ثم يفطر، ويشرب البيرة المثلجة يتحدث على السطح مع السيدات، ثم يستقل القطار في سيفاستوبول ويرحل مرحباً أيتها الحرية! وتمرق المحطات الواحدة تلو الأخرى، ويصبح الهواء أكثر برودة وصلابة، وها هي ذي أشجار البتولا والشوح، ها هي ذى كورسك، وموسكو وفي المقاصف حساء الكرنب، وضأن بالعصيدة، وسمك الحفش، والبيرة، وباختصار ليست تلك النواحي الآسيوية، بل روسيا، روسيا الحقيقية! والمسافرون في القطار يتحدثون عن التجارة والمطربين الجدد، وعن الميولالفرنسية الروسية وفي كل مكان تحس بالحياة المثقفة، المهذبة، الحية، النشطة بسرعة، بسرعة وها هو ذا أخيراً شارع نيفسكى، وشارع البحر الكبير ، وهاهي ذي حارة كوفنسكى، حيث كان يعيش مع الطلبة في وقت ما، وها هي ذي السماء الرمادية الحبيبة، ورذاذ المطر، والحوذية المبتلون .

وصاح أحد ما في الغرفة المجاورة: إيفان أندريتش؟ هل أنتم هنا؟ فأجاب لايفسكى - :أنا هنا! ماذا تريد؟ - أوراق.

نهض لايفسكى بكسل، وبدوار في رأسه، ومضى إلى الغرفة المجاورة وهو يتثاءب ويقرقع بالشبشب وعند النافذة المفتوحة وقف في الشارع أحد زملائه الموظفين من الشبان وهو يرتب على حافة النافذة أوراقاً رسمية .

لحظة يا عزيزى - قال لايفسكى بنعومة وذهب ليبحث عن المحبرة،وعندما عاد إلى النافذة وقع على الأوراق دون أن يقرأها وقال حر !.

-نعم هل ستأتون اليوم إلى العمل؟.

لاأعتقد متعب قليلاً قل يا عزيزى لشيشكوفسكى إنني سأمر عليهبعد الغداء .

انصرف الموظف واستلقى لايفسكى من جديد على الكنبة في غرفة مكتبةوأخذ يفكر :إذن، ينبغي أن أزن جميع الأمور وأتدبرها قبل أن أرحل ينبغي أنأسدد ديوني أنا مدين بحوالي ألفي روبل وليس لدى نقود بالطبع ليس هذامهما سأدفع الآن جزءاً كيفما كان، والباقي أرسله بعد ذلك من بطرسبرج. المهم ناديجدا فيودورفنا قبل كل شيء ينبغي أن نستوضح علاقاتنا نعموبعد فترة قصيرة فكر: أليس من الأفضل أن أذهب إلى صامويلنكوللتشاور؟.

وقال في نفسه: من الممكن أن أذهب، ولكن أي فائدة من ذلك؟ سأحدثه مرة أخرى بلا مناسبة عن غرفة النوم، وعن النساء، وعما هو شريف وغير شريف يا للشيطان

أية أحاديث يمكن أن تكون عما هو شريف وغير شريف إذا كان من الضروري إنقاذ حياتي بسرعة إذا كنت أختنق في هذا السجن اللعين وأقضى على نفسي؟على في النهاية أن أفهم أن الاستمرار في حياة كحياتى وضاعة يتضاءل أمامها كل شيء آخر ينبغي أن أهربدمدم وهو يجلس أن أهرب .

أدخل منظر الشاطي المقفر، والقيظ المحرق، ورتابة الجبال الملفعة بغلالة ضبابية ليلية، والمتشابهة والصامتة أبداً، والوحيدة أبداً، على نفس لايفسكى الوحشة، وخيل إليه أنها تخدره وتسرقه وربما كان ذكياً جداً، موهوباً وشريفاً بدرجة رائعة، وربما لو لم تحصره الجبال والبحر من جميع الجهات لأصبح شخصية محلية ممتازة أو رجل دولة وخطيباً أو كاتباً صحفياً، أو مناضلاًمن المتحمسين الغيورين من يدرى! وإذا كان الأمر كذلك فأليس من الغباء أن تناقش ما إذا كان عملاًشريفاً أم غير شريف إذا ما قام إنسان موهوب أو نافع، كالموسيقار أو المصور مثلاً، بكسر جدار السجن وخداع حراسه كى يهرب من الأسر؟ كل شيء شريف بالنسبة لإنسان في وضع كهذا .

فيالساعة الثانية جلس لايفسكي وناديجدا فيودورفنا إلى مائدة الغداءوعندما قدمت لهما الطاهية حساء أرز بالطماطم قال لايفسكى :

-كل يوم نفس الشيء لماذا لا تطهون حساء كرنب؟لا يوجد كرنبغريبة عند صامويلنكو يطهون حساء كرنب، وعند ماريا قسطنطين وفن احساء كرنب، أنا الوحيد الذي يجب عليه لسبب ما أن يأكل هذا السائل المائع المسكر لا يصح هذا يا عزيزتي

ومثلها لدى الغالبية العظمى من الأزواج لم يكن أي غداء لدى لايفسكى وناديجدا فيودورفنا قبلاً يخلو من النزوات والمشاحنات، ولكن منذ أن قرر لايفسكى أنه لم يعد يحبها فقد حرص على أن يتنازل أمامها في كل أمر، وكانيخاطبها بنعومة وأدب، ويبتسم ويناديها عزيزتي .

وقال وهو يبتسم :

-هذا الحساء يشبه بمذاقه عرق السوس وأجبر نفسه على أن يبدو بشوشاً ولكنه لم يصبر فقال لا أحد عندنا يراعي شئون البيت إذا كنت مريضة إلى هذه الدرجة أو مشغولة بالقراءة فليكن، سأتولى أنا شئون المطبخوكانت قبلاً قدترد عليه: تولها أو أنت كمايبدو تريد أن تجعل منيطاهية أما الآن فقد نظرت إليه فقط بتهيب، وتضرج وجهها.

فسألها برقة: حسناً، كيف حالك اليوم؟اليوم لا بأس فقط ضعف بسيط يجب أن تحافظي على نفسك يا عزيزتي أنا خائف عليك جداً .

كانت ناديجدا فيودورفنا مريضة بشيء ما وقال صامويلنكو إن عندها حميمنقطعة وأخذ يطعمها الكينا أما الطبيب الآخر، والمدعو أو ستيموفيتش، وهو رجل طويل القامة، نحيف، منعزل عن الناس، يجلس نهاراً في البيت ويخرج مساء ويتجول على الكورنيش بهدوء عاقداً يديه خلفه ومادّاً عصا بطول ظهره ويسعل، فقد وجد لديها مرضاً نسائياً ووصف لها كمادات ساخنة

وفي السابق، عندما كان لايفسكي يحب ناديجدا فيودوروفنا، كان مرضها يثير شفقته وخوفه، أما الآن فكان يرى الكذب حتى في مرضهافالوجه الأصفر النعسان،والنظرات الذابلة والتثاؤب، التي كانت تطرأ على ناديجدا فيودوروفنا، بعد نوبات الحمى، وتدثرها أثناء النوبة بالحرام بحيث تبدو أكثر شبهاً بصبي منها بامرأة، واختناق الجو في غرفتها ورائحتها غير الطيبة كل ذلك كان في رأيه محطما للأوهام ومضاداً للحب والزواج .

وكان الطبق الثاني الذي قدم إليه هو سبانخ بالبيض المسلوق، أما ناديجدا فيودوروفنا فقدم إليها، كمريضة، مهلبية فواكه مع اللبن وعندما لمست المهلبية بالملعقة في البداية بوجه مهموم، ثم أخذت تتناولها بكسل وتبلعها باللبن فيسمع لايفسكى بلعاتها، تملكته كراهية شديدة حتى إنه أحس بحك في رأسه كان يعي أن مثل هذا الشعور يمكن أن يكون مهيناً حتى تجاه كلب، إلا أنه لم يكن مستاء من نفسه بل من ناديجدا فيودوروفنا لأنها هي التي أثارت فيه هذا الشعور، وأدرك السبب الذي يدفع بالعشاق أحياناً إلى قتل عشيقاتهم. وما كان هو بالطبع ليقتل، ولكن لو أنه أصبح في مكان محلف لبرأ القاتل .

Merciيا عزيزتيقال بعد الغداء وقبل ناديجدا فيودوروفنا في جبينها .

وعندما دخل غرفة مكتبه ظل يذرعها من ركن لركن حوالي خمس دقائق،وهو يتطلع بطرف عينه إلى الحذاء الطويل، ثم جلس على الكنبة ودمدم :الهرب، الهرب! استيضاح علاقاتنا، ثم الهرب !.

استلقي على الكنبة وتذكر من جديد أن زوج ناديجدا فيودوروفنا قد ماتربما بسببه .وأخذ يقنع نفسه وهو مستلق رافعاً ساقيه لكي يرتدي الحذاء الطويل :

من الغباء تحميل إنسان الذنب لأنه أحب أو لم يعد يحب الحب والكراهية لا يخضعان لسلطاننا أما بخصوص زوجها فربما أكون، بصورة غير مباشرة، أحد أسباب موته، ولكن هل أنا مذنب في أنني أحببت زوجته وهي أحبتنى؟.

ثم نهض وتناول عمرته، وخرج متوجها إلى زميله شيشكوفسكي الذي كانالموظفون يجتمعون عنده يومياً للعب الورق وتناول البيرة المثلجة .

وفكر لايفسكى وهو سائر في الطريق: إنني أشبه هملت في ترددى كم كان

شكسبير على حق في ملاحظته! أوه كم كان على حق.

لكي يتجنب الدكتور صامويلنكو الملل، واستجابة منه لحاجة الوافدين الجدد والعزاب، الذين لم يكن لديهم مكان يتغدون فيه لعدم وجود فنادق في المدينة، فقد فتح في بيته شيئاً أشبه بالتابل دوتوفي الوقت الذي نروى عنه كان يتناول الطعام لديه شخصان فقط: عالم الحيوان الشاب فون كورين، الذي كان يأتي صيفاً إلى البحر الأسود لدراسة علم أجنة قناديل البحر، والشماسبوبيدوف، الذي تخرج حديثاً من المعهد الديني وأرسل إلى هذه المدينة الصغيرة في مهمة ليتولى أعمال الشماس العجوز المسافر للعلاج وكان كل منهما يدفع اثنى عشر روبلاً في الشهر مقابل الغداء والعشاء، وأخذ صامويلنكو منهما عهداً بأنهما سيجيئان للغداء في الساعة الثانية دون تأخير

وفي العادة كان فون كورين يأتي أولاً يجلس صامتاً في غرفة الجلوس ويتناول ألبوماً من فوق الطاولة ويتفحص باهتمام الصور الباهته لرجال ما غير معروفين بسراويل عريضة وقبعات أسطوانية وسيدات بتنورات مبطنة بالأسلاك وقلنسوات ولم يكن صامويلنكويذكر إلا أسماء القليلين منهم، أما أولئك الذين نسيهم فيقول عنهم متنهداً رجل رائع، نادر الذكاء وبعد أن يفرغ فون كورين من الألبوم يتناول مسدساً من الرف، ويزر عينه اليسرى ويسدده طويلاً إلى صور الأمير فورونتسوف، أو يقف أمام المرآة ويتأمل وجهه الأسمر وجبينه العريض وشعره الأسود المجعد كشعر الزنجي، وقميصه المصنوع من قماش شيت كابى اللون بأزهار كبيرة، والذي يشبه سجادة عجمية، وحزامه الجلدي العريض الذي يحل محل الصديرى وكان تأمل النفس يجلب له متعة لا تكاد تقل عن متعةوجبة طعام تقدم في وقت معين وبسعر محدد.

تفحص الألبوم أو المسدس ذى الحلية الثمينة كان في غاية الرضا عن وجهه، وعن لحيته الجميلة المقصوصة، وعن كتفيه العريضتين اللتين كانتا دليلاًواضحاًعلى صحته الجيدة وبنيانه القوي وكان راضياً عن بدلته الأنيقة ابتداء برابطة العنق المختارة حسب لون القميص، وانتهاء بالحذاء الأصفر .

وبينما هو يتفحص الألبوم أو يقف أمام المرآة يسعى صامويلنكو في هذه الأثناء في المطبخ أو بجواره، في المدخل بدون سترة وصديرى، عريان الصدر، منفعلاً والعرق يتصبب منه، ويدور حول الطاولات

وهو بعد السلاطة أو صلصة ما، أو يقطع اللحم والخيار والبصل لحساء الأكروشكا، وفي الوقت نفسه يحملق بعينين جاحظتين غاضبتين في جندى المراسلة الذي يعاونه ويلوح له مهدداً تارة بالسكين وتارة بالملعقة ويأمره :

-هات الخل! لا، ليس الخل بل الزيت ويصيح فيه ويدق بقدميه - إلىأين يا حيوان؟

فيقول اجلندي المأخوذ بصوت رفيع متحشرجلأحضر الزيت يا صاحب المعالي .

-بسرعة إنه في الصوان! وقل لداريا أن تضع بعض الشبت في برطمانالخيار! الشبت! غلط القشدة يا مسطول وإلا سقط فيها الذباب.

وبدا أن البيت كله يئز من صراخه وقبل أن تبلغ الساعة الثانية بعشر أو خمس عشرة دقيقة يأتي الشماس،وهو شاب، في حوالي الثانية والعشرين،نحيل، طويل الشعر، بلا لحية، وبشارب لا يكاد يلحظوعندما يدخل غرفة الجلوس يرسم علامة الصليب في اتجاه الأيقونة،ويبتسم، ويمد يده إلى فون كورين .

فيرد عالم الحيوان ببرود.

مرحباًأين كنت؟في المرفأ كنت اصطاد السمكمفهوم طبعاWيبدو لي أيها الشماس أنك لن تزاول عملاً أبداً فيقول الشماس وهو يبتسم ويدس يديه في جيبي قفطانه الأبيض العميقين لغاية

ولم لا؟ العمل ليس دباً لن يهرب إلى الغابة فيتنهد عالم الحيوانلا يوجد من يؤدبك !وتمر خمس عشرة أو عشرون دقيقة أخرى دون أن يدعوهما أحد إلى الغداء، ولا يزال يسمع وقع حذاء الجندي وهو يجري من المدخل إلى المطبخ وبالعكس، وبينما صامويلنكو يصيح :

-ضعه على الطاولةإلى أين تمده؟ اغسله أولاً ويبدأ الشماس وفون كورين، وقد شعرا بالجوع، في دق الأرض بكعوبها، معربين بذلك عن نفاد صبرهما كالمشاهدين في أعلى المسرح وأخيراً يفتح الباب ويعلن الجندي المعذب: الأكل جاهز وفي غرفة الطعام يستقبلهم صامويلنكو، محمراً، متفصداًعرقاً بسبب جو المطبخ الخانق، وغاضباً وينظر إليهما بغل، ثم يرفع غطاء وعاء الحساء والرعب يكسو وجهه، ويصب لكل منهما طبقاً، وبعد أن يتأكد أنهما يأكلان بشهية وأن الطعام يعجبهما، عندها فقط يتنفس الصعداء ويجلس في فوتيله العميق ويصبح وجهه ساهماً، مداهناً ويصب لنفسه على مهل كأساً من الفودكا ويقولفي صحة الجيل الجديد.

وبعد حديثه اليوم مع لايفسكى ظل صامويلنكو طوال الوقت من الصباح إلى الغداء، ورغم مزاجه الرائع، يشعر في قرارة نفسه بانقباض مبهم كان يشفقعلى لايفسكى ويرغب في مساعدته وبعد أن شرب قبل الحساء كأس فودكا تنهد وقال :رأيت اليوم فانيا لا يفسكى مسكين، شقى في حياته الناحية المادية لديه لا تبشر بخير، والأهم من ذلك أن الناحية السيكولوجية سحقته إنني أشفق على هذا الشاب فقال فون كورين

-هذا هو من لا أشفق عليه لو أن هذا الرجل اللطيف أوشك على الغرق لدفعته بالعصا: اغرق يا أخي، اغرق .

-غير صحيح ما كنت لتفعل ذلك فهز عالم الحيوان كتفيه وقالولماذا تظن ذلك؟ أنا أيضاً، مثلك، قادر على عمل الخير فسأل الشماسوهل إغراق إنسان عمل خير؟ وضحكإذا كان لايفسكى؟ نعم فقال صامويلنكو رغبة منه في تغيير مجرى الحديث :يبدو أن الأكروشكا ينقصها شيء ما فمضى فون كورين يقول:

-لايفسكى بلا شك ضار وخطر على المجتمع مثل ميكروب الكوليراوإغراقه خدمة .

-ليس مما يشرفك أن تقول هذا عن قريب لك خبرنى، لماذا تكرهه إلى هذا الحد؟ .

-لا تقل كلاماً فارغاً يا دكتور إن كراهية ميكروب أو احتقاره حماقة، أما أن نعتبر من الأقربين كل من هب ودب دون تمييز ومهما كان الأمر، فكلا، أشكركم، إن هذا يعني ألا نناقش ونفكر، معناه التخلي عن الموقف العادل تجاه الناس أي نفض اليدين باختصار إنني أعتبر لايفسكى صاحبك وغداًولا أخفيذلك، وأنظر إليه كوغد بكل ما في من استقامة أما أنت فتعتبره من أقربائك، حسناً فلتعانقه ولتقبله تعتبره من الأقربين، وهذا معناه أنك تنظر إليه كما تنظر إلى وإلى الشماس

أي لا نظرة أنك عديم الاكتراث بالجميع على حد سواء .

فدمدم صامويلنكو وهو يقطب مشمئزاًتسمى الإنسان وغداً هذا معيب إلى درجة لا أستطيع أن أصفها لك! فاستطرد فون كورين :

-الناس تحاكم بتصرفاتها فلتحكم أنت يا شماس سوف أتحدث إليك فنشاط السيد لايفسكى مبسوط أمامك بوضوح كمخطوط صينى طويل، وبوسعك أن تقرأه من أوله إلى آخره فما الذي فعله خلال عامين من إقامته هنا؟ فلنعد ذلك على الأصابع أولاً: علم أهل المدينة لعبة الفنت ولم تكن هذه اللعبة معروفة هنا منذ سنتين، أما الآن فالجميع، حتى النساء والمراهقون، يلعبون الفنت من الصباح إلى ساعة متأخرة من الليل وثانياً: علم البرجوازيين الصغار شرب البيرة، التي لم تكن معروفة هنا أيضاً والبرجوازيون مدينون له كذلك بمعرفة شتى أنواع الفودكا، حتى إنهم يستطيعون الآن بأعين مغمضة أن يميزوا فودكا كوشيليف عن فودكا سميرنوف رقم واحد وعشرين وثالثاً: كانوا هنا سابقاً يعاشرون زوجات الآخرين سراً، لنفس الاعتبارات التي بسببها يسرق اللصوص سراً لاعلانية، فقد كان الزنى بعد شيئاً يخجل الناس من عرضه للفرجة العامة أما لايفسكى فكان رائداً في هذا الصدد: فهو يعاشر زوجة رجل آخر بصورة سافرة ورابعاً أكل فون كورين حساءه بسرعه وأعطى الطبق الفارغ للجنديومضيقول مخاطباً الشماس :

لقد فهمت لايفسكي من الشهر الأول لتعارفنا جئنا إلى هنا فيوقت واحد والناس من أمثاله يحبون جداً التصادق والتقارب والتضامن وما إلى ذلك، لأنهم دائماًبحاجة إلى صحبة للعب الفنت وللشراب والطعام، وفوق ذلك فهم ثرثارون وبحاجة إلى مستمعين وتصادقنا،أعني أنه كان يتسكع عندي كل يوم، فيعوقني عن العمل ويتصارح معي بخصوص خليلته ومنذ الوهلة الأولى أذهلني زيفه إلى درجة أثارت في الغثيان وكصديق أنبته: لماذا يشرب كثيراً، ولماذا ينفق أكثر من دخله ويستدين، ولماذا لا يفعل ولا يقرأ شيئاً، ولماذا هو ضعيف الثقافة إلى هذا الحد وقليل المعرفة، فكان يرد على كل أسئلتي بابتسامة مريرة ويتنهد ويقول: أنا فاشل، أنا إنسان ضائع أو ماذا تريد منا يا أبتاه، نحن حطام نظام القنانة؟، أو إننا ننقرض أو يشرع في التفوه بهراء طويل عن أونيجين وبتشورين وقابيل بايرون وبازاروف، الذين كان يقول عنهم: إنهم آباؤنا جسداً وروحا وكأنما يريد منا أن نفهم أنه ليس المذنب في أن المظاريف الرسمية تتكدس بالأسابيع دون أن يفتحها، وفي أنه يشرب ويسكر الآخرين، بل المذنب في ذلك أونيجين وبتشورين وتورجينيف الذي خلق نموذج الإنسان الفاشل الضائع وكما يرى، فإن سبب الانحلال الفائق وسوء السلوك ليس فيه نفسه، بل في مكان ما خارجه، في الفضاء وعلاوة على ذلك ويا لها من حيلة بارعة فليس هو وحده المنحل والمزيف والوضيع، بل نحن نحن جيل الثمانينيات، ونحن ذرية عصر القنانة، الذابلة العصبية يفجيني أونيجين بطل رواية شعرية للشاعر الروسي بوشكين تحمل نفس الاسم

وبتشورين بطل رواية بطل من هذا الزمان للشاعر الروسي، خليفة بوشكين، ميخائيل اليرمنتوف وكلا البطلين نموذج للجيل الضائع في أوائل القرن التاسع عشر في ظروف حكم القيصر المطلق وقابيل بطل قصيدة مسرحية تحمل نفس الاسم للشاعر البريطاني اللورد بايرون أما بازاروف فبطل رواية الكاتب الروسي إيفان تورجينيف.

الآباء والأبناء

نحن شوهتنا الحضارة وباختصار فعلينا أن نفهمأن رجلاً عظيماً مثل لايفسكى عظيم حتى في سقوطه؛ وإن انحلاله،وضحالته ودناءته تعتبر ظاهرة تاريخية طبيعية تمليها الضرورة، وأن الأسباب هنا عالمية، عفوية، وأنه علينا أن نعلق أمامه قنديلاً لأنه ضحية نحس الزمن والاتجاهات والوراثة وما إلى ذلك وكان الموظفون والسيدات جميعاً يصغون إليه يتأوهون ويتنهدون، أما أنا فلم أستطع لفترة طويلة أن أفهم مع من أتعامل مع عياب ساخر أم مع نصاب بارع؟ إن هذه الأنماط من أمثاله الذين يبدون من الخارج مثقفين، مهذبين قليلاً والذين يتحدثون كثيراً عن نبلهم، يجيدون التظاهر بأنهم شخصيات معقدة للغاية .

فانفجر صامويلنكو :اسكت! لن أسمح في حضورى بأن يتحدث أحد بسوء عن رجل منأنبل الناس !

فقال فون كورين ببرود :

لا تقاطعني يا ألكسندر دافيد يتشسأفرغ من كلامى حالاً إن لايفسكى كيان غير معقد أبداً وإليك إطاره الأخلاقي: في الصباح الشبشب والاستحمام والقهوة، ثم بعد ذلك وحتى الغداء الشبشب والتريض والأحاديث، في الساعة الثانية الشبشب والغداء والخمر، وفي الخامسة الاستحمام والشاي والخمر، ثم الفنت والكذب، وفي العاشرة العشاء والخمر، وبعد منتصف الليل النوم وجود محصور في هذا البرنامج الضيق كالبيضة في القشرة وسواء كان يسير، أو يجلس، أو يغضب، أو يكتب، أو يفرح فكل شيء يؤول إلى الخمر والورق والشبشب والمرأة والمرأة تلعب في حياته دوراً مشؤوماً كاسحاً وهو نفسهيروي أنه أصبح عاشقاً وهو بعد في الثالثة عشرة من عمره وعندما كان طالباً بالصف الأول الجامعي عاشر سيدة، كان لها تأثير مفيد عليه.

ويدين لها بثقافته الموسيقية وفي الصف الثاني حرر بالنقود بغياً من بيت دعارة ورفعها إلى مستواه، أي اتخذها خليلة، أما هي فعاشت معه نصف عام وهربت لتعود ثانية إلى صاحبة البيت، وسبب له هذا الهرب كثيراً من المعاناة الروحية ويا للحسرة، لقد عاني إلى درجة أنه اضطر إلى ترك الجامعة والعيش سنتين بلا عمل في بيت أهله ولكن ذلك كان مفيداً فقد عاشر في البيت أرملة نصحته بأن يترك كلية الحقوق ويلتحق بكلية الآداب وهذا مافعله وبعد أن تخرج من الكلية أحب بشغف صاحبته الحالية ما اسمها؟ تلك المتزوجة

وكان عليه أن يهرب بها إلى هنا، إلى القوقاز كأنما سعيا وراء المثل العليا واليوم أو غداً سيكف عن حبها ويهرب عائداً إلى بطرسبرج، وأيضاً سعياً وراء المثل العليا .

فدمدم صامويلنكو وهو يحدق بغل في عالم الحيوان: ومن أين لك أن تعرف ؟ كل أحسن .

وقدم لهم سمك البورى المسلوق بالصلصة البولندية ووضع صامويلنكو لكل من نزيليه سمكة كاملة وصب عليها الصلصة بنفسه ومرت دقيقتان في صمت .

ثم قال الشماس - :المرأة تلعب دوراً جوهريًا في حياة كل إنسان ولا حيلة لنا في ذلك .

نعم، ولكن إلى أي مدى؟ المرأة لدى كل منا أم وأخت وزوجة، وصديق، أما لدى لايفسكى فهى كل شىء، وفي الوقت نفسه هي عشيقة فقط فهى، أي معاشرتها، سعادة حياته وغرضه إنه مرح، حزين، ضجر، خائب الأمل بسبب المرأة فإذا سئم الحياة فالمرأة هي المذنبة، وإذا أشرق فجر حياة جديدة، وظهرت المثل العليا المفقودة، فلنفتش هنا أيضاً عن المرأة ولا ترضيه إلا الكتابات أو الصور التي توجد فيها امرأة وعصرنا في رأيه سيئ وأسوأ من الأربعينيات أو الستينيات فقط لأننا لا نعرف كيف نستسلم لنشوة الغرام وشهوته إلى درجة الذهول

ويبدو أن لدى طالبي اللذة هؤلاء نتوءاً خاصاً في المخ مثل الورم اللحمى الخبيث، سحق مخهم ويتحكم في كل سيكولوجيتهم فلتراقب لايفسكى عندما يجلس في أحد المجتمعات ولتلاحظ أنه عندما تثير أمامه قضية ما عامة، حول الخلية مثلاً أو الغريزة، فستجده يجلس بعيداً، صامتاًولا يسمع ومنظره ساهم، خائب الأمل، لا شيء يثير اهتمامه، وكل شيء وضيع وتافه ولكن ما إن تتحدث عن الإناث والذكور، عن أن أنثى العنكبوت مثلاًتأكل الذكر بعد عملية الإخصاب، حتى تلمع عيناه بالفضول، ويتهلل وجهه، وباختصار يستيقظ فيه الإنسان إن كل أفكاره، مهما كانت نبيلة وسامية أو لا مبالية، لها دائماً نقطة التقاء مشتركة فإذا سرت معه في الشارع وصادفكما حمار مثلاً قل لي لو سمحت يسألك لايفسكى ماذا يحدث لو جامع الجمل حمارة؟ وأحلامه! هل روي لك أحلامه؟ إنها رائعة! فمرة يحلم بأنهم يزوجونه من القمر، ومرة يستدعونه إلى الشرطة ويأمرونه هناك بأن يتزوج من قيثارة.

وقهقه الشماس بضحكات رنانة، أما صامويلنكو فقد عبس وقطب وجهه بغضب لكيلا يضحك، ولكنه لم يتمالك نفسه فقهقه .

وقال وهو يمسح دموعهكذاب على طول الخط أي والله كذاب؟ كان الشماس ضحوكاً جداً، يضحك لأي سبب تافه إلى حد الألم في الجنب،إلى حد الإغماء وبدا كأنما لم يكن يحب الاختلاط بالنساء لأن فيهم جوانب مضحكة ولأن من الممكن إطلاق أسماء مضحكة عليهم وقد سمى صامويلنكو بالعنكبوت وجندي مراسلته بذكر البط

وتملكه الإعجاب عندما وصف فون كورين كلاً من لايفسكى وناديجدا فيودورفنا ذات مرة بالنسانيس وكان يحدق في الوجوه بنهم ويصغي دون أن تطرف عيناه، ويبدو بوضوح كيف تمتلئ عيناهبالضحك، وكيف يتوتر وجهه في انتظار اللحظة المناسبة لينفلت مطلقاً عنان الضحكات .

ومضى عالم الحيوان يقول بينما حملق فيه الشماس بعينين نهمتين في انتظاركلمات مضحكهإنه نمط فاسق وفاسد ومن النادر أن تجد مثل هذا التافه إنه ذابل الجسد، خائر، عجوز، أما ذهنه فلا يتميز عن ذهن تاجرة سمينة لا تفعل شيئاً سوى أن تأكل وتشرب وتنام على فراش من الريش وتتخذ من حوذيها عشيقاً .

وقهقه الشماس من جديد .

فقال فون كورين :

-لا تضحك يا شماس، فهذه، في النهاية، حماقة منك ثم انتظر حتى كف الشماس عن الضحك واستطرد ما كنت لألتفت إلى تفاهته، ولكنت تجاهلته، لو لم يكن ضاراً و خطراً إلى هذا الحد وضرره يتجلى قبل كل شيء في أنه يحوز على إعجاب النساء، وبالتالي فهناك احتمال بأن تكون له ذرية، أي أن يهدي العالم دستة من آل لايفسكى، ضعفاء وفاسدين مثله وثانيا فهو معد إلى أقصى درجة ولقد سبق أنتحدثت لك عن لعبة الفنت والبيرة

ولن يمضي عام أو عامان حتى يكون قد غزا شاطئ القوقاز كله وأنت تعلم إلى أي مدى تثق الجماهير، وخاصة شريحتها المتوسطة، في المثقفين وخريجي الجامعات، وفي طريقة السلوك الراقية وبلاغة الحديث فمهما ارتكب لايفسكى من دناءة فإن الجميع يثقون في أن ذلك حسن، وأن هذا هوماينبغي، لأنه شخص مثقف، ليبرالى وجامعى وعلاوة على ذلك فهو إنسان فاشل، ضائع، مريض بالعصاب، ضحية الزمن، وهذا يعني أن كل شيء مباح بالنسبة له وهو فتى لطيف، وشخص طيب القلب، وكم يعطف على ضعف البشر وهو سلس القياد، متساهل، مطواع، غير متكبر، يمكن معه أن تشرب وتغتاب الناس، وتثرثر الجماهير ميالة دائماًإلى التجسيدفي الدين والأخلاق، وهي تحب أكثر شيء تلك الآلهة التي تتميز بنفس النواقص التي لديها هي فلتحكم بنفسك إلى أي مدى يمتد مجال عدواه وعلاوة على ذلك فهو ممثل لا بأس به ومنافق بارع ويعرف جيداً من أين تؤكل الكتف انظر إلى حيله وألاعيبه، ولو مثلاً إلى موقفه من الحضارة إنه لم يشم حتى رائحة الحضارة ومع ذلك يقول: آه، كمأفسدتنا الحضارة آه، كمأغبطأولئك المتوحشين، أبناء الطبيعة هؤلاء، الذين لا يعرفون الحضارة وهكذا فعلينا، كما ترى، أن نفهم أن حضرته كان في العهود الخوالى، من أشد المخلصين للحضارة، وكرس حياته لخدمتها، وسبر كل أغوارها، لكنها أعيته، وخيبت أمله، وخدعته إنه كا ترى إذن فاوست، تولستوى الثاني أما شوبنهاور وسبنسر فيستخف بها كطفلين ويربت على كتفيها بأبوة: حسناً، كيف الحال يا أخي سبنسر؟

وهو بالطبع لم يقرأ سبنسر، ولكن ما ألطفه عندما يقول عن سيدته بسخرية خفيفة واستهانة: إنها قرأت سبنسرويصغون إليه ولا يريد أحد أن يفهم أن هذا المهرج لا يحق له لا أن يذكر سبنسر بهذه النبرة فحسب، بل ولا حتى أن يقبل نعل حذائه إن تقويض أسس الحضارة، والأسماء الشهيرة، وهياكل الأخرين، وتلويثها بالقاذورات، والغمز نحوها بتهريج، فقط بغية تبرير وإخفاء الضعف الذاتي والبؤس الأخلاقي كل ذلك لا يصنعه إلاحيوان مغرور جدا ومنحط ودنئوقال صامويلنكو وهو ينظر هذه المرة إلى عالم الحيوان لا بغل، بل بنظرة مذنبة :

أنا لا أعرف يا كوليا ما الذي تريده منه؟ إنه إنسان ككل الناس بالطبع لايخلو من نواقص، ولكنه يقف على مستوى الأفكار الحديثة، ويخدم، ويعود بالفائدة على الوطن منذ عشر سنوات كان يعمل هنا وكيل عجوز رجل نادر الذكاء ولقد قال هذا الرجل .

فقاطعه عالم الحيوان :فى، كفى تقول إنه يخدم فكيف يخدم؟ هل بمجيئه إلى هنا أصبحت الأمور أفضل والموظفون أكثر انضباطاً وأمانة وتأدباً؟ بالعكس، فكل ما صنعه أنه صادق على فسادهم بسمعته كرجل مثقف، جامعي إنه لا يكون منضبطاً إلا في العشرين من كل شهر، عندما يتقاضى المرتب، أما في بقية الأيام فهو فقط يحك الأرض بشبشبه في البيت، ويسعى إلى أن يضفي على نفسه تعبيراً، كأنما هو يقدم خدمة كبيرة للحكومة الروسية بمعيشته في القوقاز

لا يا ألكسندر دافيديتش، لا تدافع عنه فلست صادقاً من البداية حتى النهاية فلو كنت حقاً تحبه وتعتبره من أقربائك، لما كنت قبل كل شيء لامباليا تجاه نواقصه، ولما عاملته بتسامح، بل لحاولت من أجل مصلحته أن تقضى على ضرره .

-ماذا تعني؟ .

-أن تقضي على ضرره ولما كان مستحيلاً إصلاحه فإن القضاء على ضررهممكن فقط بوسيلة واحدة .

و مر فون كورين بإصبعه أمام عنقه وأضاف قائلا :

-أو ربما إغراقه فلمصلحة البشرية، ولمصحلته هو ينبغي القضاء على هؤلاء الناس من كل بد .

فدمدم صامويلنكو وهو ينهض وينظر بدهشة إلى وجه عالم الحيوان الهاديالبارد :

-ماذا تقول؟ !يا شماس، ماذا يقول؟ هلجننت؟ فقال فون كورين :أنا لا أصر على الحكم بالإعدام إذا ثبت أن الحكم بالإعدام شيء ضار فلتبتكروا شيئاً آخر. القضاء على لايفسكي غير ممكن، حسناً، اعزلوه إذن، جردوه من شخصيته، أرسلوه إلى أعمال السخرة.

ماذا تقول؟ قال صامويلنكو بارتياع بالفلفل، بالفلفل! صاح بصوت يائس عندما رأى الشماس يأكل القرع المحشو بدون فلفل ماذا تقول، أنت الرجل النادر الذكاء؟ نرسل صديقنا، الرجل الأبي، المثقف إلى أعمال السخرة.

-إذا كان أبياً وقاوم، فليكبل بالقيود !

لم يستطع صامويلنكو إزاء هذا أن ينطق بكلمة واحدة، بل حرك أصابعه فقط ونظر الشماس إلى وجهه المذهول، والمضحك حقاً، وقهقه .

وقال عالم الحيوان :

دعونا من الحديث عن ذلك ولكن تذكر شيئاً واحداً يا ألكسندر دافيديتش، تذكر أن البشرية البدائية كانت محصنة ضد أمثال لايفسكى بالصراع من أجل البقاء وبالانتخاب الطبيعي أما الآن فقد أضعفت ثقافتنا إلى حد كبير الصراعوالانتخاب، وعلينا أن نهتم نحن بالقضاء على الضعفاء والفاسدين، وإلا فإن أمثال لايفسكى،عندما يتكاثرون، فسيقضون على الحضارة وستنفسخ البشرية تماماً وسنكون نحن المذنبين .

فقال صامويلنكو :

إذا كان علينا أن نغرق الناس ونشنقهم، فلتذهب حضارتك إلى الشيطان، ولتذهب البشرية إلى الشيطان! إلى الشيطان اسمع ما سأقوله لك: أنت عالم كبير، رجل نادر الذكاء، ومفخرة للوطن، لكن الألمان أفسدوكنعم الألمان! الألمان !.

منذ أن غادر صامويلنكو مدينة دربت التي درس فيها الطب لم ير الألمان إلا نادرا، ولم يقرأ كتاباً ألمانياً واحداً، ولكن كل الشر في السياسة والعلم كان في رأيه صادراً عن الألمان ولم يكن بوسعه أن يفسر من أين جاء بهذا الرأي، ولكنه كان متمسكاً به بشدة وردد مرة أخرى :

-نعم، الألمان! هيا نتناول الشاي .

نهضوا ثلاثتهم وارتدوا قبعاتهم وخرجوا إلى الحديقة وجلسوا هناك في ظل أشجار القبقب والكمثرى والقسطل الشاحبة جلس عالم الحيوان والشماس على أريكة بجوار الطاولة، أما صامويلنكو فجلس في مقعد مجدول بمسند عريض مائل وقدم لهم جندي المراسلة الشاي والمربى وزجاجة عصير مركز .

كانت الحرارة شديدة، حوالي ثلاثين درجة في الظل وسكن الهواء القائظ وجمد، وتدلت خيوط العنكبوت المنسدلة من القسطل إلى الأرض بضعف ولمتتحركوتناول الشماسالقيثارة الموضوعة هناك دائما على الأرض بجوار الطاولة،وضبط أوتارها وغني بصوت خافت رفيع صبيا المعهد الديني وقفوا بباب الحانة ولكنه صمت على الفور من شدة الحر، ومسح العرق من جبينه ونظر إلى أعلى، إلى السماء الزرقاء الساخنة وكان النوم يداعب صامويلنكو فمن الحر والهدوء ونعاس ما بعد الغداء اللذيذ الذي شمل كل أطرافه بسرعة أحس صامويلنكو بالضعف والسكر تدلت ذراعاه،وضاقت عيناه، ومال رأسه على صدره وتطلع إلى فون كورين والشماس بتأثر دامع ودمدم

-الجيل الجديد نجم العلم وكوكب الكنيسة ربما صرت يا صاحب القفطان الطويل مطراناً، إذن سيكون على أن أقبل يدك لا قدر الله لايهمل يوقفك الله .

وسرعان ما تردد شخير وشرب فون كورين والشماس شايا وخرجا إلىا لشارع .

وسأل عالم الحيوان ستذهب ثانية إلى المرفأ لتصيد السمك؟كلا، الدنيا حر .تعال معي ستساعدني في تغليف الطرد ونسخ بعض الأشياء وبالمناسبة سنتحدث عما يمكن أن تشغل به نفسك ينبغي أن تعمل يا شماس لا يصح هكذا فقال الشماس :

كلامك صحيح ومنطقي، ولكن ما يغفر لى كسلي هو ظروف حياتى الحالية فأنت تعلم أن الوضع غير المحدد يساعد كثيراًعلى الخمول الله وحده يعلم هل أرسلوني إلى هنا مؤقتاً أم بصفة دائمة أنا أعيش هنا في المجهول، أما زوجتي البائسة فتقيم عند أبيها وتشعر بالحنين وأصارحك بأن الحر قد سيحمخين

فقال عالم الحيوان :

-كل هذا هراء الحر يمكن التعود عليه، وبدون زوجتك يمكن أن تتعودعلى الحياة دعك من الدلع ينبغي أن تسيطر على نفسك .

مضت ناديجدا فيودوروفنا صباحاً إلى البحر لتستحم، ومن خلفها سارتطاهيتها أولجا حاملة إبريقا وطستاً نحاسياً وملاءات وإسفنجة وكانت تقف في الميناء سفينتان غير معروفتين، بمداخن بيضاء قذرة، ويبدو أنهما سفينتاشحن أجنبيتان وسار على رصيف المرفأ رجال ما يرتدون ملابس بيضاء وأحذية بيضاء وهم يصيحون عالياً بالفرنسية، فيردون عليهم من السفينتين ودقت أجراس كنيسة المدينة بحماس .

وتذكرت ناديجدا فيودورفنا بارتياح: اليوم الأحد .

أحست أنها في صحة تامة، وكان مزاجها مرحاً وعيدياً وبدت لنفسها لطيفة جداً في فستانها الجديد الفضفاض، المصنوع من الحرير الصيني الخشن، وفي قبعة كبيرة من القش كانت حوافها العريضة مطوية بقوة إلى الأذنين حتى بدا كأن وجهها يطل مباشرة من علبة وفكرت بأنه لا توجد في المدينة كلهاسوى امرأة واحدة، شابة، جميلة، مثقفة، هي هذه المرأة، وأنها وحدها التي تستطيع أن ترتدي ثياباً رخيصة ولكنها أنيقة ومختارة بذوق فهذا الفستان مثلاً يساوي اثنين وعشرين روبلاً فقط، ومع ذلك كم يبدو لطيفاً! وهي الوحيدةفي المدينة التي يمكن أن تعجب الرجال، وما أكثرهم، ولذلك فعليهم جميعاً، شاءوا أم أبوا، أن يغبطوا لايفسكي .

وسرها أن لايفسكي في الآونة الأخيرة يعاملها ببرود وبأدب متحفظ،

وأحياناً حتى بتهور وخشونة وكانت من قبل ترد على كل نزواته ونظرات احتقاره الباردة أو الغريبة،وغير المفهومة، بالدموع وبالتأنيب والتهديد بالرحيل عنه أو بقتل نفسها جوعاً، أما الآن فتتضرج ردا على ذلك، وتنظر إليه بإحساس بالذنب وتبتهج لأنه لا يتودد إليها ولو أنه سبها أو هددها لكان ذلك أفضل وأكثر مدعاة للسرور، فهي تشعر بأنها مذنبة في حقه من جميع الوجوه بدالها أنها مذنبة، أولاً، في عدم تعاطفها مع أحلامه عن حياة العمل، التي من أجلها هجر بطرسبرج وجاء هنا إلى القوقاز، وكانت واثقة من أنه غاضب عليها في الفترة الأخيرة لهذا السبب بالذات وعندما توجهت إلى القوقاز خيل إليها أنها سنجد هنا من أول يوم ركناً آمنا على الشاطئ، وحديقة مريحة بظلال وعصافير وجداول، حيث يمكن غرس الزهور والخضروات، وتربية البط والدجاج، واستضافة الجيران ومعالجة الفلاحين الفقراء وتوزيع الكتب عليهم ولكن اتضح أن القوقاز جبال عارية وغابات ووديان هائلة، وأن عليك أن تختار طويلاً وتسعى وتبني، وليس هنا أي جيران، والحرارة شديدة، وقد يسطو عليك اللصوص ولم يكن لايفسكى متعجلاً في الحصول على قطعة أرض، وكانت هي سعيدة بذلك، وبدا كأنا اتفقا معاً دون كلام ألا يذكراً أبدا أي شيء عن حياة العمل وظنت أن صمته معناه أنه غاضب منها لأنها صامته .

وثانيا، فقد اشترت دون علمه مختلف الأشياء الصغيرة من متجر أتشميانوف خلال عامين بما قيمته حوالي ثلاثمائة روبل كانت تشترى بكميات قليلة تارة منسوجات وتارة حرير، وتارة شمسية، ودون أن تلاحظ تراكم هذاالدين .

-اليوم سأخبره بذلك قررت بينها وبين نفسها وعلى الفور وجدت أنهلن يكون مناسبا أن تحدث لايفسكى عن الديون وهو بهذا المزاج .

وثالثا، فقد استقبلت مرتين في غياب لايفسكى مفتش الشرطة كيريلين: مرة في الصباح عندما ذهب لايفسكى ليستحم، ومرة في منتصف الليل، عندما كان في الخارج يلعب الورق وإذ تذكرت ناديجدا فيودوروفنا ذلك تضرج وجهها والتفتت إلى الطاهية وكأنها تخشى أن تكون قد سمعت أفكارها لقد أدت الأيام الطويلة المملة، الحارة إلى درجة لا تطاق، والأمسيات الرائعة المضنية، والليالي الخانقة، وكل هذه الحياة، عندما لا تعرف من الصباح إلى المساء فيم تنفق الوقت الذي لا لزوم له، والأفكار المتسلطة بأنها أجمل وأصبي امرأة في المدينة، وأن شبابها يضيع هباء، وأن لايفسكى نفسه، شريف وذو عقيدة، ولكنه رتيب ودائماًيحك الأرض بشبشبه ويقضم أظفاره ومحل بنزواتهأدى كل ذلك إلى أن تملكتها الرغبات شيئاً فشيئًا، وأصبحت تفكر كالمجنونة ليل نهار في شيء واحد لم تكن تحس في أنفاسها، ونظراتها، وفي نبرة صوتها وخطوتها سوى بالرغبة وأوحي هدير البحر إليها بأنها في حاجة إلى حب، وظلام المساء كذلك، والجبال كذلك وعندما بدأ كيريلين يغازلها لم يكن في وسعها، ولم تشأ ولم تستطع أنتقاوم، فاستسلمت له .

والآن ذكرتها السفينتان الأجنبيتان والرجال ذوو الملابس البيضاء لسببما بصالة كبيرة ورنت في سمعها إلى جانب الأصوات الفرنسية أنغام الفالسفارتعش صدرها بفرحة لا سبب لها وأحست برغبة في الرقص والتحدث بالفرنسية

وفكرت بفرح في أن خيانتها لا تنطوي على شيء رهيب فروحها لم تشارك في هذه الخيانة، بل ما زالت تحب لا يفسكى، ويتجلى ذلك في أنها تغار عليه وترثي له وتشعر بالشوق إليه إذا غاب عن البيت أما كيريلين فقد ظهر أنه لا شيء، فظ إلى حد ما، رغم أنه جميل، وقد قطعت علاقتها به ولن يتكرر هذا بعد ذلك ما فات مات، وليس لأحدشأن بذلك، ولو علم به لايفسكى فلن يصدق .

كان على الشاطئ كشك استحمام واحد للنساء، أما الرجال فكانوا يستحمون في العراء وحينما دخلت ناديجدا فيودوروفنا الكشك وجدت هناك سيدةكبيرة السن، هي ماريا قسطنطينوفنا بيتو جوفا، زوجة أحد الموظفين، وابنتها التلميذة كاتيا التي تبلغ الخامسة عشرة من عمرها كانتا جالستين على الأريكة وتخلعان ملابسهاكانت ماريا قسطنطينوفنا امرأة طيبة، منبهرةولبقة، وكانت تتكلم ببطء وحماس وحتى الثانية والثلاثين من عمرها كانت تعمل مربية أطفال، ثم تزوجت من الموظف بيتو جوف، وهو رجل صغير أصلع، يمشط شعره على صدغيه، ووديع جداً وحتى الآن ما زالت مولعة به، وتغار عليه، وتتضرج خجلاً لدي ذكر كلمة الحب، وتؤكد للجميع أنها سعيدةجداً .

-يا عزيزتى! - قالت بانبهار عندما رأت ناديجدا فيودوروفنا، وأضفت على وجهها تعبيراً كان يسميه جميع معارفها لوزيا يا حبيبتى، كم هو لطيف أنك جئت! سوف نستحم معاً، هذا ساحر.

ونزعت أولجا فستانها وقميصها بسرعة وأخذت تنزع ملابس سيدتها .

وقالت ناديجدا فيودوروفنا وهي تنكمش من ملامسة جسد الطاهية العارية الخشن لجسدها :

-الطقس اليوم ليس حاراً كما بالأمس، أليس كذلك؟ كدت أموت أمسمن الاختناق .

-أوه نعم يا عزيزتي! أنا أيضاً كدت أختنق هل تصدقين، بالأمس استحممت ثلاث مرات تصورى يا عزيزتى، ثلاث مرات! حتى لقد قلق على نيكوديم ألكسندريتش .

أمن الممكن أن يكون الإنسان قبيحاً إلى هذا الحد؟ فكرت ناديجدا فيودوروفنا وهي تنظر إلى أولجا وعلى زوجة الموظف وتطلعت إلى كاتيا وفكرت: لا بأس بجسدها ثم قالت :

-زوجك نيكوديم ألكسندريتش لطيف جدا جدا! أنا ببساطة مغرمة به فضحكت ماريا قسطنطينوفنا بتكلف - :هاهاها! هذا ساحر؟

وعندما تجردت ناديجدا فيودوروفنا من ملابسها وانتها الرغبة في الطيران وخيل إليها أنها لو رفرفت بذراعيها لارتفعت حتما محلقة ولاحظت بعد أنتعرت أن أولجا تنظر باشمئزاز إلى جسدها الأبيض كانت أولجا زوجة جندى شابة، تعيش مع زوجها الشرعي

ولذلك كانت تعتبر نفسها أفضل وأعلى منها وأحست ناديجدا فيودورفنا أيضاً أن ماريا قسطنطينوفنا وكاتيا لا تحترمانهاوتخافان منها وكان هذا كرهاً، فقالت لكى تعلى من شأنها في أنظارهما :

-موسم الاصطياف لدينا في بطرسبرج الآن في عزه وما أكثر المعارف لدىولدى زوجي! ينبغي أن أسافر لأراهم .

فسألت ماريا قسطنطينوفنا بوجل - :زوجك مهندس على ما أظن؟.

-أنا أتحدث عن لا يفسكى لديه معارف كثيرون جداً، ولكن أمه، للأسف،أرستقراطية متكبرة، ضيقة الأفق.

لم تكمل ناديجدا فيودوروفنا كلامها وقفزت إلى الماء ونزلت في أثرها ماريا قسطنطينوفنا وكاتيا واستطردت ناديجدا فيودوروفنا تقول :

-لدينا في المجتمع الراقي الكثير من الأحكام المسبقة والحياة فيه ليست سهلة كما يبدو .

فقالت ماريا قسطنطينوفنا التي عملت مربية لدى عائلات أرستقراطية وخبرت المجتمع الأرستقراطيي :

-أوه، نعم! هل تصدقين يا عزيزتي، كان آل جاراتينسكى يتطلبون ملابس خاصة للإفطار وللغداء، ولذلك كنت أحصل، بخلاف المرتب، على بدل ملابس، وكأني ممثلة

ووقفت بين ناديجدا فيودوروفنا وكاتيا، وكأنها تفصل ابنتها عن تلك المياه التي كانت تغسل جسد ناديجدا فيودوروفنا ومن باب كشك الاستحمام المفتوح والمفضي إلى البحر ظهر شخص ما سابحاً على بعد مائة خطوة من الكشك .

وقالت كاتيان - ماما، إنه أخي كوستيا !.

آه، آه - قاقت ماريا قسطنطينوفنا مذعورة كالدجاجة آه، كوستيا !

وصاحت عد يا كوستيا! عد !

ولكي يتباهى كوستيا، الصبي ابن الأربعة عشر، بشجاعته أمام أمه وأخته، غطس وسبح أبعد، لكنه تعب فأسرع عائداً، وبدا من وجهه الجاد المتوتر أنه غير واثق من قواه .

وقالت ماريا قسطنطينوفنا وقد هدأت :

مصيبة هؤلاء الصبيان يا عزيزتى! بين لحظة وأخرى قد يكسر عنقه آه يا عزيزتي ما أجمل أن تكوني أماً، وما أصعب ذلك في الوقت نفسه تخافين من كل شيء .

ارتدت ناديجدا فيودوروفنا قبعتها القش وسبحت من الكشك إلى عرض البحر ابتعدت حوالى أربع أذرع واستلقت على ظهرها وكانت ترى البحر حتى الأفق،والسفن، والناس على الشاطئ، والمدينة وأثارها

كل هذا، بالإضافة إلى القيظ والأمواج الشفافة الرقيقة، وهمس لها بأنها لا بد أن تعيش وتعيش ومر بجوارها بسرعة زورق شراعي وهو يشق الأمواج والهواء بنشاط وتطلع إليها الرجل الجالس إلى الدفة، فسرها أنه ينظر إليها .

وبعد أن استحمت السيدات لبسن ثيابهن وانصرفن معاً وقالت ناديجدافيودورفنا وهي تلعق شفتيها المالحتين بعد الاستحمام وترد بابتسامة على تحيات المعارف :

-الحمى تنتابني يوماً بعد يوم، ومع ذلك لا ينقص وزنى كنت دائما ممتلئة،والآن يبدو أنني أكثر امتلاء .

-هذا يا عزيزتي بسبب الاستعداد الفطرى من ليس لديه استعداد للسمنة،مثلي أنا، فلن يسمن مهما أكل ولكنك يا عزيزتي بللت قبعتك .

-لا بأس، ستجف .

ورأت ناديجدا فيودروفنا مرة ثانية الرجال ذوي الملابس البيضاء وهم يسيرون على الكورنيش ويتحدثون بالفرنسية، ولسبب ما تحركت الفرحة في صدرها، وتذكرت بصورة غامضة صالة ما، رقصت فيها في وقت من الأوقات،أو ربما رأتها في الحلم وهمس لها شيء ما في أعماق روحها بصوت مبهم خافت بأنها امرأة ضحلة، وضيعة، سيئة، تافهة .

توقفت ماريا قسطنطينوفنا أمام بوابة بيتها ودعتها للدخول .

ادخلي يا عزيزتي- قالت بصوت ضارع، وفي الوقت نفسه نظرت إلى ناديجدا

فيودوروفنا بلوعة وأمل: لعلها ترفض الدعوة ولا تدخل !.

بكل سرور وافقت ناديجدا فيودوروفنا أنت تعرفين كم أحب زيارتك ودخلت.وأجلستها ماريا قسطنطينوفنا وقدمت لها القهوة وضيفتها كعكاً.

ثم فرجتها على صور مخدوميها السابقين آنسات آل جاراتينسكى اللائى تزوجن بعد ذلك، وأطلعتها كذلك على علامات امتحانات كاتيا وكوستيا كانت علامات جيدة جدًا، ولكن لكي تبدو أفضل، فقد اشتكت وهي تتنهد من صعوبة الدراسة في المدرسة في هذه الأيام كانت ترعى الضيفة وفي الوقتنفسه تشفق عليها وتعاني من فكرة أن ناديجدا فيودورفنا يمكن أن تؤثر تأثيراً سيئاً بحضورها على أخلاق كوسيتا وكاتيا، وابتهجت لعدم وجود نيكوديم ألكسندريتش في البيت ولما كانت تعتقد أن الرجال يحبون هؤلاء فقد كان من الممكن أن تؤثر ناديجدا فيودوروفنا تأثيراً سيئاً على نيكوديم ألكسندريتش أيضاً .

وبينما كانت ماريا قسطنطينوفنا تتحدث مع الضيفة لم تنس طوال الوقت أنه ستقام مساء اليوم نزهة خلوية، وأن فون كورين رجاها رجاء حاراً ألا تخبر النسانيس بذلك

أي لايفسكي وناديجدا فيودورفنا، ولكن لسانها زل، فتضرجت تماماً وقالت بارتباك - :آمل أن تكوني أنت أيضاً هناك !

اتفقوا على المضي سبعة كيلومترات خارج المدينة في الطريق الجنوبي والتوقف قرب الدوخان، عند التقاء النهرين الأسود والأصفر، وهناك يعدون حساء السمكورحلوا في بداية الساعة السادسة في المقدمة سار صامويلنكو ولايفسكي في عربة تشاربوت، ومن خلفها ماريا قسطنطينوفنا وناديجدا فيودوروفنا وكاتيا وكوستيا في عجلة تجرها ثلاثة خيول وكان معهم سلة بها مأكولات وأوعية وفي العربة التالية كان مفتش الشرطة كيريلين وأتشميانوف الشاب،ابن ذلك التاجر اتشميانوف الذي كانت ناديجدا فيودورفنا مدينة لهب ثلاثمائة روبل وجلس قبالتها على المقعد نيكوديم ألكسندريتش، منكمشان طاوياً ساقية، صغيراً مهندماً، بصدغين مصففي الشعر وخلف الجميع سارت عربة فون كورين والشماس وعند قدمي الشماس استقرت سلة بها سمك.

-إلى اليميين !.

كان صامويلنكو يصيح بأعلى صوته عندما تقابلهم عربة أو أبخازي علىظهر حمار .

وقال فون كورين للشماس :

-بعد عامين، عندما يتوفر لى المال اللازم والناس سأمضى في بعثة سأبحر بمحاذاة الساحل من فلاديفوستوك على مضيق بهرنج، ثم من المضيق إلى مصب نهر ينيسى سنرسم خريطة وندرس عالم الحيوان والنبات، وننكب بجد على الجيولوجيا والأبحاث الأنثروبولوجية والأثنوجرافية إن مجيئك معي يتوقف عليك وحدكفقال الشماس - :هذا مستحيل .

لماذا؟.

-أنا رجل مرتبط، صاحب أسرة .

-ستسمح لك زوجتك سنكفل لها سبل العيش والأفضل لو استطعت أن تقنعها، لصالح القضية العامة، أن تحلق شعرها وتدخل ديراً فهذا يعطيك أنت الفرصة لكي تحلق شعرك وتأتي معنا في البعثة راهباً أستطيع أن أرتب لك ذلك .

لزم الشماس الصمت فسأله عالم الحيوانهل تعرف أمور اللاهوت جيداً؟ -لا، قليلاًأم أنا لا أستطيع أن أقدم لك أية نصائح في هذا الصدد لأن معرفتى باللاهوت ضعيفة أعطني قائمة بأسماء الكتب المطلوبة وسوف أرسلها لك من بطرسبرج شتاء وسيكون عليك أيضاً أن تقرأ مذكرات الرحالة الدينيين، يوجد بينهم أثنوجرافيون جيدون وخبراء في اللغات الشرقية وبعد أن تتعرف على أساليبهم سيصبح من السهل عليك أن تشرع في العمل

ولكن إلى حين وصول الكتب لا تضيع الوقت عبثاً، تردد على وسأعلمك استخدام البوصلة، وأطلعك على علم الأرصاد فكل هذا مطلوب .

فدمدم الشماس ثم ضحك :

هذا صحيح ولكن لقد طلبت تعييني في روسيا الوسطى، ووعدني عمي، وهو كبير كهنة، بالمساعدة ولو سافرت معك فسيكون معناه أننيأزعجته بلا داع .

لست أفهم ترددك فباستمرارك في العمل شماساً عادياً، عليه أن يقيم الصلاة في الأعياد فقط وفي بقية الأيام يتسكع، ستظل حتى بعد عشر سنوات كما أنت الآن،ولن تزيد شيئاً، اللهم إلا شارباً ولحية، في حين أنك، بعد عودتك من البعثة وبعد نفس السنوات العشر، ستكون إنساناً آخر، وستزداد غنى بإدراكك أنك صنعت شيئاً .

وترددت من عربة النساء صرخات فزع وإعجاب فقد كانت العربات تسير على طريق حفر في شاطئ صخري شديد الانحدار، فبدا للجميع أنهم يجرون فوق رف مثبت إلى جدار عال، وأن العربات سوف تسقط الآن في الهوة وإلى اليمين امتد البحر، وعلى اليسار جدار غير مستو، بني اللون ببقع سوداء وعروق حمراء وجذور زاحفة، ومن فوق أطلت إلى أسفل شجرات صنوبر كثة منحنية كأنما عن رهبة وفضول وبعد دقيقة تردد العويل والضحك ثانية، فقد مروا تحت صخرة ضخمة معلقة .

وقال لايفسكى :لست أدري أي شيطان دفعني إلى المجيء معكم ما أغبي هذا وأوضعه ينبغي على أن أذهب إلى الشمال، أن أهرب، أن أنجو، بينما أذهب لسبب ما إلى هذه النزهة الحمقاء .

فقال له صامويلنكو عندما انعطفت الخيول يساراً فانكشف منظر واديالنهير الأصفر، ولمعت مياه النهير الصفراء، العكرة، المجنونة :

انظر أية بانوراما! فأجاب لايفسكى :لاأرى يا ساشا أي شيء جميل في ذلك إن إبداء الإعجاب الدائم بالطبيعة يعنى إظهار فقر الخيال فبالمقارنة مع ما يمكن أن يقدمه لي خيالي ليست كل هذه النهيرات والأحجار سوى حقارة ولا شيء أكثر .

كانت العربات الآن تسير على شاطئ النهير وبدأت الشطآن الصخرية المرتفعة تلتقى شيئاً فشيئاً والوادي يضيق حتى بدا في الأمام شعباً وكان الجبل الصخري الذي ساروابجواره قد ركبته الطبيعة من أحجار ضخمة يضغط بعضها فوق بعض بقوة رهيبة حتى إن صامويلنكو كان يزحر لا إراديا كلما نظر إليها وفي بعض المواضع تشق هذا الجبل الجميل العابس شقوق وشعاب، هبت منها على السائرين رطوبة وغموض وعبر الشعاب لاحت جبال أخرى، بنية، ووردية، وليلكية، ومضبة أو جبال يغمرها ضوءساطع وأحياناً، عندما كانوا يمرون بجوار الشعاب كان يسمع صوت مياه تسقط أعلى الأحجار من عل في مكان ما

وتنهد لايفسكييا للجبال اللعينة كم أضجرتنى !.

في نقطة التقاء النهير الأسود بالأصفر، حيث كانت المياه السوداء التي تشبه الحبر تلوث المياه الصفراء وتتصارع معها، وغير بعيد عن الطريق انتصب دو خان التترى كربلاى، بعلم روسي على سطحه ولافتة مكتوب عليها بالطباشير: الدوخان اللطيف وكانت بجواره حديقة صغيرة محاطة بسياج مجدول، وضعت فيها طاولات وأرائك، ووسط الخرج البائس الشائك انتصبت شجرة سرو وحيدة، جميلة وداكنة .

وقف كربلاى، التتري الصغير الخفيف الحركة، مرتدياً قميصاً أزرق ومريلة بيضاء على الطريق، وأمسك ببطنه وهو ينحني بشدة محيياً العربات المارة، ويبتسم كاشفاً عن أسنانه البيضاء البراقة .

وصاح به صامويلنكو :مرحبا يا كربلاى! سنبتعد قليلاً، أما أنت فلتحضر إلى هناك الساوروالكراسى. بسرعةوهز كربلاى رأسه الحليق ودمدم بشىء ما، لم يسمعه سوى ركاب العرباتالأخيرةعندنا سمك السلطان يا صاحب المعالي. فقال له فون كورين - :هاته، هاته !.

ابتعدت العربات حوالي خمسمائة خطوة عن الدوخان ثم توقفت واختارصامويلنكو مرجاً صغيراً تناثرت فيه بعض الصخور التي تصلح للجلوس عليها، وتمدد جذع شجرة أسقطتها العاصفة، بجذور منزوعة متشعبة وإبر صفراء جافة

ومن هنا امتد عبر النهر جسر متهالك من جذوع الأشجار، وعلى الشاطئ الآخر، في المقابل تماماً انتصبت على أربع دعائم حظيرة لتجفيف الذرة، تشبه كوخ الحكايات الأسطوري المقام على سيقان دجاج ومن باب الحظيرة تدلى سلم صغير إلى الأرض .

كان الانطباع الأول لدى الجميع أنهم، كما خيل إليهم، لن يستطيعوا الإفلات من هنا فحيثما نظروا، ومن جميع الجهات، تكتلت الجبال مطبقة عليهم، ومن ناحية الدوخان وشجرة السرو الداكنة زحفت عليهم بسرعةظلال المساء، ولهذا بدا وادى النهير الأسود، الضيق المتعرج، أكثر ضيقاً، والجبال أكثر ارتفاعاًوتناهت زمجرة النهر المستمرة وأزيز الجنادب المتصل .

وقالت ماريا قسطنطينوفنا وهي تشهق بعمق من شدة الانبهار: ساحر ! انظروا يا أولاد إلى هذا الجمال يا للهدوء.

-بالفعل جميل قال لايفسكي الذي أعجبه المنظر، ثم لسبب ما شعرفجأة بالحزن عندما نظر إلى السماء وإلى الدخان الأزرق المتصاعد من مدخنة الدوخان، وكرر نعم، جميل .

وقالت ماريا قسطنطينوفنا بصوت مغرورق بالدموع: صف هذا المنظر يا إيفان أندريتش! فسألها لايفسكى :

وما الداعي؟الانطباع أفضل من أي وصف فهذه الثروة من الألوان والأصوات، التي يحصل عليها أي شخص من الطبيعة عن طريق الانطباعات يثرثر بها الكتاب بصورة قبيحة مطموسة المعالم .

أهكذا؟

سأله فون كورين ببرود،وقد اختار لنفسه أكبر حجر قرب المياه، ومضىيتسلقه ليجلس عليه وكرر وهو يحدق في عيني لايفسكى مباشرة :

أهكذا؟ وروميووجولييت؟ وليل أوكرانيا عند بوشكين مثلاً؟ علىالطبيعة أن تأتي وتنحنى عرفاناً .

ربما وافقه لايفسكي الذي زهد كسلاً في النقاش والمعارضة ولكنه قال بعد فترة قصيرة وعلى العموم ما هي روميو وجولييت في الحقيقة؟ إنهحب جميل شاعرى، مقدس إنها ورود بريدونبها إخفاء العفن من تحتها فروميو حيوان كالآخرين جميعاً .

عن أي موضوع يدور الحديث فإنك تحصره في ال... والتفت فون كورين إلى كاتيا ولم يكمل جملته فسأله لايفسكيفي ماذا أحصره؟.

-عندما يقول لك أحد مثلاً:ما أجمل عنقود العنبترد عليه :نعم، ولكن ما أقبحه عندما يمضغونه ويهضمونه في المعدة لأي غرض تقول ذلك؟ ليس هذا جديداً وعموماً فهو أسلوب غريب .

كان لايفسكى يعرف أن فون كورين لا يحبه، ولذلك كان يخشاه ويشعربنفسه في حضرته كما لو كان المكان ضيقاً على الجميع وكأن أحداً ما يقف خلف ظهره فلم يرد بشىء، وابتعد وشعر بالأسف لأنه جاء .

وأصدر صامويلنكو أوامره :

-يا سادة، هيا لإحضار حطب للنار.

وتفرقوا كل إلى جهة، ولم يبق في مكانه سوى كيريلين وأتشميانوف ونيكوديم ألكسندريتش وأحضر كربلاى كراسى،وفرش سجادة على الأرض ووضع عدة زجاجات نبيذ وكان مفتش الشرطة كيريلين، ذلك الرجل الوسيم، الذي يرتدي المعطف الرسمي أياً كان الطقس، يشبه بقامته المتكبرة ومشيته المهمة، وصوته الأجش، الأبح قليلاً، مفتشي الشرطة المحليين الشبان وكان تعبير وجهه حزيناً ناعساً، كأنما أيقظوه من النوم توارغماً عنه .

وسأل كربلاى وهو يلفظ على مهل كل كلمة - :ما هذا الذي أحضرته أيها الحيوان؟ لقد أمرتك أن تحضر نبيذ كفاريلى،فماذا أحضرت أيتها السحنة التترية؟ هه؟ من؟.

فقال نيكوديم ألكسندريتش بوجل وأدب :لدينا خمر كثير يا يجور أليكسيتش .ماذا؟ ولكني أريد أن يكون هنا خمري أنا .

إنني مشترك في النزهة وأعتقد أن لي مطلق الحق في أن أساهم بنصيبى.أعتقدأحضر عشر زجاجات كفاريلى !.

ولماذا كل هذه الكمية؟ دهش نيكوديم ألكسندريتش الذي كان يعرفأن كيريلين لا يملك نقوداً .

فصاح كيرلينعشرين زجاجة ثلاثين فهمس له أتشميانوف لا بأس، دعه أنا سأدفع .

كانت ناديجدا فيودوروفنا في مزاج مرح، عابث وكانت تود لو تقفز،وتقهقه، وتصرخ، وتشاكس، وتتدلل وبدت لنفسها في فستانها الشيت الرخيص ذي البقع الزرقاء وحذائها الأحمر، ونفس القبعة القش، صغيرة، بسيطة خفيفة ورقيقة كفراشة ركضت على الجسر المتهالك وحدقت دقيقة في الماء لكي يدور رأسها، ثم صرخت وجرت وهي تضحك إلى الشاطئ الآخر نحو حظيرة التجفيف، وخيل إليها أن جميع الرجال، بمن فيهم كربلاى معجبون بها وعندما اتحدت الأشجار بالجبال والعربات بالخيول في الظلمة الهابطة بسرعة، وومض ضوء في نوافذ الدوخان، صعدت على الدرب الملتوى بين الصخور والخمائل الشائكة، وتسلقت الجبل وجلست على صخرة وفيالأسفل كانت النار مشتعلة، وبجوارها تحرك الشماس مشمراً عن ساعديه، بينما في موضع آخر من الرواية أطلق الكاتب على كيرلين، سهواً، اسماً آخر هو إيليا

دار ظله الطويل حول النار في نصف دائرة كان يضع الحطب في النار ويقلب في القدر بملعقة مثبتة إلى عصا طويلة وسعي صامويلنكو بجوار النار بوجهنحاسي أحمر، كما يفعل في مطبخه، وهو يزأر بوحشية

-أين الملح يا سادة؟ هل نسيتموه؟ ما لكم جلستم هكذا كالإقطاعين وأناوحدي الذي أعمل؟ وعلى جذع الشجرة الملقي جلس لايفسكى ونيكوديم ألكسندريتشمتجاورين وهما ينظران إلى النار ساهمين .

وكانت ماريا قسطنطينوفناوكاتيا وكوستيا يستخرجون آنية الشاي والأطباق من السلال ووقف فون كورين عاقداً يديه على صدره، وواضعاً إحدى قدميه على حجر على الشاطئ قرب المياه تماماً وهو يفكر في شيء ما وتحركت على الأرض بقع حمراء من النار مع الظلال بجوار أشباح الناس المظلمة، وارتعشت على الجبل وعلى الأشجار، وعلى الجسر، وعلى حظيرة التجفيف وكان الشاطئ الآخر الشديد الانحدار المليء بالحفر مضاء كله، يومض وينعكس في النهير بينما مزقت المياه المتدفقه الهادرة انعكاساته إربا .

ومضى الشماس ليحضر السمك الذي كان كربلاى ينظفه ويغسله عندالشاطئ، لكنه توقف في منتصف الطريق وتطلع حوله، وفكر:يا إلهي، ما أجمل هذا! ناس وأحجار ونار، وغسق، وشجرة مشوهة، ولا شيء أكثر، ولكن ما أجمله.

وظهر على الشاطئ الآخر بجوار حظيرة التجفيف أناس غرباء ولأنالضوء كان يومض ودخان النار يتجه إلى تلك الناحية لم يكن من الممكن تمييز هؤلاءالأشخاص كلهم دفعة واحدة، بل كان يظهر على أجزاء تارة قبعة فراء كثة ولحية بيضاء، وتارة قميص أزرق، وتارة خرق تنسدل من الكتفين إلى الركبتين وخنجر بعرض البطن

وتارة وجه شاب أسمر بحاجبين أسودين، كثيفين ومحددين كأنها رسما بقلم الفحم وجلس خمسة منهمحلقة علىالأرض، أما الخمسة الآخرون فاتجهوا إلى حظيرة التجفيف ووقف أحدهم في الباب وظهره إلى النار، عاقداً يديه خلفه، وراح يروي شيئاً ما،يبدو شيقاً جداً، لأنه عندما أضاف صامويلنكو حطباً فتأججت النار وتطاير منها الشرر وأضاءت حظيرة التجفيف بنور ساطع، لاح واضحاً من باب الحظيرة وجهان هادئان، ينبآن عن الاهتمام الشديد، بينما استدار الجالسون حلقه وأخذوا يصغون إلى الرواية وبعد ذلك بقليل شرع الجالسون يغنون بصوت خافت أغنية بطيئة منغمة، كأغنية الصيام الكبير الكنسية وفكر الشماس وهو يصغي اليهم فيما سيحدث له بعد عشر سنوات عندما يعود من البعثة كبير كهنة شاب، مبشر، مؤلف معروف وذو ماض رائع، وسوف يعينونه أرشميندريتا، ثم مطراناً، ويقوم بالصلاة في كاتدرائية يخرج إلى منصة المذبح، في قلنسوةالأسقف الذهبية وشارته، ويهل على الجموع بنور شموعه ويعلن بصوت مجلجل: أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك، لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض فيرد الأطفال بصوت ملائكي :

إلهنا المقدس .

وتردد صوت صامويلنكو - :أين السمك يا شماس؟.

وعاد الشماس إلى النار وتصور المسيرة الدينية في يوم حار من شهر يوليو، على طريق مترب: في المقدمة يسير الفلاحون حاملين الرايات،والفلاحات والبنات حاملات الأيقونات، ومن ورائهن الصبيان المرتلون ثم القندلفت، معصوب الخد وفي شعره القش ويمضي الموكب بالترتيب: هو الشماس في المقدمة، ثم يتبعه القسيس في قلنسوة وبصليب، ومن ورائهم الفلاحون والفلاحات والصبيان مثيرين الغبار؛ وفي وسط هذا تسير زوجة الشماس وزوجة القسيس على رأسيهما منديلان ويغني المرتلون، ويعول الأطفال، وتصيح طيور السان، وتصدح القبرات وهاهم أولاء قد توقفوا اليرشوا بالماء المقدس قطيع بقر وتابعوا سيرهم ثم صلوا طلباً للمطر، راكعين على ركبهم وبعد ذلك الطعام، والأحاديث .

وفكر الشماس: وهذا أيضاً جميل .

صعد كيريلين وأتشميانوف على الدرب إلى الجبل وتخلف أتشميانوف فتوقف، أما كيريلين فاقترب من ناديجدا فيودوروفنا وقال وهو يؤدي التحية العسكرية :

-مساء الخير - !مساء الخيرنعم قال كيريلين وهو يتطلع إلى السماء ويفكر

-ماذا نعم؟ سألته ناديجدا فيودوروفنا بعد أن صمتت قليلاً وقد لاحظتأن أتشميانوف يراقبها .

فشرع الضابط يقول ببطء :

وإذن فهكذا ذبل حبنا من قبل أن تتفتح أزهاره، كما يقال كيف تريدين مني أن أفهم هذا؟ هل هو نوع من الدلال من جانبك، أم أنك تعتبرينني أهبل يمكن أن تفعلى به ما يحلو لك؟.

كانت غلطة دعني وشأنى قالت ناديجدا فيودوروفنا بحدة وهي تنظر إليه برعب في هذا المساء الرائع الساحر وتسأل نفسها بدهشة: أمن المعقول أنه كانت هناك لحظة أعجبت فيها بهذا الإنسان وكان قريباً إليها؟.

هكذا قال كيريلين، ووقف قليلاً في صمت،ثم فكر وقال طيب فلننتظر حتى يعتدل مزاجك، أما الآن فأود أن أؤكد لك أنني رجل محترم، ولن أسمح لأحد بأن يشك في ذلك لن يلعب بي أحد .

ورفع يده بالتحية العسكرية وابتعد شاقاً طريقه بين الخمائل وبعد ذلكبقليل اقترب أتشميانوف متردداً .

وقال بلكنة أرمنية خفيفة :مساء جميل اليوم؟.

كان وسيم التقاطيع، يلبس حسب الموضة، ويتصرف ببساطة، كشاب مهذب، ولكن ناديجدا فيودوروفنا لم تكن تحبه لأنها كانت مدينة لأبيه بثلاثمائة روبل وضايقها أيضاًأنهم دعوا إلى النزهة صاحب الدكان، كا ضايقها أنه تحدث إليها بالذات في هذا المساء الذي كانت تشعر فيه بطهارة روحها

وقال بعد صمت: ـ عموماً النزهة موفقة فأمنت موافقة :

نعم ثم قالت بلا اكتراث وكأنها تذكرت دينها الآن فقطنعم، أخبرهم في محلكم بأن إيفان أندريتش سيأتي قريباً ويسدد الثلاثمائة روبلاً ولا أذكرهم .

-أنا مستعد أن أقدم ثلاثمائة روبل أخرى، فقط من أجل ألا تذكرينا كل يومبهذا الدين ما الداعي لهذه التوافه؟

فضحكت ناديجدا فيودورفنا وواتتها فكرة مضحكة:فلو لم تكن قويمة الخلق، لو أنها شاءت،لاستطاعت في لحظة أن تتخلص من الدين لو أنها مثلاً، أدارت رأس هذه الأحمق الشاب الجميل وبالفعل كم كان ذلك سيبدو مضحكاً وغبياً وفظيعاً وفجأة أحست برغبة في أن تجعله يقع في غرامها، فتنهبه، ثم تهجره، وتنظر ما الذي يحدث بعد ذلك .

وقال أتشميانوف بخجل :

-اسمحي لي أن أقدم لك نصيحة أرجوك أن تحذري كيريلين إنه يقولعنك في كل مكان أشياء فظيعة .

-لا يهمني أن أعرف ما الذي يقوله عني كل أحمق قالت ناديجدا فيودوروفنابرود وتولاها القلق وفجأة فقدت فكرتها المضحكة باللعب بأتشميانوف الشاب الجميل كل سحرها .

وقالت ينبغي أن نهبط إنهم يدعوننا .

كان حساء السمك قد أصبح جاهزاً في الأسفل وملأوا به الأطباق وأخذوا يأكلون بخشوع،مثلما يحدث في النزهات الخلوية فقط واعترف الجميع بأن الحساء لذيذ جداً، وأنهم لم يأكلوا أبداً في البيت شيئاً بهذه اللذة وكما يحدث فيجميع النزهات فقد ضلت الأيدي طريقها وسط المناديل الكثيرة واللفائف والأوراق المهملة المشبعة بالدهن والمتقلبة مع الريح، ولم يعرف أحد أين كأسه أو أين قطعة خبزه، وسكبوا الخمر على السجادة وعلى حجورهم، وبعثروا الملح، وكان الظلام محيطاً بهم، ولم تعد النار تشتعل بقوة كما في السابق، بينما تكاسل كل منهم عن النهوض وإلقاء الحطب فيها وشرب الجميع خمراً، وحتى كوستيا وكاتيا أعطوا كلاً منهما نصف كوب منه وشربت ناديجدا فيودوروفنا كوباً، ثم آخر، وثملت، ونسيت كيريلين .

وقال لايفسكى وقد داخله المرح من الخمر :

-نزهة فاخرة، مساء ساحر، ولكني أفضل على ذلك كله شتاء جيدوعلىفراء الياقة قد لمعت ذرات الثلج الفضية.

فرد فون كورينلكل ذوقه الخاص فشعر لايفسكى بالحرج كان حر النار يلفحه في ظهره، وكراهية فونكورين في صدره ووجهه هذه الكراهية من رجل قويم ذكى، التي تنطوي فيما يبدو على سبب وجيه، كانت تسبب له المهانة والضعف، ولما لم يكن قادراً على مواجهتها

فقد قال بنبرة مداهنة:

-أنا أحب الطبيعة بشغف وآسف أنني لست عالماً طبيعياً إنني أغبطك فقالت ناديجدا فيودوروفنا :

-أما أنا فلا آسف ولا أغبط أنا لا أفهم كيف يمكن الاهتمام جدياً بالحشراتوالهوام بينما الشعب يعانى .

كان لايفسكي يشاطرها هذا الرأى ولم تكن لديه أية معرفة بالعلوم الطبيعية، ولذلك لم يستطع أن يسلم بتلك اللهجة الواثقة وهيئة العلماء وذوى الفكر العميق لأناس يدرسون شوارب النمل أو سيقان الصراصير، وكان دائماً يشعر بالحنق لأن هؤلاء الناس، على أساس الشوارب والسيقان وشيء ما اسمه البروتوبلازما ولسبب ما كان يتصورها في هيئة محارة بحرية يتصدون لحل قضايا تشمل أصل الإنسان وحياته ولكن الكذب تبدى له في كلام ناديجدا فيودوروفنا، فقال من أجل أن يعارضها فقط :

-العبرة ليست في الهوام، بل في الاستنتاجات !

بدوأوا يستقلون العربات، استعدادا للعودة، في ساعة متأخرة، في حوالى الحادية عشرة جلسواجميعاً ما عدا ناديجدا فيودوروفنا وأتشميانوف اللذين كانا يتسابقان على الشاطئ الآخر للنهر ويقهقهان .

وصاح بها صامويلنكو: - أسرعوا يا سادة !.

فقال فون كورين بصوت خافت - :ما كان ينبغي تقديم الخمر للسيدات .

ومضى لايفسكى نحو ناديجدا فيودوروفنا، مرهقاً من النزهة ومن كراهية فون كورين ومن أفكاره الخاصة، وعندما أمسكت به من كلتا يديه وهي تلهث وتقهقه مرحة، سعيدة، وتحس بنفسها خفيفة كالريشة، ووضعت رأسها على صدره، تراجع لايفسكي خطوة إلى الوراء وقال بصرامة :

-أنت تتصرفين مثل الغانية .

كان ما قاله فظاً جداً، حتى إنه أحس بالإشفاق عليها وقرأت هي في وجهه الغاضب المتعب الكراهية والإشفاق والحنق على نفسه، فأحست فجأة بالخور وأدركت أنها بالغت، وسلكت مسلكاً مستهتراً، فمضت حزينة، وهي تشعر بأنها ثقيلة، بدينة، فظة وثملة، فجلست مع أتشميانوف في أول عربة خالية صادفتها وجلس لايفسكي مع كيريلين،وعالم الحيوان مع صامويلنكو، والشماس مع السيدات وتحرك الموكب .

وراح فون كورين يقول وهو يتدثر بمعطف خفيف وقد أغمض عينيه :

هذه هي النسانيس أسمعت؟ إنها لا تريد أن تشغل نفسها بالحشرات والهوام لأن الشعب يعانى هكذا تنظر جميع النسانيس إلى أمثالنا يا لها من قبيلة ذليلة، ماكرة، أرهبها السوط والقبضات حتى الجد العاشر إنها ترتعد وتتملق وتطلق البخور للقوة فقط.

ولكن ما إن تخرج النسناسة إلى أفق حر، حيث لا يوجد من يقبض عليها، حتى تتنمر وتفصح عن نفسها انظر إليها كمتبدوجريئة في معارض الصور والمتاحف والمسارح، أو عندما تتحدث عن العلم أنها تنتفخ، وتحرن، وتسب، وتنتقد وحتما تنتقد، فيا لها من سمة للعبيد؟ فلنصخ السمع، وستجد أنهم يسبون ذوي المهن الحرة أكثر مما يسبون المحتالين، وهذا لأن ثلاثة أرباع المجتمع من العبيد، من مثل هذه النسانيس إن العبد لا يمكن أن يمد يده إليك ليشكرك بإخلاص على أنك تعمل .

فقال صامويلنكو متثائباً.

-أنا لا أدري ماذا تريد؟ لقد رغبت هذه المسكينة ببساطتها في أن تتحدث معك عن أشياء ذكية، أما أنت فتسرع بإصدار الأحكام أنت غاضب منهالسبب ما، وبالمرة غاضب منها ولكنها امرأة رائعة !.

-أوه، كفاك ! إنها خليلة عادية، منحلة ومبتذلة اسمع يا ألكسندر دافيدتيش أنت عندما ترى امرأة بسيطة،لا تعاشر زوجها، ولا تفعل شيئاً سوى الضحكات والقهقهات، فإنك تقول لها: دعيك من هذا، واعملى فلماذا تجبن هنا وتخشى أن تقول الحقيقة؟ هل فقط لأن ناديجدا فيودوروفنا تعيش كخليلة لموظف وليس لبحار؟.

فغضب صامويلنكو وقال - :وماذا أفعل لها؟ أأضربها؟

-لا تنافق الرذيلة إننا نلعن الرذيلة فقط في السر، وهذا يشبه التلويح بالقبضة داخل الجيب أنا عالم حيوان أو اجتماع، وكلاهما شيء واحد، وأنت طبيب والمجتمع يثق بنا ومن واجبنا أن نشير له إلى الضرر الرهيب الذي يتهدده ويتهدد الأجيال المقبلة من وجود سيدة مثل ناديجدا إيفانوفنا هذهفقال صامويلنكو مصححاً :ناديجدا فيودوروفنا وما الذي ينبغي على المجتمع أن يفعله؟

-المجتمع؟ هذا شأنه هو في اعتقادي أن أسلم وأقصر طريق هو العنف .

فقالينبغي إعادتها إلى زوجها، فإذا لم يقبلها ترسل إلى الأشغال الشاقة أو إلى مؤسسة إصلاحية ما .

أفزفر صامويلنكو، وصمت قليلاً، ثم سأله منذ أيام قلت أن أناسامثل لايفسكى ينبغي القضاء عليهم خبرني، لو أن الدول يعنى لنفرض أن الدولة أو المجتمع كلفك بالقضاء عليه، فهل كنت تجرؤ؟ .

-ولما اهتزت ذراعي .

وصل لايفسكى ونادجادا فيودوروفنا إلى البيت ودلفا إلى غرفتهما المظلمة الخانقة المملة وكانا كلاهما صامتين أشعل لايفسكى شمعة، وجلست ناديجدا فيودوروفنا، ودون أن تنزع المانتو أو القبعة، رفعت إليه عينين حزينتين مذنبتين وفهم أنها تنتظر منه شرحاً، ولكن الشرح سيكون مملاً، عقيماً، ومرهقاً

كما كان يشعر بانقباض لأنه لم يتمالك نفسه وتفوه بعبارة خشنة ووقعت يده في جيبه بالصدفة على الرسالة التي كان يزمع في كل يوم أن يقرأها لها، ففكر بأنه لو أطلعها الآن عليها فسوف يحول ذلك انتباهها إلىناحية أخرى .

وفكر: حان الوقت لاستيضاح علاقتنا فلأعطها لها،وليكن ما يكون وأخرج الرسالة وأعطاها لهااقرئي هذا يخصك .

وبعد أن قال هذه العبارة مضى إلى غرفة مكتبة واستلقي على الكنبة فيالظلام بلا وسادة وقرأت ناديجدا فيودوروفنا الرسالة،وخيل إليها أن السقف هبط والجدران اقتربت منها فجأة أصبح المكان ضيقاً ومظلماً ومرعباً .

فرسمت علامة الصليب بسرعة وتمتمت :ارحمه يا رب ارحمه يارب وأجهشت بالبكاءونادته - :فانيا! إيفان أندريتشولم تسمع جواباً وظنت أن لايفسكى جاء ووقف خلف مقعدها، فشهقت كطفل وهي تقول :

-لماذا لم تقل لي من قبل إنه مات؟ ما كنت ذهبت إلى النزهة، ولما ضحكت بهذه الفظاعة كان الرجال يقولون لي كلاماً مبتذلأيا للخطيئة! يا للخطيئة!أنقذنى يا فانيا، أنقذني أنا جننت أنا ضعتوسمع لايفسكى شهقاتهاكان يحس باختناق لا يطاق، بينما دق قلبه بعنف ونهض في كآبة، ووقف في وسط الغرفة، وتحسس في الظلام بحثاً عن كرسى المكتب وجلس .وهذا سجن فكر في نفسه ينبغي أن أذهب لا أستطيع

كان الوقت متأخراً للعب الورق، ولم يكن في المدينة مطاعم فرقد من جديد، وسد أذنيه لكي لا يسمع الشهقات، وفجأة تذكر أنه من الممكن الذهاب إلى صامويلنكو وحتى لا يمر بجوار ناديجدا فيودوروفنا خرج من النافذة إلى الحديقة، وعبر السياج إلى الشارع كان الجو مظلماً وكانت هناك سفينة وصلت التوها، ويبدو من أنوارها أنها سفينة ركاب كبيرة وقرقعت سلسلة المرساة ومن الشاطئ تحرك ضوء أحمر بسرعة نحو السفينة كان ذلك زورق الجمارك

الركاب يغطون في النوم داخل الكبائن فكر لايفسكى وهو يغبط طمأنينة الآخرين .

كانت نوافذ بيت صامويلنكو مفتوحة وأطل لايفسكي في إحداها، ثم فيالأخرى: كان الظلام والسكون يلفان الغرف .

ونادى ألكسندر دافيديتش،هل أنت نائم؟ ألكسندر دافيديتش! وتردد سعال وصيحة جزع :

-فانيا! إيفان أندريتش !ولم تسمع جواباً وظننت أن لايفسكى جاء ووقف خلف مقعدها، فشهقتكطفل وهي تقول :

-لماذا لم تقل لي من قبل إنه مات؟ ما كنت ذهبت إلى النزهة، ولما ضحكت بهذه الفظاعة كان الرجال يقولون لي كلاما مبتذلاً يا للخطيئة! يا للخطيئة أنقذنى يا فانيا، أنقذني أنا جننت أنا ضعت.

وسمع لايفسكى شهقاتها كان يحس باختناق لا يطاق، بينما دق قلبه بعنف ونهض في كآبة، ووقف في وسط الغرفة، وتحسس في الظلام بحثاً عن كرسى المكتب وجلس.

وهذا سجن فكر في نفسه - ينبغي أن أذهب لا أستطيع وكان الوقت متأخراً على لعب الورق، ولم يكن في المدينة مطاعم فرقد من جديد، وسد أذنيه لكي لا يسمع الشهقات، وفجأة تذكر أنه من الممكن الذهاب إلى صامويلنكو وحتى لا يمر بجوار ناديجدا فيودوروفنا خرج من النافذة إلى الحديقة، وعبر السياج إلى الشارع كان الجو مظلماً وكانت هناك سفينة وصلت لتوها، ويبدو من أنوارها أنها سفينة ركاب كبيرةوقرقعت سلسلة المرساة ومن الشاطئ تحرك ضوء أحمر بسرعة نحو السفينة كان ذلك زورق الجمارك.

الركاب يغطون في النوم داخل الكبائن فكر لايفسكى وهو يغبططمأنينة الآخرين

كانت نوافذ بيت صامويلنكو مفتوحة وأطل لايفسكي في إحداها، ثم في الأخرى: كان الظلام والسكون يلفان الغرف.

ونادى - :ألكسندر دافيديتش، هل أنت نائم؟ ألكسندر دافيديتش! وتردد سعال وصيحة جزع :

من هناك ؟ أي شيطان؟ - إنه أنا يا ألكسندر دافيديتش عفواً

فتح الباب بعد قليل، ومض ضوء مصباح ناعم، وظهر صاماويلنكو الضخم، متشحاً كله بالبياض، وفي طرطور أبيض.

ماذا حدث؟ سأل وهو يلهث إثر النوم ويحك جسمه انتظر، سأفتحلا تتعب نفسك، سأدخل من النافذةودلف لايفسكي من النافذة، واقترب من صامويلنكو، وأمسك بذراعهوقال بصوت متهدج:

-ألكسندر دافيديتش، أنقذني ! أتوسل إليك، أستحلفك، افهمني أرجوك ! وضعى مضن ولو استمر يوماً أو يومين فسأشنق نفسيكال كالكلب.

-مهلا عن أي شيء تتحدث؟ - أشعل شمعة.

-أوه، أوه تنهد صامويلنكو وهو يشعل الشمعة يا إلهي، يا إلهي الساعة

الثانية يا أخي.

فقال لايفسكى وهو يشعر بارتياح كبير من الضوء ووجود صامويلنكو : اعذرني، ولكني لا أستطيع البقاء في البيت أنت يا ألكسندر دافيديتش صديقي الوحيد، أقرب الأصدقاء أملي كله فيك وسواء شئت أم لم تشأ أنقذني من أجل الله لا بد أن أسافر من هنا بأي حالأقرضنى نقوداً

فتنهد صامويلنكو وهو يحك جسمه :

-يا إلهي، يا إلهي! بدأت أنعس فسمعت صفارة سفينة وصلت، ثم جئتأنت هل تريد مبلغاً كبيراً؟

-على الأقل ثلاثمائة روبل يجب أن أترك لها مائة، ومائتان لى للطريق أنامدين لك بحوالى أربعمائة، ولكني سأرسلها لك كلها.

قبض صامويلنكو بيد واحدة على كلا سالفيه، وباعد بين ساقيه واستغرق

في التفكير

-هكذا - دمدم مفكراً ثلاثمائة نعم ولكني لا أملك هذا المبلغ ينبغيأن أقترض من أحد ما

فقال لايفسكي وهو يرى في وجه صامويلنكو أنه يرغب في إعطائه النقودوحتما سيعطيه :

-اقترض من أجل الله، اقترض وسأردها لك حتماً سأرسلها من بطرسبرج بمجرد وصولي كن واثقاً من ذلك ثم قال منتعشاً اسمع يا ساشا، هيا نشرب بعض الخمر؟.

-هكذا هذا ممكن وذهبا إلى غرفة الطعام سأل صامويلنكو وهو يضع على الطاولة ثلاث زجاجات وطبقاً به خوخ: - وماذا عن ناديجدا فيودوروفنا؟ هل هي ستبقى؟فقال لايفسكى وهو يشعر بموجة سعادة مفاجئة :سأدبر كل شيء، سأدبر كل شيء سأرسل لها نقوداً فيما بعد فتأتي إلىوهناك نستوضح علاقتنا في صحتك يا صديقي.

مهلا! قال صامويلنكو اشرب هذا أولاً هذا من كرمتى وهذه الزجاجة من كرمة نفاريدزه، وهذه من أختولوف جرب الأنواع الثلاثة وقل لي بصراحة نبيذى يبدو حامضاً قليلاهه؟ أليس كذلك؟

نعملقد خففت عني يا ألكسندر دافيديتش شكراً لك دبتفيالروح -حامض؟ - الشيطان يعلم، أنا لا أعرف ولكنك رجل رائع، ساحروتطلع صامويلنكو إلى وجهه الطيب الشاحب المنفعل، وتذكر رأي فون كورين بضرورة القضاء على أمثال هؤلاء، فبدا له لايفسكى طفلاً ضعيفاً عاجزاً، في مقدور أي شخص أن يهينه ويقضى عليه فقال له :

-عندما ترجع تصالح مع أمك هذا عيبنعم، نعم، ضرورى وصمتا قليلاً وبعد أن شربا أول زجاجة قال صامويلنكو :

-هلا تصالحت مع فون كورين كلاكما شخصان ذكيان، رائعان، بينماتتعاملان كالذئابنعم، إنه شخص رائع، ذكى - قال لايفسكى مؤمناً، وكان مستعداً الآن أن يمتدح الجميع ويغفر لهم - إنه رجل ممتاز، ولكني لا أستطيع أن أصادقه كلا! إن شخصياتنا جد مختلفة أنا شخصية ذابلة، ضعيفة، خاضعة، وربما في لحظة صفاء مددت له يدي، ولكنه سيشيح بوجهه عني باحتقار وجرع لايفسكى الخمر وتمشي من ركن إلى ركن، ثم استطرد واقفاً في وسطالغرفة

-أنا أفهم فون كورين جيداً إنه شخصية صلبة، قوية، طاغية هل سمعت، إنه يتحدث دائماً عن البعثة، وليست هذه كليات فارغة إنه بحاجة إلى صحراء، إلى ليل مقمر ومن حوله ينام في الخيام وفي العراء رجاله الجوع والمرضى الذين عذبتهم المسيرات الطويلة القوزاق، والأدلة والحالون، والطبيب، والقسيس، وهو وحده الذي لا ينام، ومثل ستانلي، يجلس على كرسى سفرى ويشعر بأنه ملك الصحراء وسيد هؤلاء الناس ويسير، يسير، يسير إلى جهة ما، ورجاله يئنون ويتساقطون الواحد تلو الآخر، بينما هو يمضى في سيره، وفي النهاية يلاقي هو أيضاً حتفه، ولكنه يبقى رغم ذلك طاغية وملك الصحراء، لأن الصليب على قبره يبدو مرئياً للقوافل من بعد ثلاثين أو أربعين ميلاً مهيمناً على الصحراء إن ما يؤسفني هو أن هذا الشخص ليس في الخدمة العسكرية كان من الممكن أن يصبح قائداً ممتازاً، عبقرياً بوسعه أن يغرق خيوله فيالنهر ويصنع من الجثث جسوراً، وهذه الجسارة في الحربأهم من أية تحصينات وتكتيكات أوه، كم أفهمه جيداً! قل لي: لماذا يتسكع هنا؟ ما الذي يبغيه؟.

-إنه يدرس حيوانات البحرفتنهد لايفسكى قائلا :

لا،لا يا أخي لالقد أخبرني أحد العلماء المسافرين ونحن في السفينة أن البحر الأسود فقير فيما يخص عالم الحيوانات، وأن الحياة العضوية في أعماقه مستحيلة بسبب وفرة كبريتيد الأيدروجين فيها جميع علماء الحيوان الجادون يعملون في المحطات البيولوجية في نابولي

ولكن فون كورين مستقل وعنيد إنه يعمل في البحر الأسود لأنأحداً لا يعمل هنا لقد قطع صلته بالجامعة، ولا يريد أن يقيم علاقات بالعلماء والزملاء لأنه قبل كل شيءطاغية، ثم بعد ذلك عالم حيوان وسترى أنه سيبلغ شأواً بعيداً إنه منذ الآن يحلم بأنه عندما يعود من البعثة فسوف يطهر جامعاتنا من الدسائس والضحالة ويلوى قرون العلماء الطغاة قوى أيضاً في العلم مثلما هو في الحرب إنه يعيش فيهذه المدينة العفنة للصيف الثاني لأنه من الأفضل أن تكون الأول في قرية على أن تكون الثاني في مدينة فهو هنا ملك وصقر إنه يطبق على جميع السكان بقبضةحديدية وينيخ عليهم بهيبته لقد أجبر الجميع على الخضوع له، وهويتدخل في شئون الآخرين، وكل شيء يهمه، والجميع يخشونه أما أنا فأنزلق من تحت مخلبه، وهو يشعر بذلك ويمقتني ألم يقل لك إنه يجب القضاء على أو إرسالي إلى أعمال السخرة؟

فضحك ساموبلنكو قائلاً :

-بلى فضحك لايفسكي هو الآخر وشرب خمراً وقال وهو يضحك ويمزبالخوخ.

ومثله العليا أيضاً طغيانية فالبسطاء العاديون عندما يعملون لخير الجماعة فإنهم يقصدون بذلك أقرباءهم: أنا، أنت، أي الإنسان باختصار ولكن بالنسبة لفون كورين فالناس كلاب وأشياء تافهة، أتفه من أن يكونوا غاية حياته إنه يعمل، وسيذهب في بعثة، وسيدق هناك عنقه لا باسم حب الأقرباء، بل باسم مفاهيم مجردة كالإنسانية والأجيال القادمة، وسلالة البشرية المثالية

فها هي السلالة البشرية؟ إنها أوهام، سراب لقد كان الطغاة دائماً ذوى أوهام إنني أفهمه جيداً يا أخي أنا أقدره ولا أنكر قيمته فالعالم يقوم على أناس من أمثاله،ولو أن العالم ترك لنا فقط لصنعنا به، رغم كل طيبتنا ونوايانا الحميدة، ما فعل الذباب بهذه اللوحة نعموجلس لايفسكى بجوار صامولينكو وقال بحدس صادق :

-أنا إنسان تافه، فارغ، ساقط، والهواء الذي أتنفسه، وهذا الخمر، والحب، وباختصار هذه الحياة كنت أشتريها حتى الآن بالكذب والفراغ والجبن حتى الآن كنت أخدع الناس وأخدع نفسي، وأعاني من ذلك، وكانت معاناتى رخيصة ومبتذلة إنني أحنى ظهرى بهيبة أمام كراهية فون كورين، لأنني أحياناً أكره نفسي وأحتقرها.

وعاد لايفسكى فتمشي من ركن إلى ركن بانفعال وقال :

-إني سعيد لأني أرى عيوبي وأعيها فسوف يساعدني ذلك على أن أبعث أنساناً آخر آه يا عزيزى لو كنت تدري بأي شغف وأي شوق أنتظر تجددى وأقسم لك إنني سأصبح إنساناً، سأصبح !لست أدري هل هي الخمر التي تحرك لساني الآن، أم أن الأمر هو كذلك في الواقع، إلا أنه يخيل إلى أنني منذ زمن بعيد لم أمر بلحظات مشرقة، صادقة كتلك التي أمر بها الآن عندك.

فقال صامويلنكو - :آن أن ننام يا صاحبي.

-نعم، نعم عفواًسأنصرف حالا وبحث لايفسكى عن عمرته و هويتخبط بين قطع الأثاث والنوافذ، ثم دمدم متنهداً :

-شكراًشكراً الحنان والكلمة الطيبة أسمى من الصدقة، أنت رددتإلى روحي

وعثر على عمرته فتوقف، ونظر إلى صامويلنكو نظرة مذنبة، وقال بصوت

ضارع - ألكسندر دافيديتش - !ماذا؟ - اسمح لي يا عزيزي أن أبيت عندك - !على الرحب والسعة ولملا؟ ورقد لايفسكي على الكنبة، وظل طويلاً يحادث الدكتوربعد النزهة بحوالى ثلاثة أيام جاءت ماريا قسطنطينوفنا إلى ناديجدا

فيودوروفنا فجأة،ودون أن تحيي أو تنزع قبعتها أمسكت بكلتا يديها وضمتها إلى صدرها وقالت بانفعال شديد :

-آه يا عزيزتي،كم أنا منفعلة، مذهولة لقد أبلغ دكتورنا العزيز اللطيف بالأمس نيكوديم ألكسندريتش بأن زوجك توفيقولى لى يا عزيزتي، خبرينى هل هذا صحيح؟.

فأجابت ناديجدا فيدوروفنا :نعم، صحيح، لقد توفي.

-هذا فظيع، فظيع يا عزيزتي! ولكن رب ضارة نافعة لقد كان زوجك، في الغالب، رجلاً مدهشاً، رائعاً، قديساً، ومثل هؤلاء مطلوبون في السماء أكثر مما على الأرض.

وارتعشت كل الخطوط والنقط فيوجه ماريا قسطنطينوفنا كأنها تواثبت تحت جلده إبر صغيرة، فابتسمت ابتسامة لوزية وقالت بانهيار وهيهكذا، فأنت حرة يا عزيزتي بوسعك الآن أن ترفعي رأسك عالياً وتنظرى في عيون الناس بجرأة ومنذ الآن يبارك الله والناس ارتباطك بإيفان أندريتش هذا ساحر إنني أرتجف من الفرحة، ولا أجد ما أقوله يا عزيزتي، سأكون خاطبتك لقد أحببنا كما أنا ونيكوديم ألكسندريتش، فلتسمحا لنا بأن نبارك ارتباطكما الشرعي الطاهر متى، متى تفكرين في عقد القران؟.

فقالت ناديجدا فيودوروفنا وهي تحرر يديها :أنا لم أفكر في ذلك ـ

مستحيل يا عزيزتي لقد فكرت، فكرت ! فضحكت ناديجدا فيودوروفنا وقالت :

-أي والله لم أفكر وما الداعي لعقد القران؟ أنا لا أرى في ذلك أية ضرورة

سنعيش كما كنا نعيش فارتاعت ماريا قسطنطينوفنا ـ :ماذا تقولين! يا إلهي، ماذا تقولين؟لن تكون الأمور أفضل بعقد قراننا بالعكس ستصبح أسوأ سنفقد

حريتنا فصرخت ماريا قسطنطينوفنا وهي تتراجع وتشيح بيديها :

-يا عزيزتي، يا عزيزتي، ماذا تقولين! أنت متهورة! عودي إلى رشدك !

أكبحي نفسك.

-ما معنى أن أكبح نفسي؟ أنا لم أعش بعد وأنت تقولين أكبحي نفسك !

تذكرت ناديجدا فيودوروفنا أنها لم تعش بعد بالفعل فقد تخرجت من المعهد وتزوجت برجل لم تحبه، ثم ارتبطت بلايفسكي وعاشت معه طوال الوقت على هذا الساحل الممل المقفر في انتظار شيء أفضل فهل هذه حياة؟.

وفكرت في نفسها: ولكن من الواجب عقد القران، ثم تذكرت كيريلينوأتشميانوف فتضرجت خجلاً، وقالت :

-كلا هذا مستحيل وحتى لو ركع إيفان أندريتش على ركبتيه طالباً منيهذا لرفضت جلست ماريا قسطنطينوفنا حوالي دقيقة على الكنبة، صامتة، حزينة، جادة،وهي تحدق في نقطة واحدة، ثم نهضت وقالت ببرود :

-وداعاً يا عزيزتي اعذريني على إزعاجك ورغم أن هذا صعب على لكني ينبغي أن أقول لك إن كل شيء انتهى بيننا من هذه اللحظة، ورغم كل احترامي لإيفان أندريتش فإن باب بيتى مغلق أمامكما.

قالت ذلك بمهابة احتفال، وكانت هي نفسها ترزح تحت وطأة نبرتها الاحتفالية وارتعش وجهها مرة ثانية، واكتسب تعبيراً ناعماً لوزياً، ثم مدت كلتا ذراعيها إلى ناديجدا فيودورفنا المذعورة المرتبكة وقالت بضراعة :

-يا عزيزتي، اسمحي لي أن أكون أمك أو شقيقتك الأكبر ولو لدقيقة واحدة ! سأكون صريحة معك كأموشعرت ناديجدا فيودورفنا في داخلها بدفء وفرحة وشفقة على نفسها

كما لو أن أمها بعثت بالفعل ووقفت أمامها فهمت نحو ماريا قسطنطينوفنا باندفاع وعانقتها، وألصقت وجهها بكتفها وأجهشتا بالبكاء معاً جلسنا على الكنبة وظلتا بضع دقائق تنشجان دون أن تنظر إحداهما إلى الأخرى وغير قادرتين على نطق كلمة واحدة.

ثم شرعت ماريا قسطنطينوفنا تقول - :يا طفلتي العزيزة، سوف أقول لك حقائق قاسية، ولن أشفق عليك - اعملى معروفاً، اعملى معروفاً.

- ضعي ثقتك في يا عزيزتي تذكري أنني الوحيدة من بين كل النساء هنا التي استقبلتك، لقد روعتني من أول يوم، ولكني لم أقو على أن أعاملك بلا اكتراث كما يعاملك الجميع وكنت أقاسي من أجل إيفان أندريتش العزيز الطيب وكأنه ابنى شخص شاب، في أرض غريبة، عديم الخبرة، ضعيف، بلا أم، فأخذت أقاسي وأقاسي وكان زوجي يعارض التعرف به، ولكني أقنعته جعلته يعدل عن رأيه وأصبحنا نستقبل إيفان اندريتش، وأنت معه بالطبع، وإلا لشعر بالإهانة وأنا عندي ابنة وابنوأنت تدركين كم هي سريعة التأثر عقول الأطفال وقلوبهم البريئة ومن شكك أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي فأجدر له لو علق في عنقه حجر الرحيوزج في لجة البحر استقبلك وأنا أرتعش خوفاً على أطفالى أوه، عندما تصبحين أما ستفهمينخوف وكان الجميع يدهشون من استقبالى لك كسيدة محترمة، عفواً، ويلمحون الى ثم بالطبع القيل والقال، والظنون كنت في قرارة نفسي أدينك، ولكنك كنت بائسة، تعيسة، متهورة

فكنت أعاني من الشفقة عليك فسألت ناديجدا فيودوروفنا وبدنها كله يرتجف:
- ولكن لماذا؟ لماذا؟ ماذا فعلت بهم؟.

-أنت ارتكبت خطيئة رهيبة لقد خنت العهد الذي أعطيته لزوجك أمام المذبح أنت أغويت شاباً رائعاً لو لم يلقاك، فربما اتخذ له شريكة حياة شرعية من أسرة طيبة من محيطه، ولكان الآن مثل الجميع أنت قضيت على شبابه لا تجادلى، لا تجادلى يا عزيزتي! أنا لا أصدق أن الرجل هو المسؤول عن خطايا النساء دائماً هن المخطئات الرجال في الحياة المنزلية مستهترون، يعيشون بعقولهم لا بقلوبهم، ولا يفهمون الكثير، لكن المرأة تفهم كل شيء عليها يتوقف كل شيء لقد وهبت الكثير، إذن فلتحاسب على الكثير آه يا عزيزتى، لو أنها كانت في هذه الناحية أضعف أو أغبى من الرجال لما ائتمنها الرب على تربية البنين والبنات وفوق ذلك يا عزيزتي فقد عبرت حد الخطيئة ونسيت كل خجل ولو كانت أخرى مكانك لتوارت عن الناس، ولأغلقت عليها باب بيتها، ولما رآها الناس إلا في معبد الرب، شاحبة، متشحة بالسواد، باكية، ولقال كل واحد بحسرة صادقة: يا الهي، هذا الملاك الخاطئ عائد إليك ثانية ولكنك يا عزيزتي نسيت أي تواضع، وعشت حياة سافرة، متهورة، كأنما تفتخرين بالخطيئة، كنت تعبثين وتقهقهين، وكنت أرتعش من الرعب وأنا أنظر إليك، وأخشى أن يرسل الرب صاعقة من السماء على بيتنا وأنت عندنا وصاحت ماريا قسطنطينوفنا وقد لاحظت أن ناديجدا فويدوروفنا تهم بالكلام لا تجادلى يا عزيزتي، لا تجادلى ضعي ثقتك في ولن أخدعك، لن أخفي عن أنظار روحك حقيقة واحدة

فلتسمعينى إذن يا عزيزتي إن الله يصم كبار الخاطئين، وكنت أنت موصومة تذكري كيف كانت فساتينك كلها فظيعة!كانت ناديجدا فيودوروفنا تقدر فساتينها دائماً على التقدير، ومن ثم كفتعن البكاء وتطلعت إليها بدهشةفاستطردت ماريا قسطنطينوفنا تقول :

-نعم فظيعة! كان في وسع أي إنسان أن يحكم على سلوكك من واقع ثيابك المنتقاة الزاهية كان الجميع عندما يتطلعون إليك يتضاحكون ويهزون أكتافهم، أما أنا فكنت أقاسي، أقاسي ثم إنك، واعذريني يا عزيزتي، لست نظيفة! عندماالتقينا في كشك الاستحمام، جعلتني أرتجفكانت ملابسك الخارجية محتملة يعني ولكن الجونيلة الداخلية والقميص إنى أحمر خجلاً يا عزيزتى! ولا أحد يعقد لإيفان أندريتش المسكين ربطة عنقه كما يجب، وكان واضحاً من ملابس المسكين وحذائه أن أحداً لا يهتم به في البيت، وهو دائماً لديك جوعان،هذا العزيز، وبالفعل، إذا لم يكن هناك في البيت من يهتم بإعداد الشاي والقهوة، فستضطرين رغماً عنك إلى إنفاق نصف مرتبك في المقصف أما عندك فيالبيت فشيء رهيب، رهيبلا أحد في المدينة كلها لديه ذباب، أما عندك فلا مهرب منه، وكل الآنية والأطباق سوداء وعلى النوافذ وعلى الطاولات، انظرى، غبار وذباب ميت، وأكواب ما الداعي للأكواب هنا؟ وحتى الآن ياعزيزتيلم تنظف المائدة ويخجل المرء من دخول غرفة نومك الملابس ملقاة في كل ركن، وعلى الجدران تعلقين شتى الأشياء الكاوتشوك، وهناك آنية مايا عزيزتى! الزوج لا ينبغي أن يعرف شيئاً

وعلى الزوجة أن تكون أمامه نظيفة طاهرة كملاك ! أنا أستيقظ كل يوم في الفجر وأغسل وجهي بالماء البارد لكى لا يلاحظ زوجى نيكوديم ألكسندريتش عليه أثر النوم.

فقالت ناديجدا فيودوروفنا وهي تنتحب - :هذه أمور تافهة لو كنت سعيدة، ولكني تعيسة جداً فتنهدت ماريا قسطنطينوفنا وهي لا تكاد تقوى على منع نفسها من البكاء:نعم، نعم، أنت تعيسة جداً وستواجهين في المستقبل مصيبة رهيبة الشيخوخة والوحدة، والأمراض، ثم الحساب في يوم القيامة فظيع، فظيعالقدر نفسه يمد لك الآن يد العون، وأنت تنحينها برعونة اعقدي قرانك، وبسرعة !.

فقالت ناديجدا فيودوروفنا - :نعم ضرورى، ضرورى ولكن هذا مستحيل !
-وما السبب؟ - مستحيل! آه لو تدرين !.

أرادت ناديجدا فيودوروفنا أن تحدثها عن كيريلين، وعن لقائها مساء أمس في المرفأ بأتشميانوف الشاب الجميل، وكيف واتتها فكرة مضحكة مجنونة بالتخلص من دين الثلاثمائة روبل، وكيف كان ذلك مضحكاً للغاية، وكيف عادت إلى البيت في ساعة متأخرة وهي تشعر بنفسها ساقطة، مرتزقة بلا رجعة لم تكن هي نفسها تعرف كيف حدث ذلك وأرادت الآن أن تقسمأمام ماريا قسطنطينوفنا بأنها سترد الدين حتماً، لكن النحيب والخجل منعاها من الكلام.

ثم قالت: - سأرحل فليبق إيفان أندريتش، أما أنا فسأرحل -إلى روسياوعلى أي شيء ستعيشين هناك؟ فليس لديك شيء - سأعمل في الترجمة أو أو افتتح مكتبة.

-دعيك من الأوهام يا عزيزتي المكتبة بحاجة إلى نقود حسناً، سأتركك الآن، فاهدئى وفكرى، وتعالى إلى غداً مرحة سيكون هذا ساحرا! حسناً وداعاً يا ملاكى هاتى أقبلك وقبلت ماريا قسطنطينوفنا ناديجدا فيودورفنا في جبينها ورسمت عليهاعلامة الصليب وخرجت في هدوء كان الظلام قد حل، فأشعلت أولاً الضوء في المطبخ ومضت ناديجدا فيودوروفنا إلى غرفة النوم وهي تواصل البكاء، ورقدت على السرير وبدأت تخضها حمى شديدة ونزعت فستانها وهي راقدة وداسته تحت قدميها، وانطوت على نفسها كالكعكة تحت الباطنية شعرت بظمأ ولم يكن هناك من يقدم لها الماء.

سأسدد قالت لنفسها، وخيل إليها في الهذيان أنها تجلس بجوار إحدى المريضات، وأنها هي نفسها تلك المريضة سأسدد من الحماقة الظن بأن النقود هي السبب في سأسافر وأرسل له النقود من بطرسبرج في البداية مائة ثممائة ثم مائةوجاء لايفسكي في ساعة متأخرة من الليل فقالت له ناديجدا فيودوروفنا :في البداية مائة ثم مائة.

-هلا أخذت الكينا قال لها ثم فكر: غداً الأربعاء، تقلع السفينة ولن أسافر فيها إذن سيكون على أن أعيش هنا إلى السبت.

ونهضت ناديجدا فيودوروفنا في السرير على ركبتيها وسألته وهي تبتسم وتزر عينيها من ضوء الشمعة :ألم أقل شيئا الآن؟ - لا شيء ينبغى استدعاء الطبيب غدا ناميوأخذ وسادة ومضى إلى الباب بعد أن استقر قراره على السفر وترك ناديجدا فيودر وفنا، أصبحت تثير فيه الشفقة والشعور بالذنب وكان يحس في حضورها بقليل من تأنيب الضمير، كما في حضور فرس مريضة أو عجوز قرروا إعدامها وتوقف عند الباب والتفت إليها.

-لقد كنت متضايقاً أثناء النزهة وأغلظت القول اعذريني أرجوكقال ذلك ومضى إلى غرفة مكتبه، ورقد، ولكنه لم يستطع طويلاً أن ينام في اليوم التالي، بعد أن جاء صامويلنكو مرتدياً، بمناسبة العطلة الرسمية، حلته الرسمية الكاملة، بالكتفيات والأوسمة، وجس نبض ناديجدا فيودوروفنا، ونظر إلى لسانها ثم خرج من غرفة النوم، سأله لايفسكي الواقف بجوار العتبة في قلق :

-ماذا هناك؟ ماذا؟ كان وجهه ينم عن الخوف والقلق البالغ والأمل فقال صامويلنكو - :اطمئن ليس هناك شيء خطر حمي عادية فكشر لايفسكى بنفاد صبر :أنا لا أسألك عن هذا هل حصلت على النقود؟

-اعذرنى يا عزيزى - همس صامويلنكو وهو يتطلع نحو الباب ويشعر بالحرج - أرجوك اعذرني لا أحد لديه نقود زيادة جمعت حتى الآن من هذاخمسة ومن ذاك عشرة كل المتحصل مائة وعشرة سأتحدث اليوم إلى بعض الأشخاص اصبر قليلاً

فهمس لايفسكى وهو يرتعد من نفاد الصبر : لكن أقصى موعد يوم السبت! بحق كل القديسين، قبل السبت! إذا لم أسافر يوم السبت فلست بحاجة إلى شيء أبدا !لا أفهم كيف لا يكون لدى الدكتور نقود؟

-هذه مشيئتك يا ربى همس صامويلنكو بسرعة وتوتر حتى أن شيئاً صر في حلقه سحبوا مني كل ما عندى، هم مدينون لي بسبعة آلاف، وأنا مدين للجميع هل الذنب ذنبى؟.

-إذن فستحصل عليها حتى السبت؟ نعم؟ سأحاولأتوسل إليك يا عزيزى بحيث تكون النقود في يدي صباح الجمعةوجلس صامويلنكو، وكتب وصفة من الكينا بمحلول ومنقوع الراوند ،وكل ذلك في مزيج واحد، وأضاف إليه قليلاً من شربات الورد حتى لا يكون مراً، ثم انصرف.

ـ منظرك يبدو كأنك قادم لتلقي القبض على قال فون كورين عندما رأى صامويلنكو يدخل عليه في حلته الرسمية.

-كنت مارا من هنا فقلت لنفسي: فلأعرج لأرى عالم الحيوان قال صامويلنكو وهو يجلس إلى طاولة كبيرة صنعها عالم الحيوان بنفسه من ألواح بسيطة مرحباً يا أبانا المقدس وأومأ برأسه إلى الشماس الذي كان جالساًبجوار النافذة ينسخ شيئاً ما سأجلس دقيقة ثم أركض إلى البيت لآمر بإعداد الغداء حان الوقت ألم أعطلك؟.

أبدا قال عالم الحيوان وهو يفرش على الطاولة أوراقاً مكتوبة بخط دقيق إننا نقوم بالنسخ هكذا أوه، يا إلهي، يا إلهي تنهد صامويلنكو وتناول من فوق الطاولة بحذر كتاباً معفراً كان يستقر فوقه عنكبوت ميت جاف، وقال يا سلام! تصور مثلاً أن خنفسة خضراء تسير الأمر من أمورها، وإذا بها تقابلفي الطريق هذا الملعون إنني أتصور مدى رعبها؟نعم، طبعاً.

-هل منح السم ليحمى به نفسه من الإعدام؟ - نعم، ليحمى نفسه، وليهاجم هكذا، هكذا، هكذا كل شيء في الطبيعة يا أحبائى حكيم ومفهوم وتنهد صامويلنكو - ولكني لا أفهم التالي اشرح لى أنت، أيها الرجل النادر الذكي هناك، أتدرى، حيوانات صغيرة، لا تزيد عن حجم العرسة، وتبدو جميلة المظهر، ولكنها، وأقول لك، في غاية اللؤم والخسةويسير مثل هذا الحيوان في الغابة مثلاً، وإذا به يرى عصفوراً، فيمسكه ويلتهمة ويواصل سيره، فيرى في العشب عشاً به بيض، ورغم أنه لا يريد أن يأكل بعد، فهو شبعان، لكنه مع ذلك يكسر بيضة ويبعثر الأخريات بمخلبة بعيداً عن العش ثم يقابل ضفدعة فيبدأ في اللهو بها ويقتل الضفدعة ثم يمضي وهو يلعق شواربه فتقابله خنفسه فيهوى على الخنفسة بمخلبه يسير وهو يفسد ويدمر كل شيء في طريقه يقتحم جحور الحيوانات الأخرى، ويدمر أعشاش النمل عبثاً، ويقرقض القواقع وإذا صادفته عرسة اشتبك معها في عراك، وإذا رأى ثعباناً صغيراً أو فأرة فلا بد أن يسعى إلى خنقها وهكذا طول النهار قل لي إذن، ما الحاجة إلى مثل هذا الحيوان؟ ولماذا خلق؟ فقال فون كورين

-أنا لا أعرف عن أي حيوان تتحدث يبدو أنك تقصد أحد أكلة الحشرات حسناً، فاذا؟ لقد وقع العصفور في يده لأنه غير حذر وقد حطم العش مع البيض لأن الطائر ليس حاذقاً، وصنع عشه بصورة سيئة ولم يموهه جيداً أما الضفدعة فيبدو أن لديها عيباً في الصبغة اللونية، وإلا لما استطاع أن يكتشفها وهكذا دواليكإن حيوانك لا يقضى إلا على الضعفاء وغير الحاذقين، أي باختصار من لديهم عيوب لا ترى الطبيعة ضرورة في نقلها إلى الخلف ولا يبقى على قيد الحياة إلا الأكثر مهارة، المحاذرون، الأقوياء، والمتطورون وهكذا فإن حيوانك،دون أن يدرك ذلك، يخدم أهداف الرقي العظيمة.

-نعم، نعم، نعم بالمناسبة يا أخي قال صامويلنكو متبسطاً أعطني مائةروبل سلفاً حسناهناك حيوانات طريفة جداً من بين أكلة الحشرات مثلاً حيوان الخلد يقال عنه إنه نافع لأنه يقضي على الحشرات الضارة ويحكى أن أحد الألمان أرسل إلى الأمبراطور غليوم الأول معطف فراء من جلود الخلد، ويقال إن الأمبراطور أمر بتوبيخه لأنه أهلك هذا العدد الكبير من الحيوانات النافعة بينما لا يقل الخلد في قسوته عن حيوانك، وعلاوة على ذلك فهو ضار للغاية؛ لأنه يلحق بالمراعي أضرار بالغة.

وفتح فون كورين علبة وأخرج منها ورقة بمائة روبل واستطرد قائلاً وهو يغلق العلبة :

-القفص الصدري لدى الخلد قوى جداً، مثلما لدى الوطواط وعظامه وعضلاته متطورة إلى درجة رهيبة، وفمه مسلح بصورة خارقة ولو كان بحجم الفيل لأصبح حيواناً مدمراً لا يهزم ومن الطريف أنه عندما يلتقي خلدان تحت الأرض، يشرعان فوراً، وكأنما عن اتفاق، في حفر فسحة والغاية من هذه الفسحة أن تعطيهما مجالا أكبر للحركة أثناء العراك وما إن يحفراها حتى يشتبكا في قتال ضار، ويتقاتلان إلى أن يسقط الأضعف فيهماثمقال فون كورين وقد خفض نبرة صوته خذ المائة روبل، ولكن بشرط ألا تكون من أجل لايفسكى.

فانفجر صامويلنكو: فلتكن حتى من أجله! ما دخلك أنت؟

-لا أستطيع أن أعطيك نقوداً من أجل لايفسكي أنا أعرف أنك تحب إعطاء القروض، ولو طلب منك كريم اللص قرضاً لأعطيته، ولكن اعذرني، أنا لا أستطيع أن أساعدك في هذا الاتجاه فنهض صامويلنكو وقال وهو يلوح بذراعه اليمني :

نعم، أنا أطلب من أجل لا يفسكى! نعم! من أجل لايفسكى! ولا يملك أي شيطان أو عفريت الحق في أن يعلمني كيف ينبغي أن أتصرف في نقودى أنت لا تريد أن تعطيني؟ نعم؟ وقهقه الشماس فقال عالم الحيوان :دعك من الانفعال وفكر بروية إن البر بسيد مثل لايفسكى هو في رأييعمل أحمق، مثل ري الأعشاب الضارة أو إطعام الجرادفصرخ صامويلنكو وفي رأيي أننا ملزمون بمساعدة أقربائنا !.

في هذه الحالة فلتساعد هذا التركي الجائع الذي ينام هناك بجوار السور! فهو عامل، وأكثر ضرورة ونفعاً من صاحبك لايفسكى أعطه المائة روبل هذه ! أو تبرع لى بمائة روبل من أجل البعثة.

-إنني أسألك، هل ستعطيني النقود أم لا؟ قل لى بصراحة: ما حاجته إلى النقود؟ - هذا ليس سراً إنه بحاجة إلى السفر يوم السبت إلى بطرسبرج فقال فون كورين ببطء - هكذا إذن! آها مفهوم وهي، هل ستسافر معه أم ماذا؟ستبقى هنا مؤقتاً سيرتب أموره في بطرسبرج ثم يرسل إليها نقوداً،وعندئذ ستسافرفقال عالم الحيوان :

-يا للبراعة وضحك ضحكاً قصيراًرفيعاً يا للبراعة! يا للتدبيرالمحكم ! واقترب من سامويلنكو بسرعة، ووقف أمامه وجهاً لوجه، وحدق في عينه وسأله :قل لي بصراحة: هل كف عن حبها؟ نعم؟ قل: كف عن حبها؟ نعم؟
- نعم نطق ساموبلنكو وتصبب عرقاً

-يا للدناءة قال فون كورين وظهر على وجهه الإحساس بالاشمئزازواحدة من اثنتين يا ألكسندر دافيديتش: إما أنك متواطئ معه، أو أنك، لا مؤاخذة، أهبل ألا تفهم حقاً أنه يضحك عليك كأنك طفل، بطريقة في غاية الانحطاط؟ أليس واضحاً كالشمس أنه يريد التخلص منها وتركها هنا؟ وستبقى عالة عليك، ومن الواضح كالشمس أنه سيكون عليك أن تسفرها إلى بطرسبرج على حسابك

أمن المعقول أن صديقك الرائع قد أعماك بفضائله إلى هذه الدرجة فأصبحت لا ترى حتى أبسط الأشياء؟فقال صامويلنكو وهو يجلس - :هذه مجرد افتراضات.

-افتراضات؟ إذن فلماذا يسافر وحده وليس معها؟ ولتسأله لماذا لا تسافر

هي أولاً وهو بعدها؟ هذا المحتال اللئيم !

خار صامويلنكو فجأة وقد صدمته الشكوك والريب المفاجئة بخصوص صديقه، فهبطت نبرته وقال وهو يتذكر الليلة التي بات فيها لايفسكى عنده :

ولكن هذا مستحيل ! إنه يعانى جداًوماذا يعني ذلك؟ اللصوص والمخربون أيضاً يعانون فقال صامويلنكو مفكراً لنفرض حتى إنك على حق لنفرض ولكنه شاب، في أرض غريبة طالب، ونحن أيضاً طلبة، ولا يوجد هنا أحد غيرنا يمكن أن يسانده.

-تساعدهفي صنع الدناءات، فقط لأنكما كنتما في أوقات مختلفة طلاب جامعة، وكلاكما لم تفعلا هناك شيئاً! ما هذا الهراء !.

مهلاً، دعنا نفكر بأعصاب باردة أعتقد أنه من الممكن أن تفعل هكذا قال صامويلنكو مفكراً وهو يلعب أصابعه سأعطيه النقود، ولكني سآخذ منه كلمة شرف نبيلة بأن يرسل في طلب ناديجدا فيودوروفنا بعد أسبوع.

-وسيعطيك كلمة شرف، بل وستدمع عيناه، وسيصدق نفسه، لكن ما قيمةهذه الكلمة؟ لن يفي بها، وعندما ستلقاه بعد عام أو عامين في شارع نيفسكى متأبط ذراع حب جديد، سيبرر لك ذلك بأن الحضارة أفسدته، وبأنه نسخة من رودين دعك منه، اعمل معروفاً ابتعد عن القذارة ولا تنقب فيها بكلتا يديك !

ففكر صامويلنكو دقيقة ثم قال بحسم :ومع ذلك سأعطيه النقود كما تشاء أنا لا أستطيع أن أرفض رجاءالشخص على أساس الافتراضات وحدها.

-عظيم جداً فلتهنأ به فرجاه صامويلنكو بوجل - :أعطني إذن المائة روبل - لن أعطيك.

وحل الصمت خار صامويلنكو تماماً واكتسب وجهه ملامح الذنب والاستحياء والتزلف وكان من الغريب أن ترى هذا الوجه البائس الخجول كطفل لرجل ضخم يحمل الكتفيات والأوسمة وقال الشماس وهو ينحي القلم

-قداسة الأسقف المحلى يطوف على أبرشيته لا في عربة بل على ظهر حصان منظره وهو راكب على الحصان مؤثر للغاية بساطته وتواضعه مفعمتان بعظمة نورانية.

فسأل فون كورين الذي سره تغير مجرى الحديثهل هو شخص طيب؟- وكيف لا؟ لو لم يكن طيباً فهل كانوا يرسمونه أسقفا؟ فقال فون كورينيوجد بين الأساقفة أشخاص طيبون جداً وموهوبون

المؤسف فقط أن الكثيرين منهم يعيبهم أنهم يتصورن أنفسهم رجال دولة فبعضهم يمارس الترويس، والبعض الآخر ينتقد العلوم ليس هذا من شأنهم الأفضل لو ترددوا أكثر على إداراتهم الدينية رجل الدنيا لا يستطيع أن يحكم على الأساقفة لماذا يا شماس؟ الأسقف شخص مثلي تماماً فغضب الشماس وتناول القلم :

-مثلك وليس مثلك لو كنت مثله لحلت بك البركة ولأصبحت أسقفاً وما دمت لست أسقفا فمعناه أنك لست مثله فقال صامويلنكو بضيقكف عن الهراء يا شماس!- وقال مخاطبا فون كورين -اسمع، لقد وجدت حلاً لا تعطني المائة روبل هذه أنت ستطعم عندي ثلاثة أشهر أخرى حتىالشتاء، إذن فلتعطني مقدماً عن هذه الأشهر الثلاثة -لن أعطي كأي تحويل الأشخاص من غير الروس إلى روس . طرف صامويلنكو بعينيه وتضرج، وسحب بحركة آلية الكتاب ذا العنكبوت

وتطلع إليه، ثم نهض وتناول قبعته وشعر فون كورين بالشفقة عليه فقال وهو يركل بقدمه في غضب أحدى الأوراق إلى الركن :

فلتحاول أن تعيش وتصنع شيئاً بمثل هؤلاء السادة! فلتفهم أن هذه ليست طيبة قلب، ليس حباً، بل جبنا، تسيا، سا ما يفعله العقل تدمره قلوبكم المترهلة العاجزة! عندما كنت تلميذاً ومرضت بالتيفود، اطعمتني خالتي فطراً مخللاً رأفة بحالي فكدت أموت فلتفهم أنت وخالتى أن حب الشر لا ينبغي أن يكون في القلب أو في الجوانح أو في الخصر، بل هنا !.

وخبط فون كورين على جبينه ثم قال :خذ! وألقى بالورقة ذات المائة روبل فقال صامويلنكو بوداعة وهو يطوى الورقة:

عبثا تغضب يا كوليا إنني أفهمك تماما، ولكن ضع نفسك في مكانيأنت امرأة عجوز ليس إلا! فقهقه الشماس وقال فون كورين بحرارة :

-سامع يا ألكسندر دافيديتش، رجاء أخيراً عندما تعطى النقود لذلك النذل أعرض عليه هذا الشرط: فإما أن يسافر مع سيدته، وإما يسفرها أولاً، وبغير ذلك لا تعطه لا مجال للتحرج معه هكذا قل له وإذا لم تقل فأقسم لك بشرقي إنني سأذهب إليه في مكتبه وأسحبه على الدرج، ولن أعرفك بعد ذلك فلتعلمهذا !فقال صامويلنكو :

-حسنا، لو سافر معها أو أرسلها قبلة فسيكون ذلك أفضل له بل سيكونمسروراً لذلك طيب، وداعاً.

ودع برقة وخرج، ولكن قبل أن يغلق الباب خلفه التفت إلى فون كورين وأصبح وجهه مرعباً، وقالإنهم الألمان الذين أفسدوك يا أخي! نعم! الألمان. في اليوم التالى، الخميس، احتفلت ماريا قسطنطينوفنا بعيد ميلاد ابنها كوستيا ودعى الجميع لتناول الكعكة ظهراً، ولشرب محلول الشيكولاته مساءوعندما وصل لايفسكي وناديجدا فيودوروفنا في المساء، مال فون كورين، الذي كان جالساً في غرفة الجلوس يشرب محلول الشيكولاته، على صامويلنكو وسأله

-هل تحدثت معه؟.

-ليس بعد.

-انتبه، لا تتحرج معه أنا لا أفهم وقاحة هؤلاء السادة إنها يعلمان جيداً نظرة هذه الأسرة إلى علاقتهما غير الشرعية ومع ذلك يقحمان أنفسهما هنافقال صامويلنكو :لو راعيت كل تحيز مغرض فسيكون عليك ألا تخرج إلى أي مكانوهل اشمئزاز العامة من علاقة الحب غير المشروعة ومن الانحلال تحيز مغرض؟ .

طبعاً تحيز مغرض وحقد فالجنود عندما يرون فتاة خليعة يقهقهون ويصفرون، فلتسألهم من يكونون هم؟.

ليس عبثاً يصفرون فعندما تخنق البغايا أطفالهن الحرام ويمضين إلى الأشغال الشاقة،وعندما تلقى أنا كارنينا بنفسها تحت عجلات القطار، وعندما يلوثون الأبواب بالقطران في القرى، وعندما لسبب ما يعجبني وإياك في كاتيا طهارتها، وعندما يشعر كل منا بالحاجة المبهمة إلى الحب الطاهر، رغم أنه يعلم أن مثل هذا الحب غير موجودفهل هذا كله تحيز مغرض؟ إن هذا يا أخي هو الشيء الوحيد الذي تبقى من قانون الانتخاب الطبيعي، ولولا هذه القوة المجهولة التي تنظم العلاقة بين الجنسين لأراك السادة آل لايفسكى الويل، ولتفسخت البشرية في غضون عامين.

دخل لايفسكي غرفة الجلوس وسلم على الجميع، وابتسم بتزلف وهويصافح فون كورين وانتظر فرصة مناسبة وقال لصامويلنكو :عفواً يا ألكسندر دافيديتش، أريدك في كلمتين.

ونهض صامويلنكو، وضمه إليه من خصره، وذهبا معاً إلى غرفة مكتب

نيكو ديم ألكسندريتشوقال لايفسكى وهو يقضم أظافره: غداً الجمعة هلحصلت على ما وعدتني به؟

-حصلت فقط على مائتين وعشرة الباقى سأحصل عليه اليوم أو غداً كن

مطمئناً فتنهد لايفسكى وارتعشت يداه من الفرحة :

الحمدلله ! لقد أنقذتني يا ألكسندر دافيديتش، وأقسم لك بالله،بسعادتى، بكل ما تريد، إنني سأرسل إليك هذه النقود بمجرد وصولي ودينى القديم سأرسلهكان من العادات القديمة في الريف إذا ظهر أن العروس لم تكن عذراء أن يلوثوا بابيتها بالقطران الأسود فقال صامويلنكو وهو يمسك بزرار لايفسكى ويتضرجاسمع يا فانيا اعذرني إذا كنت أتدخل في شئونك العائلية، ولكن لماذا

لا تسافر مع ناديجدا فيودوروفنا؟.

-يا لك من غريب، وهل هذا ممكن؟ لا بد أن يبقى أحدنا، وإلا جن جنون الدائنين فأنا مدين لأصحاب المحلات بحوالى سبعمائة روبل، أو أكثر انتظر، سأرسل لهم النقود، وأسد أفواههم، وعندها ستسافر هي أيضاً من هنا.

-طيب ولماذا لا تسفرها هي أولاً؟ فقال لايفسكى بجزع :آه يا إلهي، وهل هذا ممكن؟ إنها أمرأة، فما الذي ستستطيع أن تفعله هناك؟ما الذي تعرفه؟ سيكون هذا مجرد تعطيل وتبديد للنقود بلا معنى.

فقال صامويلنكو في نفسه: معقول،ولكنه تذكر حديثه مع فون كورين فأطرق وقال عابساً :

-أنا لا أستطيع أن أوافقك على رأيك فإما إن تسافر معها، وإما أن تسفرها

أولاً، وإلا وإلا فلن أعطيك النقود هذا آخر كلام عنديوتقهقر بظهره وناخ به على الباب، وخرج إلى غرفة الجلوس محمراً، في غايةالارتباكوفكر لايفسكي وهو يعودإلى غرفة الجلوس: الجمعةالجمعةالجمعةوقدموا له كوب شيكولاته، ولسعت الشيكولاته الساخنة شفتيه ولسانه.

ومضى يفكر :

ليالجمعة الجمعةالسبب مالمتترك كلمة الجمعة دهنه، فلم يفكر في شيء آخر سوىالجمعة، وأصبح واضحاً له فقط، ولكن ليس في رأسه، بل في مكان ما تحت قلبه، أنه لن يستطع السفر يوم السبت ووقف أمامه نيكوديم ألكسندريتش مهندماً، بصدغين ممشطين، وراح يرجوه تفضل كل

لو تكرمت وعرضت ماريا قسطنطينوفنا على الضيوف علامات كاتيا المدرسية وهيتقول ببطءأصبحت الدراسة الآن صعبة جداً، جداً! يطالبونهم بأشياء كثيرةفتئن كاتيا :ماما !ولا تعرف أين تخفي وجهها من الخجل والمديحوشاهد لايفسكى أيضاً العلامات وامتدحها وقفزت أمام عينيه مواد الدين، واللغة الروسية، والسلوك، والخمسات والأربعات(١)، وبدا له ذلك كله، بالإضافة إلى الجمعة التي ألحت عليه، وصدغى نيكوديم ألكسندريتش الممشطين، وخدى كاتيا الأحمرين، بدا له وحشة لا تحد ولا تقهر حتى إنه كاد يصرخ بأساً، وسأل نفسه: أحقاً، أحقاً لن أسافر؟ووضعوا طاولتي لعب متجاورتين وجلسوا ليلعبواساعي البريدوجلس لايفسكى أيضاً الجمعة الجمعة فكر وهو يبتسم ويخرج قلما من جيبه - الجمعة.

وأراد أن يفكر في أمره وفي الوقت نفسه خاف من التفكير كان مخيفاً أنيعترف بأن الدكتور كشف خداعه الذي أخفاه طويلاً وبعناية عن نفسه ففي كل مرة فكر فيها فيمستقبله لم يكن يترك الحرية الكاملة لأفكاره سيستقلالقطار ويرحل وبهذا تحل قضية حياته، ولم يكن يترك أفكاره تمضي إلى أبعد وكضوء كاب بعيد في حقل كانت تومض في رأسه أحياناً فكرة، بأنه في مكان ما، بإحدى حارات بطرسبرج، في المستقبل البعيد، سيضطر إلى كذبة صغيرة لكي يفترق عن ناديجدا فيودوروفنا ويسدد الديون سيكذب مرة واحدة فقط، ثم يأتي التجدد الشامل وهذا حسن: فبكذبة صغيرة سيشتري الحقيقة الكبيرة

أما الآن، وعندما ألمح الدكتور بصراحة فجة إلى خداعه حين رفض طلبه، فقد أصبح واضحا لديه أنه سيلجأ إلى الكذب لا في المستقبل البعيد فحسب، بل اليوم وغداً، وبعد شهر، وربما حتى إلى آخر العمر وبالفعل، فلكى پر حل سيكون عليه أن يكذب على ناديجدا فيودوروفنا وعلى الدائنين وعلى رؤسائه وبعد ذلك، ولكي يحصل في بطرسبرج على نقود، سيضطر إلى الكذب على أمه فيقول لها إنه انفصل فعلاً عن ناديجدا فيودوروفنا ولن تعطيه أمه أكثر من خمسمائة روبل، إذن فقد خدع الدكتور أيضاً، لأنه لن يكون قادراً على إرسال النقود إليه في وقت قريب وبعد ذلك، وعندما تأتي ناديجدا فيودوروفنا إلى بطرسبرج، سيكون عليه أن يلجأ إلى سلسلة كاملة من الأكاذيب الصغيرةوالكبيرة لكي ينفصل عنها ومن جديد الدموع، الملل، والحياة المقرفة، والندم، إذن فلن يكون هناك أي تجددالخداع ولا شيء سواه وارتفع في خيال لايفسكى تل كامل من الأكاذيب ولكي يقفز من فوقه دفعة واحدة ولا يلجأ إلى الكذب على دفعات، لا بد من الإقدام على خطوة حاسمة، كأن ينهض مثلاً، دون كلمة واحدة، ويرتدي قبعته، ويرحل فوراً بدون نقود، ودون كلمة واحدة ولكن لايفسكى كان يشعر بأن هذا مستحيل بالنسبة لهالجمعة الجمعة فكر لايفسكيالجمعةكانوا يكتبون رسائل قصيرة، ويطوونها نصفين، ويضعونها في قبعة نيكوديم ألكسندريتش الأسطوانية القديمة، وعندما يتجمع منها عدد كاف، يقوم كوستيا، الذي يمثل دور ساعي البريد، بالطواف على المائدة وتوزيعها عليهم وكان الشماس

وكاتيا وكوستيا، الذين تلقوا رسائل مضحكة ويحاولون كتابة رسائل أكثر إضحاكاً، كانوا في قمة الإعجابنحن بحاجة إلى أن نتحدث قرأت ناديجدا فيودوروفنا في الرسالة تبادلتالنظر مع ماريا قسطنطينوفنا فابتسمت هذه ابتسامة لوزية وأومأت برأسهاوعم نتحدث؟ فكرت ناديجدا فيودوروفنا إذا لم يكن من الممكن أنأروى كل شيء فلا معنى للحديث.

قبل أن تخرج إلى الزيارة عقدت للايفسكى ربطة عنقه، فملأ هذا العمل التافه روحها بالرقة والحزن وأوحي إليها القلق المرتسم على وجهه، ونظراته الشاردة، وشحوبه، والتغير غير المفهوم الذي طرأ عليه في الأيام الأخيرة، وكتمانها عنه سراً رهيباً شنيعاً، وارتعاش يديها عندما كانت تعقد ربطة عنقهكل ذلك أوحى إليها بسبب ما بأنه لم يبق لهما إلا وقت قصير للحياة معاً وأخذت تتطلع إليه كما تتطلع إلى أيقونة، بخوف وندم، وهي تقول في خاطرها :سامحني، سامحني وكان أتشميانوف جالساً قبالتها إلى الطاولة ولا يحول عنها عينيه السوداوين العاشقتين وأثارتها الرغبات، فخجلت من نفسها وخافت من أنه حتى الكآبة والحزن لن يمنعها من الاستسلام للشهوة المدنسة، إن لم يكن اليوم فغدا، وإنها، كالسكير المدمن، لم تعد قادرة على التوقفولكي لا تمضي في هذه الحياة المشينة لها، والمهينة للايفسكى، فقد قررت أن ترحل سوف تضرع إليه باكية أن يدعها ترحل، فإذا عارض فسوف تتركه خفية ولن تخبره بما حدثفتبقى ذكراها لديه طاهرةأحبك،أحبك، أحبك قرأت في الورقة - إنها من أتشميانوفوستعيش في مكان ناء، وستعمل، وترسل إلى لايفسكى من مجهول بالنقود والقمصان المطرزة، والتبغ

ولن ترجع إليه إلا في الشيخوخة وفي حالة ما إذا مرض مرضاً خطيراً واحتاج إلى من يرعاه وعندما يعلم في الشيخوخة بالأسباب التي جعلتها ترفض أن تصبح زوجته وتتركه، فسوف يقدر تضحيتها ويغفر لهاأنفك طويل يبدو أنها من الشماس أو من كوستيا وتخيلت ناديجدا فيودووروفنا كيف ستعانق لايفسكى بشدة عند الوداع، وتقبل يده، وتقسمله بأنها ستظل تحبة طوال العمر، وكيف ستفكر بعد ذلك كل يوم، وهي تعيش في المكان النائي، بين أناس غرباء، بأن لديها صديقاً، حبيباً، طاهراً، نبيلاً، سامياً، يحفظ لها ذكرى طاهرةإذا لم تحددي لى اليوم موعداً فسأتخذ إجراءاتي، أؤكد لك بشرفي الناس المحترمون لا يعاملون بهذه الصورة، ينبغي أن تفهمى ذلك هذه من كيريلين.

وصلت لايفسكى رسالتان، ففض إحداهما وقرأ: لاتسافر أيهاالغالىمن يا ترى كاتب هذا؟ فكر لايفسكى بالطبع ليس صامويلنكو وليس الشماس لأنه لا يعرف أنني أريد أن أسافر أهو فون كورين إذن؟.

كان عالم الحيوان منكباً على الطاولة يرسم هرماً وخيل إلى لايفسكى أن

عينيه تبتسمانوفكر لايفسكى: يبدو أن صامويلنكو ثرثر عفواً وفي الرسالة الثانية، التي كانت مكتوبة بنفس الخط المكسر، بحروف ذات ذيول طويلة وزخارف، قرأ:هناك شخص لن يسافر يوم السبتوفكر لايفسكى:بسخريه سخيفة الجمعة، الجمعة

وصعد شيء ما إلى حلقه فتحسس لايفسكى ياقة قميصه وسعل، ولكن بدلاً من السعال انطلق من حلقة الضحكهاهاها! قهقه لايفسكى ها هاها وفكر ما هذا، ما الذي أضحكني؟ ها هاها !. وحاول أن يكبح نفسه، و سد فمه براحته، ولكن الضحك ضغط على صدره

وعنقه، لم تستطع يده أن تسدفمهما أغبي هذا مع ذلك فكر وهو يتلوى من الضحك هل جننت أمماذا؟.

تعالت الضحكات أكثر فأكثر وتحولت إلى ما يشبه نباح كلب صغير وأراد لايفسكى أن ينهض ويغادر الطاولة ولكن قدميه لم تطاوعاه، بينما قفزت يده اليمني بصورة غريبة ورغماً عنه فوق الطاولة، وأخذت تلتقط الأوراق بعصبية وتعصرها ورأى أمامه عيوناً مندهشة، ووجه صامويلنكو الجاد المذعور، ونظرة عالم الحيوان المليئة باستهزاء بارد وتقزز، فأدرك أنه أصيب بحالة هستيريا.

يا للخزي، يا للفضيحة - فكر لايفسكي وهو يشعر بدفء الدموع علىوجهه آه، آه، يا للعار لم يحدث لي هذا أبداً من قبلوها هم أولاء قد رفعوه من تحت إبطيه وقد أسندوا رأسه من الخلف، وجروه إلى مكان ما وها هو ذا كوب يلمع أمام عينيه ويصطدم بأسنانه، فينسكب الماء على صدرهوها هي ذي غرفة صغيرة في وسطها سريران متجاوران مغطيان بغطائين نظيفين أبيضين كالثلج وتهالك على أحدهما وانخرط في النحيبلا بأس، لا بأس قال صامويلنكو هذا يحدث هذا يحدث.

كانت ناديجدا فيودوروفنا متثلجة الأطراف من الخوف، وبدنها كله يرتجف وهي تتوقع حدوث شيء رهيب ووقفت بجوار السرير تسأل لايفسكى - :ماذا بك ؟ ماذا؟ قل لي أرجوكوفكرت: أيكون كيريلين قد كتب له شيئا ما؟ فقال لايفسكى وهويضحك ويبكى :لا شيء اخرجي من هنا يا عزيزتيلم يكن وجهه يعبر عن الكراهية أو الاحتقار، إذن فهو لا يعلم بشيء واطمأنت ناديجدا فيودرروفنا قليلاً وخرجت إلى غرفة الجلوس.

لا تقلقي يا عزيزتي قالت لها ماريا قسطنطينوفنا وهي تجلس إلى جوارها وتمسك يدها هذا سيمر الرجال أيضاً ضعفاء مثلنا نحن الخاطئ أنتما الاثنان تمران الآن بأزمةهذا مفهوم تماماً حسناً يا عزيزتي، إنني انتظر الردهيا نتحدثفقالت ناديجدا فيودوروفنا وهي تصغي إلى نحيب لايفسكى: - كلا، لن نتحدث عندى انقباض أسمحي لي أن أذهب فقالت ماريا قسطنطينوفنا بجزع :
-ماذا تقولين يا عزيزتى! أتظنين حقاً أنني أتركك تذهبين بدون عشاء؟

فلنأكل أولاً ثم اذهبي في رعاية اللهف همست ناديجدا فيودوروفناعندى انقباض وتشبثت بذراع المقعد بكلتا يديها حتى لا تسقط عنده تشنج قال فون كورين بمرح وهو يدلف إلى غرفة الجلوس، ولكنهأحرج عندما رأى ناديجدا فيودوروفنا فخرج وعندما انتهت الهستيريا جلس لايفسكي على السرير الغريب وفكر :يا للعار، تملكني البكاء كطفلة لا بد أنني مضحك ومقززفلأنصرف من الباب الخلفي

ولكن سيكون معنى ذلك أنني أولى أهمية كبيرة لهذه الهستيريا من الأفضل تحويل الأمر إلى مزحة وتطلع في المرآة، ثم جلس بعض الوقت، وخرج إلى غرفة الجلوسها أنا ذا قال مبتساً كان يشعر بخجل مضن، وأحس أن الآخرين يعانون أيضاً من الخجل في حضوره فقال وهو يجلس ما أغرب ما يحدث أحياناً كنت جالساً وفجأة، أتدرون، أحسست بألم رهيب يخزني في جنبي ألم لا يطاق، فلم تتحمل أعصابى وحدث هذا الأمر السخيف نحن في عصر القلق، فيم العمل؟.

أثناء العشاء كان يشرب الخمر ويتحدث، ويزفر أحياناً بتوتر وهو يمسح على جنبه كأنما ليظهر أناالألم لم يزايله تماماً ولم يصدقه أحد، سوى ناديجدا فيودوروفنا، ورأى هو ذلكفي حوالي الساعة العاشرة ذهبوا للتنزه في البوليفار وخافت ناديجدا فيدوروفنا أن يتحدث كبريلين إليها، فحاولت طوال الوقت أن تظل إلى جوار ماريا قسطنطينوفنا والأولاد أحست بالضعف من الخوف والضيق، وأدركها التعب وهي تشعر باقتراب نوبة الحمي، فسارت تجرجر قدميها، ولكنها لمتنصرف إلى البيت لأنها كانت واثقة من أن كيريلين أو أتشميانوف، أو الاثنين معاً سيتبعانها وسار كيرلين خلفها مع نيكوديم ألكسندريتش وهو يدندن بصوت خافت :

-لن أسمح باللعب بى لن أسمح.

انعطفوا من البوليفار إلى المقصف، ثم ساروا على الشاطئ، وظلوا ينظرون طويلاً إلى مياه البحر الفوسفورية المضيئة ومضى فون كورين يشرح هذه الظاهرةعلى أن أذهب للعب أنهم في انتظارى قال لايفسكى وداعاً ياسادةوأنا معك، انتظر - قالت ناديجدا فيودوروفنا وتأبطت ذراعه وودعا الجماعة وانصرفا وودع كيريلين أيضاً وقال إنه في نفس اتجاهها، وسار إلى جوارهمافليكن ما يكون فكرت ناديجدا فيودوروفنا فليكن.

وخيل إليها أن كل الذكريات السيئة خرجت من رأسها وتسير في العتمة إلى جوارها وتلهث بتوتر، أما هي، فكانت كالذبابة التي وقعت في حبر، تسير بصعوبة في الشارع وتلوث جنب لايفسكى ويده بالسواد وفكرت: لو أقدمكيرئلين على ارتكاب عمل سيئ فلن يكون هو المذنب في ذلك، بل هي ألم يكن هناك زمن لم يتحدث فيه أي رجل معها كما يتحدث كيرلين، وهي نفسها التي قطعت ذلك الزمن كما يقطع الخيط وقضت عليه دون رجعة فمن المذنب في ذلك؟ لقد أعمتها رغباتها فأخذت تبتسم لرجل غريب عنها تماماً، ربها فقطلأنه فخم الهيئة وفارع الطول، وأضجرها بعد لقائين اثنين فهجرته، أفلا يحق له لهذا السبب فكرت الآن أن يعاملها كما يحلو له؟.

وتوقف لايفسكى عن السير وقال :هنا يا عزيزتي سأودعك سيوصلك إيليا ميخايليتش وانحني لكيريلين، ومضى بسرعة بعرض البوليفار، وعبر الشارع إلى منزل شيشكوفسكى، حيث لاح الضوء في النوافذ، وتناهى بعد ذلك صوت باب السياج

وهو يغلقه خلفهوبدأ كيريلين يقول:

-فلتسمحي لي أن أستوضح منك أنا لست صبيا، لست أحدهؤلاءالأتشكسوف أو لاتشكاسوف، زاتشكسوف أنا أطالبك باهتمام جاد دق قلب ناديجدا فيودوروفنا بعنف ولم ترد بشيء فمضى كيريلين يقول :في البداية فسرت تحولك الحاد في التعامل معي بأنه دلال أما الآن فأرى أنك ببساطة لا تجيدين معاملة الناس المحترمين لقد أردت ببساطة أن تلعبيبي، مثلما تلعبين بهذا الصبي الأرمني، ولكني رجل محترم وأطالب بأن أعامل كرجل محترم وهكذا فأنا تحت أمركأنا عندى انقباض قالت ناديجدا فيودوروفنا وبكت، ولكي تخفيدموعها حولت وجهها.

-أنا أيضا عندى انقباض،ولكن ماذا يترتب على ذلك؟.

وصمت كبريلين قليلاً، ثم قال بوضوح وبطء: أكرر لك يا سيدتي: إنه إذا

لم تحددي إلى اليوم لقاء، فسوف أثير اليوم فضحية.

دعني اليوم أرجوك قالت ناديجدا فيودوروفنا وهي لا تتعرف علىصوتها إذا كان رفيعاً يثير الشفقةيجب أن ألقنك درساً اعذريني على هذه اللهجة القاسية، ولكن منالضروري أن ألقنك درسانعم، للأسف ينبغي أن ألقنك درساً أنا أطلب لقائين : اليوم وغداً بعد غد أنت حرة تماماً ويمكنك أن تمضى إلى حيث تشائين ومع من تريدين اليوم وغداً.

اقتربت ناديجدا فيودروروفنا من باب سور بيتها وتوقفتوهمست وبدنها كله يرتجف وهي لا ترى أمامها شيئاً في الظلام سوى سترة بيضاء.

-اتركنى أرجوك! أنت على حق، أنا امرأة فظيعة أنا مذنبة، ولكن اتركنى أرجوك ولمست يده الباردة فانتفضت أتوسل إليكفزفر كيريلين قائلاً :

-واأسفاه، واأسفاه! ليس في نيتي أن أتركك،أريد فقط أن ألقنك درساً، أجعلك تفهمين وعلاوة على ذلك يا مدام فأنا لا أثق كثيراً في النساءأنا عندى انقباض أصغت ناديجدا فيودوروفنا إلى صخب البحر المنتظم، ونظرت إلى السماءالمرصعة بالنجوم، فأحست بالرغبة في الانتهاء من كل هذا بسرعة، والتخلص من الإحساس اللعين بالحياة ببحرها ونجومها ورجالها وحماهاً فقالت ببرود :فقط ليس عندي في البيت خذني إلى أي مكان فلنذهب إلى مريدوف أفضل مكانأين هذا؟قرب الجسر القديم.

مضت في الشارع بسرعة، ثم انحرفت إلى حارة تفضي إلى الجبال كان الجو مظلماً وهنا وهناك تناثرت على أرض الشارع خطوط ضوئية شاحبة من النوافذ المضاءة، فخيل إليها أنها كالذبابة، تارة تسقط في الحبر، وتارة أخرى تخرج منه إلى النور وسار كبريلين خلفها وفي أحد الأماكن تعثر وكاد أن يسقط فضحكوفكرت ناديجدا فيودروفنا: إنه سكران سيان سيان فليكنوبعد فترة قصيرة ودع أتشميانوف أيضاً الجماعة، ومضى في إثر ناديجدا فيودروفنا لكي يدعوها لنزهة في قارب، اقترب من بيتها، ونظر عبر الحديقة: كانت النوافذ مفتوحة على مصاريعها ولا ضوء فيها.

وناديناديجدا فيودروفنا! ومرت دقيقة، فنادى ثانيةمن هناك ؟ سمع صوت أولجاناديجدا فيودوروفنا موجودة؟لا لم تأت بعد.

همهغريبةغريبةجداً فكر أتشميانوف وقد بدأ يشعر بقلق شديد لقدانصرفت عائدة إلى البيتوتمشي في البوليفار، ثم في الشارع، وأطل في نوافذ دار شيشكوفسكيكانلايفسكى يجلس إلى الطاولة بدون سترة ويحدق في أوراق اللعب باهتمام.

-غريبة، غريبة دمدم أتشميانوف، وأحس بالخجل عندما تذكر الهستيرياالتي أصابت لايفسكى إذا لم تكن في البيت فأين هي؟.

وذهب ثانية إلى بيت ناديجدا فيودر وفنا، ونظر إلى النوافذ المظلمةهذا خداع، خداع فكر وهو يتذكر أنها هي التي وعدته بالتنزه معه مساء في القارب عندما التقى بها ظهر اليوم عند آل بيتو جوف.

كانت نوافذ المنزل الذي يقطنه كيريلين مظلمة، وجلس شرطى على الأريكة قرب البوابة مستغرقاً في النوم وعندما نظر أتشميانوف إلى النوافذ وإلى الشرطي أدرك كل شيء وقرر أن يعود إلى بيته، ومضى، ولكنه وجد نفسه من جديد بالقرب من بيت ناديجدا فيودروفنا وهنا جلس على الأريكة، ونزع قبعته وهو يشعر برأسه يحترق من الغيرة والحنق.

كانت ساعة كنيسة المدينة لا تدق إلا مرتين في اليوم: في الظهر وفي منتصفالليل وبعد أندقت معلنة منتصف الليل بقليل تناهى صوت خطوات مستعجلة.

-إذن غدا مساء عند مريدوف ثانية سمع أتشميانوف فعرف صوتكيريلين - في الثامنةإلى اللقاءوظهرت ناديجدا فيودروفنا بجوار حديقة المنزل ولم تلحظ أتشميانوف وهو جالس على الأريكة فمرت بجواره كالظل، وفتحت باب السور وتركته مفتوحاً ودلفت إلى البيت وأشعلت في غرفتها شمعة، ونزعت ثيابها بسرعة، ولكنها لم تذهب إلى الفراش، بل جثت على ركبتيها أمام الكرسى، واحتضنته،وألصقت جبينها بهوعاد لايفسكي إلى البيت والساعة تدور في الثالثة قرر لايفسكى ألا يكذب دفعة واحدة بل على أجزاء، فتوجه في اليوم التالى إلى صامويلنكو ليطلب نقوداً ليرحل يوم السبت من كل بد كان من المستحيل أن يبقى في المدينة بعد نوبة الهستيريا بالأمس، التي أضافت إلى حالته النفسية السيئة إحساساً حاداً بالخجل فإذا ما أصر صامويلنكو على شروطه فكر لايفسكى فسيوافقه عليها ويأخذ النقود، ثم يقول له غداً، في لحظة الرحيل الأخيرة أن ناديجدا فيودوروفنا رفضت أن تسافر وسيعمل في المساء على إقناعها بأنه يفعل كل ذلك من أجل مصلحتها أما إذا رفض صامويلنكو، الواقع تحت تأثير فون كورين الواضح، أن يعطيه النقود بتاتاً، أو تقدم بشروط جديدة، فإن لايفسكى سيرحل اليوم مباشرة على سفينة بضائع أو في قارب شراعي إلى نوفي أفون أو نوفوروسيسك، ويرسل من هناك برقية ذليلة إلى أمه، ويبقى هناك إلى أن ترسل له أمه أجرة الطريق

عندما وصل إلى بيت صامويلنكو وجد في غرفة الجلوس فون كورين كانعالم الحيوان قد جاء لتوه لتناول الغداء، وكالعادة فتح الألبوم وراح يتفحص الرجال ذوي القبعات الأسطوانية والنساء ذوات القلنسوات.

وفكر لايفسكى عندما رآه: جاء في غير وقته يمكن أن يفسد الأمر مرحباًمرحباً أجاب فون كورين دون أن ينظر إليه ألكسندر دافيديتش موجود؟ نعم في المطبخ توجه لايفسكي إلى المطبخ، ولكنه رأى من الباب أن صامويلنكو مشغول بإعداد السلطة، فعاد إلى غرفة الجلوس وجلس كان يشعر في حضرة عالم الحيوان دائماً بالحرج، أما الآن فكان يخشى أنه سيضطر إلى الحديث عن نوبة الهستيريا ومر أكثر من دقيقة في صمت وفجأة رفع فون كورين عينيه إلىلايفسكى وسأله :

-كيف حالك بعد نوبة الأمس؟ فأجاب لايفسكى وهو يتضرج: رائع في الواقع لم يحدث شيء يذكرحتى الأمس كنت أعتقد أن الهستيريا لا تصيب إلا السيدات، لذلك ظننت في البداية أنك أصبت بالرقاص.

فابتسم لايفسكى بتزلف وفكر: يا لها من عدم لباقة من جانبه إنه يعلم جيداً أنني في حالة صعبةوقال وهو لا يزال يبتسم :

-نعم، كانت حادثة مضحكة لقد أخذت أضحك اليوم طول الصباحالمفارقة في نوبة الهستيريا أنك تعلم أنها سخيفة، وتسخر منها في نفسك

وفي الوقت نفسه تنتحب إننا في عصرنا القلق هذا عبيد أعصابنا فهى أسيادنا وتفعل بنا ما تشاء وفي هذا الصدد فقد أسدت الحضارة إلينا خدمة كخدمة الدب لصاحبه.

كان لايفسكى يتحدث ويشعر بالضيق من أن فون كورين يصغى إليه بجدية واهتمام، ويحدق فيه بإمعان دون أن تطرف عيناه، وكأنه يدرسه وأحنقه من نفسه أنه رغم كل نفوره من فون كورين، لم يستطع أبداً أن يمسح عن وجهه ابتسامته المتزلفة ومضى يقول :

وإن كان على أن أعترف بأنه كانت هناك أسباب مباشرة للنوبة، وأسباب لها ما يبررها لقد تدهورت صحتى بشدة في الآونة الأخيرة أضف إلى ذلك الملل، والإفلاس المستمر وعدم وجود ناس أو اهتمامات مشتركة.

وضعي في سوء ما بعده سوءفقال فون كورين - :نعم، وضعك بلا مخرج هذه الكلمات الهادئة الباردة، التي لا يعرف أن كانت تنطوي على سخرية أم على نبوءة متطفلة، أهانت لا يفسكيوتذكر نظرة عالم الحيوان بالأمس، المليئة بالسخرية والاشمئزاز، فصمت قليلاً، ثم سأل وقد كف عن الابتسام :

-ومن أين عرفت بوضعي؟.

-أنت تحدثت عنه بنفسك الآن، ثم إن أصدقاءك يبدون تعاطفاً حاراً معك،

إلى درجة أننا لا نسمع طوال اليوم إلا عنك.

-أي أصدقاء؟ تقصد صامويلنكو؟ - نعم، وهو أيضاً.

-أرجو من ألكسندر دافيديتش، وعموماً من أصدقائي، أن يقللوا مناهتمامهم بى.

-ها هو ذا صامويلنكو بنفسه، فلتطلب منه أن يقلل من اهتمامه بك فدمدم لايفسكى :

أنا لا أفهم لهجتك هذه وتملكه إحساس كأنما أدرك الآن فقط أن عالم الحيوان يكرهه ويحتقره ويهزأ به، وأن عالم الحيوان هو أخبث وألد أعدائه فقال بصوت خافت وهو لا يقوى على الكلام بصوت عال من الكراهية التي ضغطت على صدره وعنقه كرغبته في الضحك أمس وفر هذه اللهجة لشخص آخر غيريودخل صامويلنكو بدون سترة، عرقان، أحمر من جو المطبخ الخانق وقال :آه، أنت هنا؟ مرحباً يا عزيزى هل تغديت؟ لا تتكلف وقل: تغديت؟ فقال لايفسكى ناهضاً :

-ألكسندر دافيديتش إذا كنت قد قصدتك في طلب شخصى فإن هذا لايعني أنني أعفيتك من مسئولية أن تكون متواضعاً وتحترم أسرار الآخرينفدهش صامويلنكو - :ماذا هناك ؟ فمضى لايفسكى يقول رافعاً صوته ومبدلاً قدميه من شدة الانفعال :إذا لم يكن لديك نقود، فلا تعط، ارفض الطلب، ولكن ما الداعي للصراخ في كل حارة بأن وضعى بلا مخرج وخلافه؟ أنا لا أطيق أعمال الخير هذه

عندما تساوى الأعمال درهماً والأقوال قنطاراً يمكنك أن تتفاخر بأعمال خيرك هذه كما يحلو لك، ولكن أحداً لم يعطك الحق في إفشاء أسراري.

-أية أسرار؟ - سأل صامويلنكو بدهشة وقد بدأ يغضب إذا كنت قد جئت للتشاجر فلتذهب عد فيما بعد !-

وتذكر القاعدة التي بمقتضاها ينبغي على المرء، إذا غضب من قريبه، أن يعد

في ذهنه إلى المائة، وعندئذ يهدأ فبدأ يعد بسرعة واستطرد لايفسكى :

-أرجوك ألا تهتم بيلا تلق إلى بالاً وما دخل الآخرين بي وبحياتي؟ نعم، أنا أريد أن أسافر! نعم، أنا أستدين، وأسكر، وأعاشر زوجة رجل آخر، وعندي هستيريا، أنا مبتذل، ولست عميق التفكير كبعضهم، ولكن ما دخل الآخرين بذلك؟ فلتحترموا الفرد.

فقال صامويلنكو وقد عد إلى الخامسة والثلاثين : اعذرني يا صاحبي، ولكن فقاطعه لايفسكى :احترموا الفرد هذه الأقاويل المستمرةفي حق الآخرين، هذه الآهات والتأوهات، هذه المراقبة المستمرة والتسمع، هذا العطف الودي إلى الشيطان! يقرضونني النقود ويعرضون على شروطاً كأنني طفليزدرونني الشيطان يعلم مثل ماذا لا أريد شيئاًصاح لايفسكى مترنحاً من الانفعال وخاف أن تنتابه الهستيريا مرة أخرى إذن فلن أسافر يوم السبت

ومضى هذا الخاطر في ذهنهأنا لا أريد شيئاً أرجوكم فقط أن ترحموني من وصايتكم !أنا لست طفلاً ولست مجنوناً، فأرجو أن ترفعوا عنى هذه المراقبة !

ودخل الشماس، وعندما رأى لايفسكي شاحباً يشبح بيديه، ومتوجهاً بخطابه الغريب إلى صورة الأمير فورونتسوف، وقف بجوار الباب متسمراً واستطرد لايفسكي يقول :إن استراق النظر الدائم إلى ما في داخلي يهين كرامتي الإنسانية، لذا أرجومن المخبرين المتطوعين أن يكفوا عن تجسسهم كفى.

ماذا قلت؟ سأل صامويلنكو وقد عد إلى المائة، واقترب من لايفسكي بوجه محتقنفكرر لايفسكي متناولاً قبعته وهو يكاد يختنق - كفي! فقال صامويلنكو ببطء.

أنا طبيب روسى من النبلاء ومستشار دولةثم صرخ بصوت مرتعش مشدداً على الكلمة الأخيرة أنا لم أكن جاسوساً أبداً ولن أسمح لأحد بإهانت ياخرس !

لم يسبق للشماس أبداً أن رأى الدكتور مهيباً، منتفخاً، محتقناً ورهيباً بهذا الشكل، فسد فمه بيده وركض إلى المدخل وانفجر هناك بالضحك وكان من خلال ضباب رأى لايفسكي كيف نهض فون كورين، ووضع يديه في جيبي سرواله، ووقف في وضع يوحي وكأنها ينتظر ما الذي سيحدث بعد ذلك

وبدا هذا الوضع الهادي للايفسكى وقحاً ومهيناً إلى أقصى درجةوصرخ صامويلنكو :اسحب كلامك أرجوك! فأجاب لايفسكى، الذي لم يعد يذكر ما هو الكلام الذي قاله - :دعني وشأنى !أنا لا أريد شيئاً أريد فقط أن تتركني وشأني أنت وأبناءاليهود الألمان هؤلاء! وإلا فسأتخذ إجراءاتى! سوف أتعاركفقال فون كورين خارجاً من وراء الطاولة :الأمر الآن مفهوم السيد لايفسكى بريد قبل السفر أن يرفه عن نفسه بمبارزة بوسعي أن أتيح له هذه المتعة يا سيد لا يفسكى، لقد قبلت التحدي.

-التحدي؟ - قال لايفسكى بصوت خافت مقترباً من عالم الحيوان وناظراً بحقد إلى جبينه الأسمر وشعره المجعد التحدي حسن تفضل إنني أكرهك أكرهك !

-سعيد جداً غداً في الصباح المبكر قرب كربلاى، مع كل التفاصيل التي ترضى ذوقك أما الآن فأغرب من هنا.

فقال لايفسكي بصوت خافت وهو يلهث - :أكرهك !من زمان أكرهك ! المبارزة نعم! أبعده من هنا يا ألكسندر دافيديتش أو أذهب أنا إنه سيعضني أطفأت لهجة فون كورين الهادئة ثائرة الدكتور، فعاد إلى وعيه فجأة واسترد رشده، فأمسك بخصر لايفسكي بكلتا يديه،وأبعده عن عالم الحيوان، ودمدمبصوت رقيق متهدج من الانفعال :

-يا أصدقائي يا أصدقائي الطيبين لا داعى تشاجرتم وكفى كفيا أصدقائي الطيبينو عندما سمع لايفسكى صوتاً ناعماً، ودوداً أحس بأنه قد وقع في حياته الآن توا شىء لم يسبق له مثيل، شيء رهيب، وكأنما كاد يدهمهقطار وأوشك أن يبكي، فأشاح بيده، واندفع من الغرفة راكضاً.

وأحس بوقع كراهية الآخرين لى، وأظهر نفسي أمام شخص يكرهني في أبأس وأحقر وأعز صورة، أوه يا إلهي ما أصعب ذلك! فكر لايفسكى بعد فترة، وهو جالس في المقصف، وقد أحس كأنما على جسده بقعة صدأ من وقع كراهية الغير التي عاناها لتوه يا إلهي ياله من شيء فج !.

وأنعشته المياه المثلجة والكونياك وتصور بوضوح وجه فون كورين الهادئ المتغطرس، ونظرته بالأمس، وقميصه الذي يشبه السجادة، وصوته، ويديه البيضاوين فتململت في قلبه كراهية ثقيلة، كراهية مستعرة، جوعى، تطالببالإشباع وطرح في خياله فون كورين أرضاً وراح يدوسه بقديمه وتذكر ماحدث بأدق التفاصيل، وأدهشه من نفسه كيف رضي بأن يبتسم بتزلف لشخص تافه، وعموماً كيف يقيم وزناً لرأي أناس حقراء، لا يعرفهمأحد، يعيشون في مدينة تافهة، ربما ليست مذكورة حتى في الخرائط،، مدينة لا يعلم بوجودها أي شخص محترم في بطرسبرج ولو أن هذه المدينة الحقيرة غابت فجأة في جوف الأرض أو احترقت لقرأوا في روسيا هذا النبأ بنفس الملل الذي يقرأون به إعلاناً عن بيع أثاث مستعمل وأن يقتل غداً فون كورين أو يتركه حياً

هو أمر غير مجد وغير طريف بنفس الدرجة على حد سواء فليطلق النار علىساقه أو ذراعه، وليجرحه، ثم يضحك منه بعد ذلك وهو يختفى بآلامه المكبوتة في غمرة الناس التافهين مثله كما تختفى الحشرة المقطوعة الساق وسط العشب.

ذهب لايفسكي إلى شيشكوفسكى وروى له كل ما حدث، ودعاه أن يكون شاهدهثمذهبا معاً إلى مدير إدارة البريد والبرق ووجها إليه الدعوة أن يكون شاهداً، ثم بقيا عنده للغداء وأثناء الغداء مزحوا كثيراً وضحكوا وسخر لايفسكى من أنه لا يعرف تقريباً كيف يطلق النار وسمى نفسه رامي البلاط ووليام تل.

وقال - :ينبغي تلقين هذا السيد درساً وجلسوا ليلعبوا الورق بعد الغداء وكان لايفسكي يلعب ويشرب الخمر ويفكر بأن المبارزة عموماً شيء سخيف وأخرق، لأنها لا تحل القضية بل تزيدها تعقيداً، ولكن أحياناً لا يمكن الاستغناء عنها في هذه الحالة مثلاً فليس من المعقول أن يذهب إلى القاضي ويشكوفون كورين! والناحية الأخرى الجيدة في المبارزة القادمة أنه سيكون من المستحيل عليه بعدها أن يبقى في المدينة وثمل قليلاً، وسرى عنه اللعب فأحس بأنه في حالة طيبة.

ولكن عندما غربت الشمس وهبط الظلام تملكه القلق لم يكن ذاك خوفاً من الموت، فقد ترسخت في نفسه أثناء الغداء واللعب لسبب ما ثقة بأن المبارزة لن تنتهى بشيء

كان ذاك خوفاً من شيء مجهول سيقع في حياته لأول مرة صباح الغد، وخوفاً من الليل المقبلكان يعلمأنها ستكون ليلة طويلة، مسهدة، وأنه سيكون عليه أن يفكر لا في فون كورين وكراهيته فحسب، بل وفي ذلك التل من الأكاذيب الذي كان عليه أن يجتازه والذي لم يكن لديه لا القدرة ولا المهارة للالتفاف من حوله وبدا كأنما داهمه المرض بغته، ففقد فجأة كل اهتمام باللعب والناس، وأخذ يتصرف بقلق ويرجو أن يدعوه ينصرف إلى البيت كان يريد أن يأوي إلى الفراش بسرعة ويكف عن الحركة ويرتب أفكاره في الليل وأوصله شيشكوفسكي ومدير البريد إلى داره، ثم ذهبا إلى فون كورين ليبحثا أمر المبارزة.

وجد لايفسكي قرب البيت أتشميانوف كان الشاب يلهث وبدا منفعلاً وقال للايفسكي - :إني أبحث عنك يا إيفان أندريتش أرجوك هيا معي بسرعةإلى أين؟ هناك سيد لا تعرفه يريد أن يراك في أمر مهم جداً وهو يرجوك بشدة أن تأتي لدقيقة واحدة إنه يريد أن يقول لك شيئاً وهذا بالنسبة له مسألة حياة أو موت.

كان أتشميانوف منفعلاً فتحدث بلكنه أرمنية شديدة بدت واضحة فيتحويره لنطق الكلماتوسأل لايفسكي :ومن هو؟طلب ألا أذكر لك اسمهقل له إنني مشغول ليكن غداً إذا شاء فروع أتشميانوف :

-كيف هذا! إنه يريد أن يقول شيئاً مهماً جداً بالنسبة لك مهماً جداً إذا لمتذهب فستقع مصيبةغريبة دمدم لايفسكى وهو لا يفهم لماذا يبدو أتشميانوف مضطرباً هكذا، وأية أسرار يمكن أن توجد في هذه المدينة المملة التي لا ضرورة لهاعجيبة كرر وهو يفكر طيب، فلنذهب سيان انطلق أتشميانوف أمامه بسرعة وسار هو من خلفه عبرا الشارع ثم سارافي حارةوقال لايفسكى :

-يا له من شيء مملحالاً، حالاً أصبحنا قريباً وعند الجسر القديم مرا في حارة ضيقة بين خرابتين مسيجتين، ثم دلفا إلى فناء كبير، واتجها إلى منزل صغيرفسأل لايفسكى - :أليس هذا منزل مريدوف؟ - بلى.

-فلماذا جئنا من الشوارع الخلفية، أنا لا أفهم؟ كان بإمكاننا أن نأتى من الشارع الرئيسي هناك أقرب.

-لابأس، لا بأس.

بدا للايفسكي غريباً كذلك أن أتشميانوف قاده إلى المدخل الخلفي، وأشاربيده كأنها يدعوه إلى السير بهدوء وفي صمتهنا، هنا قال أتشميانوف وهو يفتح الباب بحذر ويدلف إلى المدخل على أطراف أصابعه حاسب، حاسب، أرجوك قد يسمعوننا وأصاخ السمع، واسترد أنفاسه بقوة، ثم قال هامساً : افتح هذا الباب وادخل لا تخففتح لايفسكى الباب مندهشاً، ودخل غرفة بسقف منخفض ونوافذ مسدلة الستائر

وكانت هناك شمعة مشتعلة على طاولة من تريد سأل صوت في الغرفة المجاورة ـ أهو أنت يا مريدوف؟ تحول لايفسكي إلى تلك الغرفة فرأى كيريلين وبجواره ناديجدا فيودورفنالم يسمع ما قيل له، وتراجع بظهره، ولم يلحظ كيف أصبح في الشارع تبدد من قلبه كل شيء فجأة: كراهية فون كورين، والقلق وبينما كان عائداً إلىالمنزل أخذ يهز ذراعه اليمني بحركة نافرة، وينظر تحت قدميه باهتمام محاولاً أن يسير على الأماكن المستوية وفي غرفة مكتبه في البيت أخذ يفرك راحتيه ويحرك كتفيهوعنقه على نحو أخرق، كأنما كانت السترة والقميص ضيقين عليه، وذرع الغرفة من ركن إلى ركن، ثم أشعل شمعة وجلس إلى المكتبإن العلوم الإنسانية التي تتحدث عنها لن ترضى الفكر الإنساني إلا عندما تلتقي فيحركتها بالعلوم الدقيقة فتسير إلى جوارها ولست أدري هل سيلتقيان تحت عدسة المجهر، أم في منولوجات هاملت الجديد، أم في دين جديد، ولكني أعتقد أن الجليد سيغطى وجه الأرض قبل أن يحدث هذا اللقاء إن أكثر المعارف الإنسانية ثباتاً وقدرة على الحياة هي بالطبع تعاليم المسيح، ولكن انظر، حتى هي، كم يختلف فهمها إنها تعلمنا أن نحب جميع أقربائنا وتستثنى من ذلك الجنود والمجرمين والمجانين: فتسمح لنا بقتل المذكورين أولاً في الحرب، وبعزل أو إعدام المذكورين ثانياً، أما المذكورين ثالثاً فتحرم عليهمالزواج وهناك شراح آخرون يعلموننا أن نحب جميع الأقرباء بلا استثناء، دون تمييز بين ما لهم وما عليهم وحسب تعاليمهم، إذا جاءك مجدور أو قاتل أو صريع يطلب يد ابنتك فلتزوجها له

وإذا هاجم الأوغاد أناساً أصحاء العقل والبدن، فيسلم لهم هؤلاء رؤوسهمإن هذه الموعظة بالحب من أجل الحب، مثل الفن من أجل الفن، لو قدر لها أن تصبح سارية المفعول، لأفضت بالبشرية في نهاية المطاف إلى الفناء التام، ولتحقق عندئذ أكبر شر من الشرور التي وقعت في وقت ما على سطح الأرض إن الشروح كثيرة، وطالما هي كثيرة فإن الفكر الجاد لا يرضى بأي منها فيسارع إلى إضافة شرحه هو إلى هذه الكمية الكبيرة من الشروحولذلك فلا تضع القضية أبداً، كما تقول، على أساس فلسفي أو على ما يسمى بالأساس المسيحي، فإن ذلك لن يؤدي إلا إلى الابتعاد بك عن حل القضية.

أصغى الشماس بانتباه إلى عالم الحيوان، ثم فكر قليلاً وسأله :

-القانون الأخلاقي المميز لكل فرد من البشر هل اخترعه الفلاسفة، أمخلقه الله مع الجسد؟ .

لا أدري ولكن هذا القانون عام لجميع الشعوب والعصور إلى درجةيبدو لي معها أنه ينبغي علينا الاعتراف بأنه مرتبط عضوياً بالإنسان إنه ليس ابتكاراً، بل هو موجود وسيوجد لن أقول لك إننا سنراه في وقت ما تحت عدسةالمجهر، ولكن ارتباطه العضوي تثبته الآن بالفعل الدلائل الجلية: فجميع آلام المخ وكل ما يسمى بالأمراض النفسية تنعكس قبل كل شيء في فساد القانونالأخلاقي على حد علمي,

حسناً، إذن فكما تريد المعدة أن تأكل يريد الشعور الأخلاقي منا أن نحب أقرباءنا هكذا؟ ولكن طبيعتنا تقاوم صوت الضمير والعقل بسبب حبها لذاتها، ولهذا تثور قضايا محيرة كثيرة فإلى من نلجأ لحل هذه القضايا إذا كنت لا تريد منا أن نضعها على أساس فلسفى؟.

فلتلجأ إلى تلك المعارف الدقيقة القليلة التي هي بحوزتنا ثق في جلاء الحقائق ومنطقها بالطبع هذا شحيح، ولكنه في المقابل ليس مزعزعاً ومبهماً كالفلسفة فلنفرض أن القانون الأخلاقي يتطلب أن تحب الناس حسناً، ليكن ينبغي إذن أن يكمن الحب في إزالة كل ما يلحق الضرر بالإنسان بهذه الصورةأو تلك ويهدده بالخطر في الحاضر والمستقبل ومعارفنا والحقائق الجلية تشير إليك بأن الخطر الذي يتهدد البشرية يأتي من جانب الأشخاص المنحرفين خلقياً وبدنياً وإذا كان الأمر كذلك فلتقاوم المنحرفين فإذا لم تكن قادراً على رفعهم إلى المستوى السوى فستكون قادراً على التخلص من ضررهم، أي القضاء عليهم. -إذن فالحب يكمن في أن ينتصر القوى على الضعيف؟ -بلا جدال.

فقال الشماس بحرارة - :ولكن الأقوياء صلبوا ربنا يسوع المسيح !.

-بل إن المسألة هي أن الضعفاء، لا الأقوياء، هم الذين صلبوه لقد أضعفت الحضارة الإنسانية الصراع من أجل الوجود، والانتخاب الطبيعي، وتسعى إلى جعلهما يقتربان من الصفر ومن هنا تجد هذا التكاثر السريع للضعفاء وتفوقهم على الأقوياء فلتتصور أنك تمكنت من أن تقنع النحل بالأفكار الإنسانية في صورتها الجنينية غير المدروسة

فما الذي سيترتب على ذلك؟ ستبقى على قيد الحياة ذكور النحل التي من المفروض أن تقتل، وسوف تلتهم العسل وتفسدالنحلات وتخنقها، والنتيجة يتفوق الضعفاء على الأقوياء ويفني الأواخر وهذا ما يحدث الآن للبشرية، فالضعفاء يضطهدون الأقوياء ولدى المتوحشين، الذين لم تمسهم الحضارة بعد، تجد الأقوى، والأحكم والأقوم خلقا يسير دائما في المقدمة إنه الزعيم والحاكم أما نحن المتحضرين فقد صلبنا المسيح وما زلنا نصلبه إذن فهناك شيء ما ينقصناوهذا الشيء ينبغي أن نستعيده، وإلا فلن تكون هناك نهاية لهذه الأخطاء.

ولكن ما هو المعيار لديك للتمييز بين الأقوياء والضعفاء؟.

-المعارف وجلاء الحقائق إن المجدورين والمصابين بتدرن العقد العنقيةيعرفون بأمراضهم، أما المنحلون والمجانين فبتصرفاتهم.

-ولكن الخطأ محتمل - إنعم، ولكن هل تخشى البلل إذا كان الطوفان يتهددنا؟ فضحك شماس وقالهذه فلسفة.

أبداً لقد أفسدتك فلسفة المعهد الديني إلى درجة أنك تريد أن ترى في كل شيء مجرد ضباب فالعلوم المجردة، التي حشى بها رأسك الشاب.

إنها تسمى كذلك لأنها تجرد ذهنك من جلاء الحقائق انظر مباشرة في عينيالشيطان، فإذا كان شيطاناً فلتقل إنه شيطان، ولا تتطفل على كانط أو هيجل طلباً للتفسيراتوصمت عالم الحيوان قليلاً

ثم استطرد: - اثنان في اثنين يساوى أربعة، والحجر هو حجر.غدا ستكون لدينا مبارزة سنقول إن هذه سخافة وحماقة، وإن المبارزاتانتهى عهدها وأن المبارزة الارستقراطية لاتختلف في الواقع عن شجار سكر في حانة، ولكننا لن نتراجع، بل سنمضى ونتقاتل إذن فهناك قوة أقوى من أحكامنا إننا نصرخ بأن الحرب قرصنة وهمجية وفظاعة وقتل أشقاء، ولا نستطيع أن نرى الدم دون أن نصاب بالإغماء ولكن ما إن يهيننا الفرنسيون أو الألمان حتى نشعر فوراً بالحمية، ونصيح هورامن صميم القلب ونهجم على العدو، وأما أنت فستبتهل إلى الرب أن يبارك سلاحنا، وستشير لبطولاتنا الإعجاب الشامل، والصادق في الواقع إذن فمرة أخرى هناك قوة، إن لم تكن أسمى، فهي أقوى منا ومن فلسفتنا وليس بإمكاننا أن نوقفها، كما لا نستطيع إيقاف هذه الغيمة القادمة من وراء البحر فلا تنافق إذن، ولا تهددها بقبضة داخل الجيب ولا تقل: أوه، هذا سخيف! هذا قديم، هذا لا يتفق والكتاب المقدس،بل حدق مباشرة في عينيها، واعترف بشرعيتها الحكيمة، وإذا ما أرادت، مثلاً، أن تقضي على قبيلة ضعيفة، موبوءة، منحلة، فلا تعرقلها بعقاقيرك وبمقتطفات من إنجيل أسيء فهمه توجد لدي ليسكوفشخصية دانيلا ذي الضمير الحى وقد وجد دانيلا خارج المدينة مجذوماً فآواه وأطعمه باسم المحبة والمسيح ولو كان دانيلا هذا يحب الناس حقاً لجر ذلك المجذوم بعيداً عن المدينة وألقى به في الخور، وذهب ليخدم الأصحاء أظن أن المسيحأوصانا بالحب العاقل والمدرك والنافع فضحك الشماس وقال :يا لك من مخادع! أنت لا تؤمن بالمسيح، فلماذا تذكره كثيراً في كلامك؟.

-كلا، بل أومن ولكن بالطبع على طريقتي الخاصة وليس على طريقتك آه يا شماس، يا شماس - !وضحك عالم الحيوان وأمسك بخصر الشماس وقال بمرح - ماذا؟ هل تذهب معي غدا إلى المبارزة؟.

-الرتبة لا تسمح، وإلا ذهبت وما معنى الرتبة؟ أنا مرسوم منحت بركة الله آهيا شماس، يا شماس كرر فون كورين ضاحكاً كم أحب الحديث معك فقال شماس :

-أنت تقول إن لديك إيمانا ما هو هذا الإيمان؟ أما أنا فعنديعم قس، يؤمن إلى درجة أنه عندما يذهب إلى الحقل في وقت الجفاف ليسأل الله مطراً يأخذ معه مظلة ومعطفاً جلدياً لكيلا يبلله المطر في طريق العودة هذاهوالإيمان! وعندما يتحدث عن المسيح يشع نوراً، وتبكي جميع النساء والرجال بحرقة ولو كان هنا لأوقف هذه الغيمة، ولجعل أية قوة تتحدث عنها تلوذ بالفرار نعم الإيمان يحرك الجبال.

وضحك شماس، وربت على كتف عالم الحيوان، واستطرد :هكذا بالضبط ها أنت ذا تدرس، وتكتشف أعماق البحر، وتميز بين الضعفاءوالأقوياء، وتؤلف الكتب وتتحدى للمبارزة ومع ذلك يبقى كل شيء كما كان ولكن قد يأتي شخص ما، عجوز ضعيف، فيتمتم باسم الروح القدس بكلمة واحدة، أو يقدم من الجزيرة العربية محمد جديد على متن جواد، شاهراً سيفه، فينقلب كل شيء لديك رأساً على عقب، ولا يبقى في أوربا حجر على حجر.

-هذا يا شماس كلام في الهواء !.

-الإيمان بلا عمل جسد ميت، أما العمل بلا إيمان فأسوأ من ذلك، ليس إلا مضيعة للوقت لا أكثروظهر الدكتور على الكورنيش وعندما رأى شماس وعالم الحيوان توجه إليهما وقال وهو يلهث :

-يبدو أن كل شيء جاهز الشهود: جفر وفسكى وفريكو سيمران صباحاً،في الساعة الخامسة كم تلبدت !قال وهو ينظر إلى السماء أظلمت تماماً سيسقط المطر الآن وسأله فون كورين: ستأتي معنا كما آمل؟كلا، أعوذ بالله يكفيني ما لقيته من عذاب سيذهب أوستيموفتش بدلاًمني لقد أخبرته بذلك ومض البرق بعيداً وراء البحر، وتردد هزيم رعد مكتوم وقال فون كورين.

-يا للجو الخانق قبل العاصفة! أراهن أنك زرت لايفسكى وبكيت علىصدرهفأجاب الدكتور مرتبكاً :

-ولماذا أذهب إليه؟ مالي به !.

قبل الغروب قطع البوليفار والشارع عدة مرات على أمل أن يرى لايفسكى كان يشعر بالخجل من ثورته ومن نوبة الطيبة المفاجئة التي أعقبت ذلك أراد أن يعتذر للايفسكى بلهجة مازحة يزجره ويطمئنه ويقول له إن المبارزة شيء من مخلفات همجية القرون الوسطى، إلا أن العناية الإلهية هي التي أشارت إليهبالمبارزة كوسيلة للتصالح:

فغداً سيتبادلان، هما الرجلان الرائعان، النادرا الذكاء الطلقات في الهواء فيقدر كل منهما نبل الآخر ويصبحان صديقين إلا أنه لم يصادف لايفسكى ولا مرة وردد صامويلنكو :

ولماذا أذهب إليه؟ لست أنا الذي أهنته بل هو الذي أهانني قل لي لو تكرمت، لماذا انقض على؟ أي سوء صنعت به؟ دخلت غرفة الجلوس وإذا فجأة، أهلاً، أنت جاسوس! أما غريبة! خبرنى، كيف بدأت بينكما؟ ماذا قلت.قلت له إن وضعه بلا مخرج وكنت على حق الشرفاء والنصابون هم فقط الذين يستطيعون إيجاد مخرج من أي وضع أما من يريد أن يكون شريفاً ونصاباً في آن واحد، فليس لديه مخرج ولكن يا سادة، الساعة بلغت الحادية عشرة، وغداً علينا أن نستيقظ مبكراً وفجأة هبت الريح، وأثارت التراب على الكورنيش وزوبعت، وزأرتفغطت على هدير البحر.

فقال الشماس - :عاصفة! فلنذهب،عيوني امتلأت بالتراب وعندما مضوا تنهد صامويلنكو وقال وهو يثبت عمرته بيده :يبدو أنني لن أنام الليل.

فضحك عالم الحيوان قائلاً :

-لا تقلق، كن مطمئناً، فلن تنتهي المبارزة بشيء سيطلق لايفسكي النار في الهواء بساحة، فهو لا يستطيع بدون ذلك، أما أنا فلن أطلق النار عموماً فيما يبدو فأن أقدم للمحاكمة من جراء لايفسكي وأضيع الوقت لعبة لا تساوى ثمنها وبالمناسبة، ما هو الجزاء الذي يوقع بسبب المبارزة؟.

-الاعتقال، وفي حالة وفاة الخصم السجن في القلعة حتى ثلاث سنواتقلعة بطرس وباول؟ كلا، في القلعة الحربية على ما أظن وإن كان ينبغي أن ألقن هذا الفتى در ساً !.

ومضى البرق خلفهم فوق البحر، وأضاء للحظة أسطح المنازل والجبال وافترق الأصدقاء عند البوليفار وعندما اختفى الدكتور في الظلام وخفت وقع خطواته صاح فون كورين له :

-أخشى أن يعوقنا الطقس غداًمحتمل جداً !يا ليت هذا يكون؟ - ليلة سعيدة !
-ليلة ماذا؟ ماذا قلت؟

كان من الصعب تمييز ما يقال في صخب الريح والبحر وهزيم الرعد فصاح عالم الحيوان :

-لاشيء! وأسرع إلى المنزل.

في ذهني المسحوق بالكآبة أفكاري الثقال تزدحموالذكريات صمتت أمامي شريطها الطويل ينسحب أشحت باحتقار إذ قرأت في طية أيام عمري وارتجفت كم لعنتبشت مر شكواى ذرفت أدمعي السخينة لكنني لم أمح تلك الأسطر الحزينة.

بوشكين سيان إذا ما قتلوه غداً أم سخروا به، أي تركوا له هذه الحياة، فهو في كلا الحالين قد انتهى وسواء قتلت هذه المرأة المجللة بالعار نفسها من اليأس والخزي أم أمضت في الشقاء بقية أيامها التعيسة

فهي في كلا الحالين قد انتهت.هكذا كان لايفسكى يفكر وهو جالس إلى المكتب في ساعة متأخرة ولا يزال يفرك راحتيه وفجأة انفتحت النافذة واصطفقت، واندفعت إلى الغرفة دفقة ريح قوية فتطايرت الأوراق من فوق المكتب وأغلق لايفسكى النافذة، وانحنى ليجمع الأوراق من الأرض وأحس في جسده بشىء جديد، نوع من اضطراب الحركة لم يصبه من قبل، فلم يعد يتعرف على حركاته كان يسير في وجل، ويتدافع مرفقاه جانبا وتتقافز كتفاه، وعندما جلس إلى المكتب عاد يفرك راحتيه لقد فقد جسده مرونته.

على المرء قبيل الموت أن يكتب إلى أقرب الناس وكان لايفسكى يذكر ذلك فتناول القلم وكتب بخط مرتعش :

أماه

أراد أن يكتب إلى أمه بأن تأوي من أجل الله الرحيم الذي تؤمن به وتسبغ عطفها وحنانها على هذه المرأة البائسة التي سلبها شرفها، هذه المسكينة الوحيدة الفقيرة، وأن تنسي وتغفر كل، كل، كل شيء، لتكفر بالتضحية ولو عن جزء من خطيئة ابنها ولكنه تذكر كيف تخرج أمه، هذه العجوز الممتلئة الثقيلة الحركة، إلى الحديقة صباحاًفي قلنسوة من الدانتلا، ومن خلفها تسير ربيبتها مع كلب بولونيز، وكيف تصيح أمه في البستاني والخدم بصوت آمر، وكيف يبدو وجهها أبياً متغطرساً تذكر كل هذا فشطب الكلمة التي خطها.

لمع البرق بقوة في النوافذ الثلاث جميعاً، وتبعه دوى رعد هادر متدحرج، جاء في البداية مكتوماً، ثم بعد ذلك مجلجلاً صاخباً قوياً إلى درجة هزت زجاج النوافذ فأرسل رنينا ونهض لايفسكى فاقترب من النافذة، وألصق جبينه بالزجاج كانت في الخارج عاصفة رعدية قوية جميلة وعند الأفق كان البرق يلقى من السحب إلى البحر أشرطه بيضاء بلا توقف فتضىء الأمواج السوداء العالية إلى مسافة بعيدة ومن يمين المنزل، ومن يساره، وربما أيضاً من أعلاه ومضت البروق

-العاصفة! دمدم لايفسكى أحس برغبة في أن يصلي لأحد ما أو لشيء ما،ولو للبرق أو السحب - يا عاصفتي الحبيبة !.

وتذكر كيف كان يخرج في طفولته راكضاً إلى الحديقة ساعة العاصفة، حاسر الرأس، ومن خلفه تركض فتاتان شقراوان بعيون زرقاء فيبللهم المطر كانوا يقهقهون من شدة الإعجاب، ولكن عندما تدوي قصفة رعد قوية تلتصق الفتاتان به باستسلام وبراءة،أما هو فيرسم علامة الصليب ويسارع إلى التمتمة: قدوس، قدوس، قدوس أوه، أين، أنت، في أي بحر غبت

يا منابع الحياة الرائعة النقية؟ لم يعد يخاف العاصفة، ولا يحب الطبيعة، ولم يعد لديه إله، وكل الفتيات البريئات اللاتي عرفهن في وقت ما قد قضى عليهن هو وأترابه، ولم يغرس في حديقة داره طوال حياته شجرة واحدة ولم يزرع نبته واحدة، وعاش بين الأحياء دون أن ينقذ ذبابة واحدة، بل كان يدمر، ويهلك، ويكذب يكذبما الذي في الماضي ليس رذيلة؟

سأل نفسه وهو يحاول أن يتشبث بأية ذكرى مشرقة كما يتشبث الساقط في الهاوية بغصون الشجيراتالمدرسة؟ الجامعة؟ لكن ذلك خداع كان يدرس بصورة سيئة وقد نسي ماتعلمه خدمة المجتمع؟ هذا أيضاً خداع،لأنه لم يكن يفعل شيئاً في الخدمة، بل كان يتقاضى الراتب دون وجه حق، وخدمته نفسها هي اختلاس حقير لا يقدم مرتكبه إلى المحكمة.

لم يكن بحاجة إلى الحقيقة، فلم يبحث عنها وكان ضميره غائباً أو صامتاًوقد سحرته الرذيلة والكذب كان كالغريب أو الأجير من كوكب آخر لا يشارك في الحياة العامة للناس،غير مبال بآلامهم وأفكارهم وأديانهم ومعارفهم وبحثهم وصراعهم، ولم يقل للناس كلمة طيبة واحدة، ولم يكتب سطراً مفيداً غير مبتذل واحداً، ولم يفعل مثقال ذرة خيراً للناس، بل كان يأكل خبزهم، ويشرب خمرهم، ويسرق زوجاتهم، يعيش على أفكارهم، ولكي يبرر حياته المزرية الطفيلية أمامهم وأمام نفسه سعى دائماًإلى أن يضفي على نفسه مظهر من هو أرفع وأفضل منهم كذب، كذب، كذب.

وتذكر بوضوح ما رآه مساء في منزل مريدوف، فأحس بانقباض لا يطاق من التقزز والكآبة نعم، كيريلين وأتشميانوف كريهان، ولكنهما يواصلان ما بدأه هو إنهما شريكاه وتلميذاه لقد سلب سيدة شابة ضعيفة وثقت به أكثر من ثقتها بأخيها، سلبها زوجها، ومعارفها ووطنها وجاء بها إلى هنا،إلى القيظ والحمى والملل وكان عليها يوماً بعد يوم أن تعكس كما المرآة فراغه، وفساده وكذبه

وبهذا، بهذا وحده امتلأت حياتها الضعيفة الذابلة البائسة وبعد ذلك شبع منها وأبغضها، ولكن أعوزته الشجاعة أن يهجرها، فسعى إلى أن يكبلها بقوة بحبال كذبه كالعنكبوتأما الباقي فأكمله هذان الشخصان.

كان لايفسكى تارة يجلس إلى المكتب، وتارة يقترب من النافذة، ومرة يطفيء الشمعة ومرة يشعلها كان يلعن نفسه بصوت مسموع ويبكى ويشكو ويسأل الصفح وجرى عدة مرات إلى المكتب في يأس ليكتب أماه.

لم يكن لديه من الأهل والأقارب أحد سوى أمه ولكن كيف كان بوسع أمه أن تساعده؟ وأين هي؟ وأراد أن يهرع إلى ناديجدا فيودوروفنا لكي يجثوا أمامها ويقبل يديها وقدميها ويتوسل ويطلب منها الصفح، ولكنها كانت ضحيته، وكان يخاف منها وكأنها هي ميتة.

وتمتم وهو يفرك راحتيه :ضاعت حياتى! يا إلهي، لماذا لا أزال حيا؟ لقد دفع من السماء نجمه الكابي فهوى واختفى أثره في ظلام الليل ولن يعود إلى السماء، لأنالحياة تمنح مرة واحدة لا تتكرر ولو كان بمقدوره أن يسترجع الأيام والسنوات الماضية لاستبدل بكذبها الحقيقة وبالفراغ العمل، وبالملل الفرحة، ولأعاد الطهارة إلى من سلبهم إياها، ولوجد الله والعدالة، ولكن ذلك أيضاً مستحيل كاستحالة إعادة النجم الغارب إلى السماء من جديد ولأن ذلك مستحيل فقد تملكه اليأس.

عندما انتهت العاصفة كان جالساً بجوار النافذة المفتوحة يفكر بهدوء فيما سيحدث له في الغالب سيقتله فون كورين؛ فتفكير هذا الرجل الواضح البارد يجيزتصفية الضعفاء والتافهين فإذا خانه تفكيره في اللحظة الحاسمة فستساعدهالكراهية والإحساس بالتقزز اللذان يثيرهما فيه لايفسكى وإذا ما أخطأ فون كورين الهدف، أو جرحه فقط، أو أطلق النار في الهواء لكي يسخر من خصمه البغيض، في العمل حينئذ؟ وإلى أين يذهب؟وسأل لايفسكى نفسه:

-أسافر إلى بطرسبرج؟ ولكن هذا معناه أن أبدأ حياتي القديمة التي ألعنها ومن يبحث عن الخلاص في تغيير المكان، كالطير المهاجر، فلن يجد شيئاً لأن الأرض كلها بالنسبة له واحدة أيبحث عن الخلاص في الناس؟ فيمن منهم وكيف؟ فطيبة صامويلنكو وساحته لا يعول عليها في الخلاص، مثلها مثل مرح الشماس أو كراهية فون كورين يجب أن يبحث عن الخلاص في نفسه فقط، فإذا لم يجده فلا داعي لتضييع الوقت، فليقتل نفسه وانتهى الأمر.

تردد وقع عربة وكان ضوء الفجر قد لاح ومرت العربة أمامه، وانحرفت وتوقفت بجوار المنزل وعجلاتها تصر فوق الرمل المبلل وكان يجلس في العربة شخصانفقال لهما لايفسكى من النافذة :انتظرا، سآتى حالاً! أنا لست نائماً هل حان الوقت حقاً؟نعم الساعة الرابعة، وإلى أن نصل.

ارتدي لايفسكى المعطف والعمرة، ووضع السجائر في جيبه، ووقف متفكراً‌خيل إليه أنه ينبغي أن يفعل شيئاً آخر ومن الخارج تناهى حديث الشاهدين الخافت وشخير الخيول، فملأت هذه الأصوات المترددة في الصباح الرطب، والناس جميعاً نيام، والسماء لا تكاد تضيء، روح لايفسكى باكتئاب أشبه بهاجس سيئ ووقف مفكراً بعض الوقت، ثم ذهب إلى غرفة النوم.

كانت ناديجدا فيدوروفنا مستلقية في سريرها، ممددة بطول جسدها ومغطاة بالحرام حتى رأسها لم تكن تتحرك فبدت، خاصة برأسها، أشبه بمومياء مصرية وسألها لايفسكى الصفح في سره وهو ينظر إليها في صمت، وفكر في أنه إذا لم تكن السماء خاوية وفيها إله حقاً، فسوف يصون هذه المرأة، وإذا لم يكن هناك إله، فلتهلك إذن، فلا داعي لأن تعيش.

وفجأة هبت وجلست في الفراش وسألت لايفسكي وهي ترفع نحوه وجهها الشاحب وتنظر برعب :

-أهو أنت؟ هل انتهت العاصفة؟انتهت وتذكرت ما حدث، فوضعت كلتا يديها فوق رأسها وارتجف بدنها كله وقالت :

-كم أتعذب! آه لو تدري كم أتعذب! ومضت تقول وقد أغمضت عينيها كنت أنتظر أن تأتي وتقتلني، أو تطردني من البيت في العاصفة تحت المطر، ولكنك كنت تتباطأ تتباطأ.

عانقها باندفاع وقوة وانهال على ركبتيها ويديها تقبيلاً، وبعد ذلك، وبينما كانت تتمتم له بكلمات ما وتنتفض من الذكريات أخذ يمسد شعرها،وأدرك وهو يحدق في وجهها أن هذه المرأة التعيسة الخاطئة هي الإنسان الوحيد القريب والحبيب لديه.

وعندما خرج من البيت وجلس في العربة أحس بالرغبة في العودة إلى البيت نهض الشماس، وارتدي ملابسه، وأخذ عصاه الغليظة المعقدة وخرج من البيت في هدوء كان الجو مظلماً فلم ير الشماس في اللحظات الأولى عندما سار في الشارع حتى عصاه البيضاء ولم تكن في السماء نجمة واحدة، وبدا كأن المطر سيسقط ثانية وفاحت رائحة الرمل الرطب والبحرالخوف أن يهجم التشتشين - فكر الشماس وهو يسمع كيف تدق عصاهعلى أرض الشارع وكيف تتردد هذه الدقات رنانة وحيدة في سكون الليل.

وعندما أصبح خارج المدينة بدأ يرى الطريق وعصاه وظهرت في السماء هناوهناك بقع عكرة، وبعد قليل أطلت نجمة واحدة، وطرفت بعينها الوحيدة في وجل، كان الشماس يسير على الشاطئ الصخري المرتفع ولا يرى البحر، الذي كان غائباً في الأسفل،وأمواجه غير المرئية تضرب الشاطئ بكسل وتثاقل وكأنها تتنهد: أفوكم كانت بطيئة ضربت موجة، وعد الشماس حتى ثاني خطوات وعندئذ ضربت موجة أخرى، وبعد ست خطوات ضربت الثالثة هكذا لم يكن يرى شيئ، وفي الظلام

تردد صخب البحر الكسول النعسان في ذلك الزمن البعيد بلا نهاية وغير المتصور، عندما كان روح الله يرف على فوضى الكون.

أحس الشماس بالرهبة وخاف في سره من أن يعاقبه الله لأنه يصاحب أناساً غير مؤمنين، بل يذهب حتى لمشاهدة مبارزتهم ستكون مبارزة تافهة، بلا سفك دماء، مضحكة، ولكن أياً كان الأمر فهى مشهد وثنى، ولا يليق أبداً برجل دين أن يشهدها وتوقف وفكر: ألا ينبغي أن يعود؟ بيد أن حب الاستطلاع القوى المقلق تغلب على الشكوك، فواصل سيرهوراح يهدئ نفسه: رغم أنهم ليسوا مؤمنين، إلا أنهم أناس طيبون، وستكتب لهم النجاة حتماً ستكتب لهم النجاة قالها بصوت مسموع وأشعل لفافه.

بأي معيار ينبغي أن تقيس فضائل الناس لكي نحكم عليهم بالعدل؟ تذكرالشماس عدوه، مفتش المعهد الديني، الذي كان يؤمن بالله، ولا يتقاتل في المبارزات، ويعيش عفيفاً، ولكنه في وقت ما كان يطعم الشماس خبزاً مخلوطاً برمل، وكاد أن يقطع له أذنه ذات مرة وإذا كانت الحياة البشرية قد رتبت بهذه الصورة غير الحكيمة بحيث كان الجميع في المعهد يحترمون هذا المفتش القاسي الغشاش الذي كان يسرق طحين العهدة، ويصلون من أجل صحته وخلاصه، فهل من العدل أن يتجنب أناساً مثل فون كورين ولايفسكى فقط لأنهما غير مؤمنين؟ وراح الشماس يبحث هذه المسألة ولكنه تذكر كم كان منظر صامويلنكو اليوم مضحكاً فقطع عليه هذا حبل أفكاره أوه كم سيضحك.

غداً تصور الشماس كيف سيقبع تحت إحدى الحبائل ويسترق النظر، وعندمايشرع فون كورين غداً أثناء الغداء في التباهي بنفسه، فإن الشماس سيقص عليه وهو يضحك كل تفاصيل المبارزة وسيسأله عالم الحيوان: من أين عرفت كل شيء؟ فيرد عليه: تلك هي المسألة هكذا كنت جالساً في البيت ولكني أعرف.

وكم يكون طريفاً لو كتب وصفاً مضحكاً للمبارزة فسوف يقرأه حموه ويضحك، فحموه يفضل ألا تطعمه شيئاً ولكن قص عليه أو اكتب له أي شيء مضحكانكشف أمامه وادى النهير الأصفر أصبح النهير من المطر أعرض وأشرس، ولم يعد يزمجر كما كان في السابق بل يزأر وبدأ الفجر يشرق وبدا الصباح الرمادي الكابي، والسحب الراكضة نحو الغرب لتلحق بغيمة العاصفة، والجبال المطوقة بالضباب، والأشجار المبللة بدا كل ذلك للشماس قبيحاً وغاضباً واغتسل من جدول، وقرأ صلوات الصباح، وهفت نفسه إلى الشاي والشطائر الساخنة بالقشدة التي يقدمونها عند حميه كل صباح وتذكر زوجته والعهد الذي لن يعود الذى تعزفه على البيانوأية امرأة هي؟ لقد عرفوا الشماس عليها، وخطبوها له، وزوجوه بها في أسبوع واحد، وعاش معها أقلمن شهر ثم أرسلوه في مهمة إلى هنا، حتى إنه لم يعرف حتى الآن أي شخص هي ومع ذلك فهو يشعر بالملل بدونها وفكر: ينبغي أن أكتب لها رسالة.

ابتلت الراية فوق الدوخان وتهدلت، وبدا الدوخان نفسه بسقفه المبلل أدكن وأقصر مما كان عليه سابقاً وبجوار الباب وقفت عربة جر وكان كربلاى وشخصان أبخازيان، وامرأة تترية شابة في سروال فضفاض، ربما كانت زوجة كربلاى أو ابنته، ينقلون من الدوخان أجولة ما ويضعونها في العربة فوق عيدان الذرة الجافة وبجوار العربة وقف زوجان من البغال منكسى الرأس وبعد أنرصوا الأجولة أخذ الأبخازيان والتترية يغطونها بعيدان الذرة، بينها مضى كربلاى يسرج العربة على عجلوفكر الشياس: يبدو أنه تهريب.

وها هي ذي الشجرة الممددة ذات الإبر الجافة، وها هي ذي البقعة السوداء المتخلفة عن النار وخطرت له النزهة بكل تفاصيلها النار، وغناء الأبخازين، والأحلام المعسولة عن منصب الكاهن والموكب الدينى وأصبح النهير الأسودمن المطر أشد سواداً وأعرض وعبر الشماس بحذر الجسر الواهى الذي أصبحت الأمواج القذرة تطاله بذؤاباتها، وصعد على السلم إلى حظيرة التجفيف.

عقل رائع! - فكر في فون كورين وهو يتمدد على القش عقل طيب، فليعطه الله الصحة لكن فيه قسوةترى لماذا يكره لايفسكى، وذلك يكرهه؟ ولماذا سيتقاتلان في المبارزة؟ لو أنهما عرفا منذ الطفولة تلك الفاقة التي عرفها الشماس، ولو أنها تربيا وسط أناس أجلاف، غلاظ القلوب، جشعين، يعيرون بكسرة الخبز، أفظاظ خشنين في المعاملة، يبصقون على الأرض

ويتجشأون على الغداء وأثناء الصلاة، ولو لم تدللها منذ الطفولة ظروف الحياة الطيبة ودائرة الأصدقاء المختارين، إذن لتمسك كل منهما بصاحبه، ولغفر له عن طيب خاطر كل عيوبه، ولقدر فيه ما يتحلى به فيا أقل الناس المستقيمين، ولو ظاهرياً، في هذه الدنيا! صحيح أن لايفسكى عابث، منحل، غريب، ولكنه لن يسرق، ولن يبصق على الأرض بصوت عال، ولن يؤنب زوجته: تلتهمين ولا تعملين، ولن يقدم على ضرب طفل باللجام أو يطعم خدمه قديداً عفناً أفلا يكفي هذا لكى ننظر إليه بتسامح؟ وعلاوة على ذلك فهو أول من يعاني من عيوبه، كالجريح من جراحه وبدلاً من أن يبحثوا، بسبب الملل و سوء فهم ما، كل في صاحبه عن التحلل والانقراض والوراثة وغيرها من الأشياء الصعبة الفهم، أفلا يجدر بهم أن يهبطوا إلى أسفل لكي يوجهوا كراهيتهم وسخطهم إلى هناك حيث تضج شوارع بأكملها بالأنين من الجهل الفظ والجشع والتعبير والقذارة والسب وولولة النساء.

تردد وقع عربة فقطع على الشماس حبل أفكاره وأطل من الباب فرأيعجلة فيها ثلاثة: لايفسكى وشيشكوفسكى ورئيس مكتب البريد والبرقوقال شيشكوفسكى: ققوهبط ثلاثتهم من العجلة وتطلعوا بعضهم إلى بعض وقال شيشكوفسكى وهو ينفض عنه الوحل :

-لم يأتوا بعد حسناً إلى أن يبدأ الأمر هيا بنا نبحث عن مكان مناسب المكان هنا ضيق جداً.

ومضوا إلى أعلى النهر، وسرعان ما غابوا عن الأنظار وجلس الحوذي التترى في العجلة وأمال رأسه على كتفه ونعس وانتظر الشماس حوالي عشر دقائق ثم خرج من حظيرة التجفيف، ونزع قبعته السوداء حتى لا يلاحظوه، وأخذ يتسلل على الشاطئ بين الخمائل وأعواد الذرة وهو ينكمش نحو الأرض ويتلفت وتساقطت عليه قطرات كبيرة من الأشجار والخمائل، وكان العشب والذرة مبللين.

-يا للعار! دمدم وهو يلملم أطرافه المبللة الملوثة لو كنت أدرى لما جئتوسرعان ما سمع أصواتاً ثم رأي الناس كان لايفسكى يسير بسرعة غدوةوورواحاً في فسحة صغيرة وقد دس يديه في جيبيه وأحنى ظهره وقف شاهداه عند الشاطئ تماماً يلفان لفائف تبغ.

غريبة فكر الشماس مستغرباً مشية لايفسكى - كأنه عجوز.

وقال رئيس البريد وهو ينظر في ساعته :

-يالها من قلة ذوق من جانبهم !ربما كان التأخير في رأي العلماء شيئاً طيباً، أما في رأيي فهو سفالةوأصغى شيشكوفسكى، ذلك الرجل البدين ذو اللحية السوداء ثم قال - :قادمون!.

-أول مرة في حياتي أرى هذا! يا للروعة! قال فون كورين وقد ظهر في الفسحة، مادا كلتا يديه نحو الشرق انظروا: أشعة خضراء.

امتد من خلف الجبال ناحية الشرق شعاعان أخضران، وكان ذلك جميلاً.

بالفعل كانت الشمس تشرق - مرحباً! واصل عالم الحيوان كلامه مومئاً برأسه نحو شاهدى لايفسكى.

هل تأخرت؟

سار من خلفه شاهداه، بوبكو وجفروفسكى، اثنان من الضباط الشبان جداً، من طول واحد، في سترتين بيضاوين، ثم الدكتور أوستيموفتش، النحيل المنطوي، الذي كان يحمل في إحدى يديه لفة ما، بينما وضع الأخرى خلف ظهره وكالعادة كان هناك عصا ممدودة بطول ظهره وضع اللفة على الأرض ودون أن يحيي أحداً، أرسل يده الثانية أيضاً وراء ظهره وأخذ يتمشى في الفسحة.

أحس لايفسكى بذلك التعب والحرج الذي ينتاب شخصاً ربما سيموت بعد قليل، ولذلك يستلفت أنظار الجميع وأراد أن يسرعوا بقتله أو بحمله إلى البيت كانت هذه أول مرة يرى فيها شروق الشمس وبدا له هذا الصباح الباكر، والأشعة الخضراء، والرطوبة، وهؤلاء الناس ذوو الأحذية المبللة، بدوا زائدين في حياته، لا لزوم لهم، وضايقوه لم يكن لكل هذا أية علاقة بالليلة التي مرت به، وبأفكاره وإحساسه بالذنب لذلك كان يود عن طيب خاطر لو انصرف دون انتظار المبارزةوكان فون كورين بادى الانفعال، وحاول أن يخفي ذلك، متظاهراً بأنه مهتم أكثر شيء بالأشعة الخضراء

وكان الشهود محرجين، يتبادلون النظرات، كأنما يتساءلون لماذا هم هنا وماذا يفعلون وقال شيشكوفسكى :

أعتقد يا سادة أنه لا داعي للابتعاد أكثر المكان هنا لا بأس فوافق فون كورين -نعم، طبعاً.

وحل الصمت وفجأة انحرف أوستيموفتش، الذي كان يتمشى، واتجه إلى لايفسكى وقال بصوت خافت وهو يزفر في وجهه :

-من المحتمل أنهم لم يتمكنوا بعد من إبلاغك بشروطى كل طرف يدفع الى خمسة عشر روبلا، وفي حالة وفاة أحد الخصمين يدفع الباقى على قيد الحياة الثلاثين روبل كلهاكان لايفسكى يعرف هذا الرجل من قبل، إلا أنه رأى لأول مرة بوضوح عينيه الكابيتين، وشاربه المتصلب وعنقه النحيل المسلول: مراب لا دكتور؟ وكان لأنفاسه رائحة لحم بقرى كريهة.

وفكر لايفسكى: ما أغرب ما يوجد في هذه الدنيا من أشخاص وأجاب : حسنا

وأومأ الدكتور برأسه وعاد إلى مشيه، وكان واضحاً أنه ليس بحاجة أبدا إلى النقود، بل كان يطلبها بدافع الكراهية وأحس الجميع أنه قد حان الوقت للبدء، أو للانتهاء مما بدأ بالفعل،ولكنهم لم يبدأوا ولم ينهوا، بل ساروا ووقفوا ودخنوا وكان الضابطان الشابان، اللذان يشهدان مبارزة لأول مرة في حياتها

وأصبحا الآن لا يثقان كثيراً في هذه المبارزة المدنية التي لا ضرورة لها في رأيها، كانا يتفحصان باهتمام سترتيها ويمسحان أكمامهاواقترب منها شيشكوفسكى وقال بصوت خافت :

-يا سادة، ينبغي علينا أن نبذل كل جهودنا من أجل ألا تقع هذه المبارزةيجبأن نصالحهماوتضرج ثم استطرد :

-بالأمس جاءنى كيرلين واشتكى من أن لايفسكى ضبطه بالأمس معناديجدا فيودور وفنا، والذي منه فقال بويكو: - نعم، نحن أيضا نعرف ذلك.

-إذن وكما ترون لايفسكى يداه ترتعشان، والذي منه لن يقوى الآن حتى على رفع المسدس إن مقاتلته الآن غير إنسانية كمقاتلة ثمل أو محموم فإذا لم يتم التصالح فمن الضرورى يا سادة أن نعمل شيئاً ربما تأجيل المبارزة ياللشيطان، لو أني ما رأيت هذا.

-هلا تحدثت مع فون كورين؟ .

-أنا لا أعرف قواعد المبارزة عليها ألف لعنة، ولا أريد أن أعرفها وربما ظنلو كلمته أن لايفسكى جبن ودفعني إليه وعموما فليظن ما يشاء، سأكلمهتوجه شيشكوفسكى إلى فون كورين بتردد وهو يعرج قليلاً كأنما تخدرت ساقه، وكانت هيئته كلها تطفح كسلاً وهو يسير ويزحروشرع يقول وهو يتفحص الأزهار على قميص فون كورين باهتمام :

-إليك ما أريد أن أقوله يا سيدى هذا شيءسرى، بيننا أنا لا أعرف قواعد المبارزة عليها ألف لعنة، ولا أريد أن أعرفها، وأتحدث لا كشاهد بل كإنسان نعم وماذا؟ .

-عندما يعرض الشهود التصالح، فعادة لا يصغي أحد إلى كلامهم، ويعتبر ذلك مسألة شكلية غرور وخلافه ولكني أرجوك لو تكرمت أن تنتبه إلى إيفان أندريتش إنه اليوم ليس في حالة طبيعية، ليس في وعيه كما يقال، وبائس لقد حلت به مصيبة إنني لا أطيق الأقاويل وتضرج شيشكوفسكى وتلفت حوله ولكن بسبب المبارزة أجد من الضرورة أن أبلغك ففي مساء الأمس وجد مدامه في بيت مريدوف مع أحد السادةياللقرفدمدم عالم الحيوان وشحب وجهه، وامتعض وبصق بصوت عال - أتفو.

ارتعشت شفته السفلى وابتعد عن شيشكوفسكى وهو لا يرغب في سماع المزيد، وبصق مرة أخرى بصوت عال وكأنه ذاق عن غير قصد شيئاً مراً، وتطلع بكراهية إلى لايفسكي لأول مرة في هذا الصباح كان انفعاله وحرجه قد زايلاه فهز رأسه وقال بصوت عال :

-إنني أسألكم يا سادة، ماذا ننتظر؟ لماذا لا نبدأ؟ .

تبادل شيشكوفسكى النظرات مع الضابطين وهز كتفيه ثم قال بصوت عال ودون أن يخاطب أحداً :

-يا سادة! يا سادة! نحن نعرض عليكم التصالح فقال فون كورين فلننته بسرعة من الشكليات لقد تحدثتم عن التصالح ما هي الشكليات الأخرى الآن؟ لتسرعوا يا سادة، فالوقت ضيق فقال شيشكوفسكى بنبرة مذنبة كشخص مضطر إلى التدخل في شؤناالآخرين :

ولكننا نصر على التصالح مع ذلك وتضرج، ووضع يده على قلبه واستطرديا سادة، نحن لا نرى علاقة سببية بين الإهانة والمبارزة ليس هناك شيء مشترك بين الإهانة التي يوجهها أحدنا للآخر أحياناً بسبب ضعفنا الإنساني، وبين المبارزة كلاكما شخصان جامعيان، مثقفان، وبالطبع تعتبران المبارزة إحدى الشكليات البالية الجوفاء فحسب ونحن أيضاً ننظر إليها نفس النظرة وإلا لما جئنا، لأننا لا نستطيع السماح في حضورنا بأن يطلق الناس النار بعضهم على بعض ومسح شيشكوفسكى العرق من فوق وجهه واستطرد صفيا يا سادة خلافكما، ومدا أيديكما لبعضكما البعض، ولنذهب إلى البيت لنحتفل بالصلح أقسم بشرفي يا سادة.

لزم فون كورين الصمت ولما لاحظ لايفسكى أنهم ينظرون إليه قال - :أنا ليس لدي شيء ضد نيقولاي فاسيليفتش إذا كان يعتبر أنني مخطئ فأنا على استعداد للاعتذار إليه وغضب فون كورين وقال: -من الواضح يا سادة أنكم ترغبون في أن يعود السيد لايفسكي إلى البيت رجلاً سمحاً، فارساً، ولكني لا أستطيع أن أتيح لكم وله هذه المتعة لميكن هناك داع للنهوض مبكراً والرحيل عشرة كيلومترات خارج المدينة لكى نشرب احتفالاً بالصلح ونمز

ولكى توضحوا لي أن المبارزة هي إحدى الشكليات البالية المبارزة هي المبارزة ولا ينبغي أن تجعلوها أسخف وأزيف مما هي عليه فعلاً أنا أرغب في القتال !.

وحل الصمت وأخرج الضابط بوبكر من الصندوق مسدسين مد أحدهما إلى فون كورين، والآخر إلى لايفسكى، ثم وقع ارتباك بعث المرح لفترة قصيرة في نفس فون كورين والشهود فقد اتضح أنه لا يوجد من بين جميع الحاضرين شخص واحد شهد مبارزة طوال حياته ولم يكن أحد يعرف على وجه الدقة كيف ينبغي أن يقف المتبارزان وما الذي يجب أن يقوله ويفعله الشهود ولكن بوبكر تذكر بعد قليل وأخذ يشرح لهم وهو يبتسم وسأل فون كورين مبتسماً :

-يا سادة، من الذي يذكر كيف وصف ليرمونتوف ذلك؟ وعند تورجينيفأيضاً تقاتل بازاروف مع شخص مافقال أوستيموفتش بعجلة وقد توقف عن المشي :وما الداعي الآن للتذكر؟ قيسوا المسافة وانتهينا وخطا ثلاث خطوات كأنما يبين لهم كيف يقيسون وقاس بوبكر المسافة بالخطوات بينما شهر رفيقه سيفه خدش به الأرض عند نقطتي البدء لكي يحدد الخط الفاصل.

وشغل الحصان مكانيهما والصمت يخيم على الجميع حيوانات الخلدتذكر الشماس وهو قابع في الخميلة وقال شيشكوفسكى شيئاً ما،وعاد بوبكر فأوضح شيئاً ما، ولكن لايفسكى لم يسمعهما، أو بالأحرى سمعهما

لكنه لم يفهم وعندما حان الوقت شد الزناد ورفع فوهة المسدس الثقيل البارد إلى أعلى ونسي أن يفك أزرار المعطف فأحس بضغط شديد على كتفه وتحت إبطه وارتفعت ذراعه بصعوبة بالغة وكأنما كان كمه مصنوعاً من الصفيح وتذكر كراهيته بالأمس لذلك الجبين الأسمر والشعر المجعد، وفكر بأنه حتى بالأمس، في سورة حقده وغضبه، ما كان ليقوى على إطلاق النار على إنسان وخوفاً من أن تنطلق الرصاصةعفواً بطريقة ما فتصبب فون كورين أخذ يرفع المسدس أعلى فأعلى، وأحس أن هذه الساحة المبالغ في إظهارها ليست لبقة ولا سمحاء، ولكنه لم يكن يعرف أو يستطيع أن يتصرف على نحو آخر وفكر لايفسكي وهو ينظر إلى وجه فون كورين الشاحب الباسم بسخرية، والذي كان فيما يبدو واثقاً منذ البداية من أن غريمة سيطلق النار في الهواء، فكر بأن كل شيء سينتهى الآن والحمد لله، وأنه عليه فقط أن يضغط بقوة على محرك المسدس.

وأحس بصدمة قوية في كتفه، ودوت طلقة، وتجاوب صداها في الجبال :باخ طاخورفع فون كورين الزناد، ونظر ناحية أوستيموفتش الذي كان يتمشى كما في السابق، عاقداً يديه خلف ظهره، غير مهتم بأي شيءوقال له عالم الحيوان :يا دكتور، أرجوك، لا تتمشى كالبندول بصرى بزوغ من حركتكوتوقف الدكتور وأخذ فون كورين يسدد نحو لايفسكى خلاص فكر لايفسكى.

فوهة المسدس، المصوب مباشرة إلى الوجه، وتعبير الكراهية والاحتقار في وقفة فون كورين وفي هيئته كلها، وهذا القتل الذي سيقدم عليه شخص شريف في وضح النهار على مرأى من أناس شرفاء، وهذا الهدوء، وتلك القوة المجهولة التي أجبرت لايفسكي على الوقوف ومنعته من الهرب كم يبدو ذلك كله غامضاً، غير مفهوم، ورهيباً! وبدا الزمن الذي قضاه فون كورين في التسديد للايفسكى أطول من تلك الليلة وتطلع إلى الشهود ضارعاً، إلا أنهم لم يتحركوا وكانوا شاحبين.

هيا أطلق، بسرعة فكر لايفسكى وشعر بأن وجهه الشاحب المرتعش البائس لابد أن يثير في نفس فون كورين مزيداً من الكراهية سأقتله الآن فكرفون كورين وهو يسدد إلى جبين لايفسكى ويتحسس حرك المسدس بأصبعه نعم، طبعا، سأقتله.

-إنه سيقتله! - ترددت فجأة صرخة يائسة من مكان قريب جداًوعلى الفور دوت الطلقة وعندما رأى الجميع أن لايفسكى واقف في مكانه لم يسقط، نظروا إلى الجهة التي صدرت منها الصرخة فرأوا الشماس كان واقفاً بين أعواد الذرة على الشاطئ الآخر، شاحباً، مبللاً كله وملطخاً بالوحل وشعره المبلل ملتصق بجبينه وخديه، وهو يبتسم ابتسامة غريبة ويلوح بقبعته المبللة وضحك شيشكوفسكى من الفرحة ثم بكى، وانتحى جانباً.

بعد ذلك بقليل التقى فون كورين بالشماس عند الجسر كان الشماس منفعلاً، يلهث ويتحاشى النظر في عيني فون كورين كان يشعر بالخجل من خوفه ومن ملابسه القذرة المبللة ودمدم الشماس :خيل إلى أنك كنت تريد أنتقتله كمأن هذا مناف للطبيعة الإنسانية !وإلى أية درجة هو غير طبيعى !.

فسأله عالم الحيوان: ولكن كيف جئت إلى هنا؟ فأشاح الشماس بيده :

-لا تسأل ! أغواني الشيطان أن أذهب وها قد ذهبت، فكدت أموت من الخوف بين أعواد الذرة ولكن الحمد لله الآن، الحمد لله أنا راض عنك تماماً دمدم الشماس وجدنا العنكبوت سيكون راضياً أيضاً كم كان ذلك مضحكاً، كمكان مضحكاً !ولكن أرجوك بشدة ألا تقول لأحد إنني كنت هنا، وإلا فإن الرؤساء سيصفعونني على قفاي في الغالب سيقولون كان الشماس شاهداً.

فقال فون كورينيا سادة، الشماس يرجوكم ألا تخبروا أحداً بأنكم رأيتموه هنا،قد يسبب له ذلك مشاكل.

وتنهد الشماس :كماأن هذا مناف للطبيعة الإنسانية! أرجوك أن تسامحني ولكن منظر وجهك جعلني أعتقد أنك ستقتله حتماً.

فقال فون كورين :

-راودني إغراء شديد بأن أقضي على هذا الوغد، ولكنك صرخت وأنا أصوب فأخطات الهدف ومع ذلك فهذه العملية كلها كريهة، غير معتادة، وقد أرهقتنى يا شماس أحس بضعف شديد هيا، اركب.

-لا، أرجوك دعني أعود ماشياً ينبغي أن أجفف ثيابي، فقد تبللت تماماً.

وبردت - كما تشاء قال عالم الحيوان بصوت فاتر واهن وهو يجلس في العجلة مغمضاًعينيه كما تشاء.

وبينما كانوا يتحركون بجوار العربات ويستقلونها، وقف كربلاى بجوار الطريق وقد أمسك بطنه بكلتا يديه، وأخذ ينحني بشدة ويكشف عن أسنانه كان يظن أن السادة قد جاءواللاستمتاع بالطبيعة وتناول الشاي فلم يفهم لماذا يستقلون العربات وتحرك الركب والجميع صامتون، ولم يبق بجوار الدوخان سوى الشماس.

وقال الشماس لكربلاى أدخل دو خان، اشرب شاى نفسي عايز يأكلكان كربلاى يتحدث الروسية جيداً، ولكن الشماس ظن أن التترى سيفهمه أسرع لو خاطبه بروسية ركيكة -بيض أقلى، جبنة أعطى فقال كربلاى منحنياً :

-تعال، تعال يا قسيس سأعطيك كل شيء عندنا جبن وعندنا خمر كل ماتشاءوسأله الشماس وهو يدخل الدوخان: - كيف يسمى الإله بالتترية؟ فقال كربلاى دون أن يفهمه :

-إلهك وإلهي واحد الإله واحد عند الجميع، ولكن الناس مختلفون منهمالروس،ومنهم الأتراك ومنهم الإنجليز الناس كثيرون والإله واحدحسناً إذا كان جميع الشعوب يعبدون إلهاً واحداً، فلماذا إذن تعتبرون، أنتم المسلمين، أن المسيحين هم أعداؤكم الأبديون؟ .

فقال كربلاى قابضاً على بطنه بكلتا يديه :

-لماذا أنت زعلان؟ أنت قسيس وأنا مسلم أنت تقول: أريد أن آكل، وأنا أعطيك الغني فقط هو الذي يميز من هو ربك ومن هو ربي، أما الفقير فلا فرق لديه تفضل كلبينما دار هذا الحديث الديني في الدوخان كان لايفسكى يتذكر وهو عائد في العربة إلى البيت كيف كان يشعر بالرهبة من الرحيل في الفجر، عندما كانت الطريق والصخور والجبال مبللة ومظلمة، وبداله المستقبل المجهول رهيباً كالهوة التي لا يرى قرارها، أما الآن فكانت قطرات المطر العالقة بالعشب والصخور تشع في الشمس كالماسات، والطبيعة تبتسم بفرح، والمستقبل الرهيب أصبح وراء ظهره وأخذ ينظر بين الحين والحين إلى وجهشيشكوفسكى الباكى العابس، وإلى العربتين السائرتين في الأمام، حيث يجلس فون كورين وشاهداه والدكتور، وخيل إليه أنهم جميعاً عائدون من المقابر، حيث دفنوا لتوهم شخصاً صعباً بغيضاً كان ينغص على الجميع حياتهمانتهى كل شيء فكر لايفسكي في ماضيه وهو يحك رقبته بأصابعه في حذرظهر لديه ورم صغير في الناحية اليمني من رقبته بجوار الياقة بطول وسمك الإصبع الخنصر، وأحس بألم هناك وكأن أحدا مر بمكواة على عنقه وكان ذلك من أثر لفح الرصاصة.

وبعد أن وصل إلى البيت امتد بالنسبة له نهار طويل، غريب، عذب ومضبب حذر كالغيبوبة وأخذ كمن أطلق سراحه من سجن أو مستشفى يتفحص الأشياء المألوفة له منذ زمن بعيد ويدهش من أن الطاولات والنوافذ والكراسى وضوء النهار والبحر، تثير فيه فرحة طفولية حية لم يشعر بها منذ عهد بعيد ولم تفهم ناديجدا فيودوروفنا التي شحبت، وهزلت بشدة، صوته الوديع ومشيته الغريبة وأسرعت تروي له كل ما حدث لها وبدا لها أنه على الأرجح لا يسمعولا يفهمجيداًما تقوله، وأنه لو عرف كل شيء فسيلعنها ويقتلها، أما هو فكان يسمعها ويمسح على وجهها وشعرها، ويحدق في عينيها ويقول :

-ليس عندي أحد سواك.

وبعد ذلك جلسا طويلاً في حديقة الدار متلاصقين، صامتين، أو تبادلا بعض الجمل القصيرة المبتورة وهما يحلمان بصوت مسموع بحياتها السعيدة المقبلة، وخيل إليه أنه لم يتحدث أبداً من قبل بمثل هذا الاسترسال والجمالمر أكثر من ثلاثة أشهر بقليلوحل اليوم الذي حدده فون كورين موعداً لرحيله هطل منذ الصباح الباكر مطر غزير بارد وهبت رياح شمالية شرقية فارتفعت أمواج البحر عالياً وقيل إنه من المستبعد في جو كهذا أن ترسو السفينة في الميناء وكان من المفروض حسب جدول المواعيد أن تأتي في العاشرة صباحاً ولكن فون كورين، الذي خرج إلى الكورنيش في منتصف النهار

وبعد الغداء، لم ير عبر المنظار شيئاً سوى الأمواج الرمادية والمطر الذي كان يحجب الأفق.

وفي آخر النهار توقف المطر وهدأت الريح بدرجة ملحوظة وكان فون كورين قد استسلم لفكرة أنه لن يتمكن من الرحيل اليوم وجلس يلاعب صامويلنكو الشطرنج ولكن عندما هبط الظلام أبلغهم جندى المراسلة أنه قد لاحت أضواء في البحر وشوهد صاروخ إشارةونهض فون كورين على عجل وعلق الحافظة في كتفه وتبادل القبلات مع صامويلنكو والشماس، وبلا أي داع طاف بالغرف جميعاً، وودع الجندي والطاهية، وخرج إلى الشارع بإحساس كأنما نسى شيئاً ما عند الدكتور أو في شقته سار في الشارع بجوار صامويلنكو، وتبعه الشماس حاملاً صندوقان ومن خلف الجميع سار الجندي حاملاً حقيبتينولم ير الأضواء الكابيةفيالبحر سوى صامويلنكو والجندي، أما الباقون فحدقوا في الظلام ولم يرواشيئاً كانت السفينة تقف بعيداً عن الشاطئ.

-بسرعة، بسرعة - قال فون كورين بعجلة أخشى أن تقلع !.

وعندما مروا بجوار منزل بثلاث نوافذ، كان لايفسكى قد انتقل إليه عقب المبارزة، لم يتمالك فون كورين نفسه وأطل في النافذة كان لايفسكى يجلس محنياً على المكتب، يكتب شيئاً ما وظهره إلى النافذة فقال عالم الحيوان بصوت خافت :إنني مندهش كيف كبح نفسه هكذا! فتنهد صامويلنكو :

-نعم، جدير بالدهشة هكذا يجلس من الصباح إلى المساء، يجلس ويعملويريد أن يسدد ديونهويعيش يا أخي أبأس من شحاذ.

مر نصف دقيقة في صمت وقف عالم الحيوان والدكتور والشماس قرب النافذة وهم لا يحولون أنظارهم عن لايفسكى وقال صامويلنكو هكذا لم يسافر المسكين من هنا أتذكر كيف كان يلح على السفر؟ .

فردد فون كورين :

-نعم، كبح نفسه بشدة زواجه، وهذا العمل طول النهار من أجل لقمة الخبز، وهذا التعبير الجديد على وجهه، وحتى مشيته كل هذا غير مألوف إلى درجة أني لا أعرف كيف أسميه وأمسك عالم الحيوان بكم صامويلنكو ومضى يقول بانفعال: أبلغه وأبلغ زوجته أنني قبيل رحيلى أبديت دهشتي بها وتمنيت لهما كل خير وأطلب منه ألا يذكرني بسوء إن كان يستطيع إنه يعرفني، يعرف أنه لو كان بوسعي أن أتنبأ آنذاك بهذا التحول لأصبحت أصدق أصدقائه . -ادخل وودعه كلا هذا محرج ولماذا؟ من يدري، فربما لا تراه بعد ذلك أبداً وفكر عالم الحيوان قليلاً، ثم قال - :هذا صحيح

طرق صامويلنكو النافذة بإصبعه طرقات خفيفة، فانتفض لايفسكيوالتفتفقال صامويلنكويا فانيا، نيقولاي فاسيليتش يريد أن يودعك إنه مسافر الآن نهض لايفسكي من أمام الكتب وذهب إلى المدخل لكي يفتح البابودلف صامويلنكو وفون كورين والشماس إلى البيت.

جئت لدقيقة واحدة - قال عالم الحيوان وهو ينزع خف حذائه في المدخل، وقد أحس بالأسف لأنه استسلم لأحاسيسه ودخل إلى هنا بدون دعوة وفكر كما لوكنت أفرض نفسي عليه هذا سخيف وقال وهو يدخل في إثر لايفسكي إلى غرفته آسف على هذا الإزعاج، ولكني مسافر الآن، وشعرت برغبة في أن أراك فمن يدري إن كنا سنلتقي بعدسعيدجداً تفضل أرجوك قال لايفسكي ووضع الكراسي أمام الضيوف بطريقة خرقاء، وكأنما يريد أن يسد عليهم الطريق، ووقف في وسط الغرفة يفرك يديه وفكر فون كورين: كان ينبغي أن أترك هؤلاء الشهود فيالخارج، ثم قال بنبرة حازمة - :لا تذكرني بسوء يا إيفان أندريتش بالطبع لا يمكن نسيان الماضي، فهو محزن إلى درجة، كما أني لم آت إلى هنا لأعتذر أو لأؤكد أنني لم أكن مخطئا لقد تصرفت عن إخلاص ولم أغير معتقداتى منذ ذلك الحين صحيح أنني أرى الآن ولسروري البالغ أنني أخطأت بشأنك، ولكن قد يتعثر المرء على أرض مستوية، وذلك هو قدر الإنسان: إذا لم تخطئ في الشيء الرئيسي فستخطئ في الجزئيات لا أحد يعرف الحقيقة الأصيلة.

فقال لايفسكى: - نعم، لا أحد يعرف الحقيقة حسناً، وداعاً أرجو من الله لك كل خير ومد فون كورين يده إلى لايفسكى، فشد هذا عليها وانحنى وقال فون كورين.

-لا تذكرني بسوء إذن أبلغ تحياتي إلى زوجتك وقل لها إنني أسفت جداً لعدم تمكنى من توديعهاإنهاهنا.

مضى لايفسكى نحو الباب وقال متجهاً إلى الغرفة الأخرى :يا نادية، نيقولاي فاسيليتش يريد أن يودعك ودخلت ناديجدا فيودروفنا وقفت بجوار الباب ونظرت إلى الضيوف بوجل كان وجهها يعبر عن الفزع والإحساس بالذنب، وشدت يديها كتلميذة تصغي إلى توبيخ.

وقال فون كورين :

-إنني مسافر الآن يا ناديجدا فيودوروفنا وقد جئت لأقول الوداع مدت له يدها بتردد، بينما انحنى لايفسكى.

وفكر فون كورين: يالهما من بائسين حقاً هذه الحياة تكلفها غالياً وسأل :

سأكون في موسكو وبطرسبرج، ألا ترغبان في شيء أرسله لكما من هناك.

-ماذا؟ قالت ناديجدا فيودوروفنا وتبادلت النظرات مع زوجها بقلق أعتقد لا شيء.

-نعم، لا شيء قال لا يفسكي وهو يفرك يديه أبلغ تحياتنالم يدر فون كورين ما الذي يمكن أو ينبغي أن يقوله بعد، أما قبل أن يدخل إلى هنا فقد ظن أنه سيقول الكثير من الكلمات الطيبة والدافئة والمهمة وصافح لايفسكى وزوجته في صمت وخرج من عندهما بشعور مقبض وقال الشماس بصوت خافت وهو يسير خلفهم :

-يالهم من ناس! يا إلهي، يالهم من ناس! حقا يمناك يارب غرست هذا الكرم! يا إلهي، يا إلهي! أحدهم هزم الآلاف والآخر عشرات الآلاف وقال بإعجاب يا نيقولاي فاسيليتش، أتدري أنك انتصرت اليوم على ألد أعداء الإنسان على الكبرياء !.

كفاك يا شماس! أي منتصرين أنا وهو! المنتصرون يبدون كالنسور، أما هو

فبائس، وجل، ذليل، ينحني كالمعتوه وأنا وأنا حزينوتردد خلفهم وقع خطوات كان لايفسكى يلحق بهم ليودعه وفي المرفأ وقف جندي المراسلة مع الحقيبتين، وغير بعيد عنه أربعة بحارة.

وقال صامويلنكو :

-يا للريح الباردة بررر لابد أن العاصفة تعربد الآن في البحر! ليس وقتاً مناسباً للسفر يا كوليا.

-أنا لا أخشى دوار البحر.

-لاأقصد هذا أخشى أن يقلبك في البحر هؤلاء الأغبياء كان ينبغي أنتركب زورق الوكالة وصاح في البحارة :

-أين قارب الوكالة؟ أقلع يا صاحب المعالي وقارب الجمارك؟ أيضاً أقلع وغضب صامويلنكو :ولماذا لم يبلغوني؟ هؤلاء الحمقى! فقال فون كورين لا يهم، اطمئن حسناً، وداعاً ليحفظك الله

وعانق صامويلنكو فون كورين ورسم عليه علامة الصليب ثلاثاً لا تنسنى يا كوليا اكتب سوف ننتظرك في الربيع القادم وداعاً يا شماس قال فون كورين شاداً على يد الشماس - شكراً لك على صحبتك، وعلى الأحاديث الممتعة فكر بخصوص البعثة.

فضحك الشماس وقال - :يا إلهي، ولو إلى آخر الدينا؟ وهل أنا أعارض؟ وتعرف فون كورين في الظلام على لايفسكى فمد له يده في صمت وكان البحارة قد وقفوا في الأسفل ممسكين بالزورق الذي كان يصطدم بقوائمالرصيف، رغم أن حاجز الأمواج كان يحميه من الموج العالى وهبط فون كورين على السلم، وقفز في الزورق، و جلس إلى الدفةوصاح صامويلنكو له :اكتب لنا! حافظ على صحتكلاأحديعرف الحقيقة الأصيلة فكر لايفسكى وهو يرفع ياقة معطفه ويدس يديه في جيبيه.

ودار القارب مهمة من حول الرصيف وخرج إلى المياه المكشوفة واختفى بين الأمواج، ولكنه قفز على الفور من هوة عميقة إلى تل مرتفع حتى بدا واضحاًركابه بل حتى مجاديفه وقطع القارب حوالى ثلاث أذرع ثم ألقت به الأمواج إلى الوراء مقدار ذراعينوصاح صامويلنک واكتب! أي شيطان دفعك للرحيل في هذا الجو.

نعم، لا أحد يعرف الحقيقة الأصيلة فكر لايفسكي وهو ينظر بأسي إلى البحر الهائج المظلمومضى يفكر: البحر يدفع القارب إلى الوراء يتقدم خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء.

ولكن البحارة عنيدون، يضربون بالمجاديف بلا كلل ولا يخشون الأمواج العالية ويمضى القارب إلى الأمام قدماً، وها هو ذا يختفى عن الأنظار، وما إن ينقضي نصف ساعة حتى يرى البحارة أضواء السفينة بوضوح، وبعد ساعة سيكونون عند سلم السفينة وهكذا الحياة يخطو الناس بحثاً عن الحقيقة خطوتين إلى الأمام وخطوة إلى الوراء وتدفعهم الآلام والأخطاء وملل الحياة إلى الوراء، ولكن الشوق إلى الحقيقة والعزيمة الصلبة تدفعهم إلى الأمام قدماً ومن يدري؟ ربمايبلغون شاطئ الحقيقة الأصيلة.

وصاح صامويلنكو :

مع السلامة! وقال الشماس: لا حس ولا خبر طريق السلامة! وأمطرت السماء رذاذاً.

الفهرس